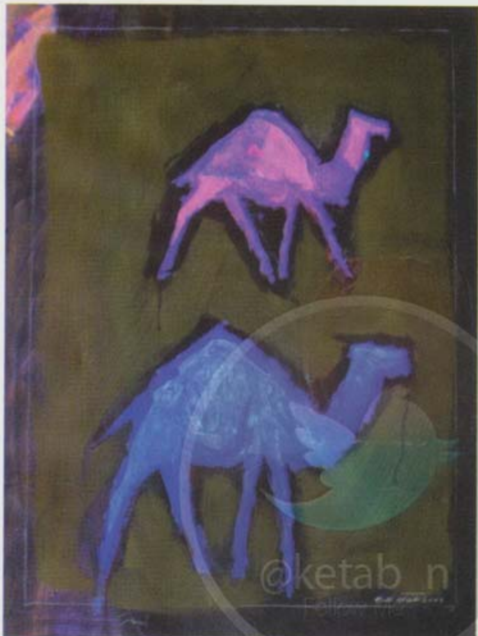
عبد الرحيم لحبيبي

تغريبة العبدي
المشهور
بولد الحمْرِيّة



رواية

جائزة البوكر BOOKER العالمية للرواية العربية
القائمة القصيرة 2014

أفريقيا الشرق

عبد الرحيم لحبيبي

تغريبة العبدي

المشهور

بولد الحمْريّة

رواية

أفريقيا الشرق

تغريبة العبدي

المشهور

بولد الحمْريّة

المؤلف : **عبد الرحيم لحبيبي**
عنوان الكتاب: **تغريبة العبدي** المشهور **بولد الحمرية** - رواية
رقم الإيداع القانوني: 2012 MO 2779
ردمك : 2-866-25-9981
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 22 05 - 13 98 25 22 05
الفاكس: 20 29 25 22 05 - 80 00 44 22 05
● النشر والتصفيف:39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء
الهاتف: 53/54 67 29 22 05
الفاكس: 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني : E. mail : africorient@yahoo. fr
www.afrique-orient.com

مقدمة

قد تكون المدخل
وقد تشبه الخاتمة؟!

- 1 -

قصدت سوق العفاريت، اسم على مسمى، سوق لبيع المتلاشيات والمواد المستعملة والمهرَّبة وما أغمضت الجمارك عيونها عنه، وما صدَّرته إلينا دول أوربا وإيطاليا خاصة من أثاث قديم وأجهزة وأدوات كهربائية، يفاخر الكثير من المهاجرين بجلبها للمساهمة في إنعاش الاقتصاد الوطني وتخفيف العبء عن الطبقات الفقيرة. نفايات أوربا ومخلفاتها الصناعية تجد في هذا السوق زبناء وعشاقا ومقتنين من فقراء الشعب وكادحيه ومزاحمة غير مشروعة من بعض المترفين الباحثين عن أبخس الأثمان... هنا كل شيء يباع، والعفاريت هم الباعة والسماسرة وبعض الزبناء، صنف من البشر يعرف أكل الكتف، ولا يهمه من أي موضع تُؤكل. عرف هذا السوق تنقيلات وترحيلات كثيرة، فقد ظهر أول مرة ـ كسوق عشوائي خارج القيسارية والجوطية القديمة بشارع إدريس بناصر مع امتداد توسعي بالطريق الذي كان يقسم مقبرة لالة هنية الحمرية إلى شطرين ـ الآن، بقي الطريق في مكانه، لكن المقبرة تحولت إلى منطقة سكنية فاخرة. ثم انتقل السوق في مرحلة ثانية إلى ساحة السجن المدني سابقا وقبل أن يتم تحويله إلى المقر الجديد خارج المدينة في الطريق المؤدية إلى سوق أحد حرارة، حيث استقر بالساحة ـ السوق وليس السجن ـ وتوسع على حساب شارع مولاي يوسف. في مرحلة ثالثة انتقل إلى منطقة الكورنيش ـ مكان حي الصقالة ودار الشباب العتيدة زمن الستينيات والسبعينيات وقبل أن تجهز عليها الجرافات فتهد كل أحلام الشباب ـ ومن هنا تسرب السوق بخفة اللصوص ومكر العفاريت إلى حدود حي تراب الصيني والدريبة المزوقة. حاليا حط الرحال بحي هرايات البيض وبالضبط قرب قنطرة السكة الحديدية التي تصل

بين تراب الصيني وهرايات البيض، متمددا ـ بسبب مرضه السرطاني ـ إلى درب حمام بوحميد، زاحفا أمام ماكينة غيبي للنجارة ليخترق شارع محمد الخامس ويمر أمام إحدى أقدم مدارس التعليم الابتدائي بأسفي وليلتف في الأخير على حدود شارع الرباط لالتهام كل من يمر وفي جيبه دريهمات لا يعرف أين ولا كيف ينفقها. توجهت إليه هذه المرة ـ خلافا للمرات السابقة ـ بناء على نصيحة صديق، أخبرني وهو يتناول معي قهوة الصباح ـ واليوم يوم أحد وهو يوم السوق الأسبوعي حيث يعرف ذروة البيع والشراء ـ بوجود مجموعة من الكتب والمجلات والوثائق القديمة بسوق العفاريت، لعلها متحصلة من مقتنيات خزانة قديمة باعها الورثة أو تخلصوا منها. كنت أعلم أنه ـ أحيانا ـ تعرض بعض الكتب المستعملة للبيع أو يعاد بيع الكتب المدرسية والمجلات والسيديات المقرصنة والكتب الدينية الدعوية، وما شابه ذلك... ولكن وجود كتب خزانة قديمة متوارثة معروضة للبيع من باب النوادر ومما يثير الفضول ولهفة الاقتناء ومتعة التحف التاريخية، خاصة أن صديقي أضفى على حديثه مقدارا كبيرا من الجدية والأهمية وهالة من التشويق والتحبيب ما حفزني وأثارني، إذ طيلة المدة التي كنت أزور فيها السوق، وكانت طويلة نسبيا وعلى فترات متباعدة ـ لم يسترع انتباهي أبدا وجود كتب قيمة ـ بالشكل الذي ذكره صديقي ـ معروضة للبيع، فضلا عن عدم وجود مكان مخصص ومتخصص بالسوق لبيع الكتب. أحيانا أكتفي بالنزهة، وأحيانا أخرى أصطاد كتابا شاردا أو مجلة قديمة بين أكوام من الورق والكتب المدرسية. اليوم.. كنت أحس أن جديدا سيطرأ على علاقتي بالسوق وعفاريته، رغم أنني لم أكن قادرا على تحديد شكل هذا الشعور أو درجته، فإن هذا الإحساس الإيجابي والفرح المفاجئ بتوقع وجود شيء ذي قيمة فنية أو ثقافية أو أدبية أو تاريخية أو أثرية لم يبعث فيَّ الحماسة ولم يدفع عني التردد في قبول دعوة الصديق بالإقلاع فورا إلى سوق العفاريت. كان يدور بذهني، ويثبط عزيمتي، أن يكون الأمر متعلقا بخزانة لأحد العدول أو القضاة الشرعيين أو الفقهاء، كتب في الفقه والنوازل والأجرومية والتقويم الفلكي، وما أكثر ذلك في خزائن القدماء. ومع تسليمي المبدئي بأهمية هذا التراث، فلم يكن مما يؤثث أفقي في البحث والقراءة، فضلا عن اهتماماتي وميولي. كنت أبحث عن شيء آخر، لم أحدده بعد، ولكن ليس هذا بالتأكيد.

بنوع من التردد والتكاسل، وقليل من الاهتمام ودعت صديقي ويممت وجهي جهة سوق العفاريت، داخلا إليه من الطريق التي كانت يوما محطة لعربات الكوتشي، يا حسرة... أيام الكوتشي، واجمع كل شي أمول الكوتشي.. كانت العربة وكانت الخيول، وكان الحوذي.. وكانت البراءة وعذرية الحياة والرحلة الحميمية والطريق بين هرايات البيض والكورس يُغريك ويُبهجك، خاصة إذا جاورت في الجلوس ذات ورك وكفل وبياض ناصع والسماء تمطر.. تتمنى لو كانت الرحلة إلى مراكش لتنام بين أحضان ناعمة بضة. لم يكن مكان تاجر الكتب بهذا الزقاق كما نعته لي صديقي، ولكنني أحببت أن أفوز بجولة في السوق لإحساسي بأنني لن أجد فيه ما يُغريني ويثير دهشتي، ففصل الصيف قد ولّى منذ مدة طويلة، ومعه ذهب الرواج ونفذت سلعة الكونطرابندو. مررت بجميع العارضين، ووقفت قليلا أمام بعضهم.. ألبسة ومفروشات وأدوات كهربائية وكراسي مراحيض ومغاسل وعربة نقل صغيرة مما يستعمل في اقتناء المشتريات بالأسواق الكبرى وصنابير مياه مقتلعة من أماكنها، لاتزال آثار الاقتلاع شاهدة على تاريخ الاستعمال، وعجلات سيارات بإطاراتها المعدنية دون أن تظهر عليها آثار الاقتلاع، درجات نارية وهوائية ومسجلات صوتية للسيارات، مقتلعة هي أيضا بشهادة الندوب والكسور، وأشياء أخرى كثيرة، يحار المرء كيف وصلت إلى هذا المكان واكتسبت مشروعية وجودها، رغم أن نصفها أو أكثر متحصل من السرقات والتهريب.

وصلت متمهلا وغير مكترث للأمر إلى المكان الذي نعته لي الصديق، كانت الكتب المستعملة والوثائق والملفات والأقلام ومحابر المداد والمنشفات والأغلفة وأعداد من المجلات والجرائد القديمة والحقائب المدرسية تملأ مساحة من ثلاثة أمتار مربعة، بضاعة مبعثرة ومتناثرة، لم يُعن صاحبها بتنظيمها وتصنيفها، وكأنه زاهد في تجارتها أو مُرغم على بيعها، كان البائع يقف وسط المساحة الصغيرة التي تشغلها البضاعة، عاقدا على رأسه عمامة صفراء، وفي يده سيجارة لم يتبق منها إلا بضعة أنفاس، ومع ذلك ظل متشبثا بها إلى آخر نفس، يصرخ زاعقا في محاولة يائسة للترويج ولفت الأنظار إلى بضاعته دون أن يلقى صدى لنداءاته وإلحاحاته عند المتسوقين وعموم المارة الذين

ما أن يصل أحدهم إلى حلقة المربع حتى ينكص موليا الأدبار ويتابع السير نحو حطات الألبسة الرياضية والأحذية الإيطالية وعربات الأقراص المقرصنة المسموعة والمرئية الصادحة بأغاني الراي وحاجب والستاتي وفاطنة بنت الحسين وغيرهم كثير.

توقفت أمام الحطة، مسحت بعيني المكان جيدا، حددت مواقع التفتيش والتنقيب، جلست القرفصاء أمام كومة الكتب والوثائق، بدأت البحث ولهفتي تخبو بقدر ما يأسي يكبر ويعظم، كنت بين الرجاء والخيبة، لكنني وطدت العزم أن لا أعود خائبا، علي بالغُنم حتى لو كانت الغنيمة عجفاء، قلَّبت وفتشت كثيرا، وأعدت الكرة مثنى وثُلاث ورُباع، أقرأ العناوين والفهارس وأقلب الصفحات وأدقق في أسماء المؤلفين وتواريخ الطبع وأماكنها... لم تكن مهمة التنقيب مُيسَّرة ولا يسيرة إزاء هذا الركام المشتت والفوضى - غير المنظمة -، وبعد لأي وعنت اهتديت إلى اختيار بعض الوثائق، راضيا بما غنمت من أوراق مخطوطة غير مرتبة، أظهر انطباعي الأولي - من خلال تصفحي لبعض السطور - أنها تكاد تكون نصوصا في باب الرسائل وأدب الترسل والكتابة الإخوانية، وربما أن ما شجعني على اقتنائها هو رغبتي الدفينة في الحصول ذات يوم على مخطوط، ليس اتباعا لسياق اقتناء المخطوطات وعرضها وتزيين واجهات المكتبات بها أو المشاركة في مسابقات الجوائز، ولكن لشغف عارم بأن تقرأ خط المؤلف أو خط الناسخ الذي أمضى ليالي طوالا ليمتع القارئ، وليكون الصيد وفيرا، اقتنيت أيضا بعض المجلات القديمة وصورا فوتوغرافية لمدينة أسفي تعود إلى بدايات القرن العشرين.

عُدت محمَّلا ببضاعة لا أعلم قدرها وجدواها، كان همي أن لا أعود خائبا، وأن أشبع الرغبة الحارقة التي تجتاحني، وكل من هو في حالتي، أمام إغراء الكتب وهي تعرض مباهجها وسحرها الأخاذ كأجمل الكائنات في هذا الكون. ألقيت بصيدي فوق رف المكتبة، وانشغلت عنه بإعداد الواجبات المهنية التي جرفتني معها لأيام عديدة قد تقارب الشهر. كانت الإشارة التي أيقظت كوامني، اللحظة التي رأت فيها المتنبي، أقصد اسم المتنبي مكتوبا بخط مغربي ضخّم الحروف وأبرز الاسم بالتشديد عليه، ولعل الناسخ - وقد يكون المؤلف نفسه -

وهذا ما لا أستطيع الجزم به الآن، فلم أقرأ الأوراق بعد، قد أخذ وقته في رسم خطوط اسم المتنبي. إشارة ثانية التقطتها على موجة حبي للمتنبي سيرة وشعرا عندما ذكر له:

أنا تِربُ الندى وربّ القوافي   وسِمامُ العِدى وغَيظُ الحَسود

أنا في أُمّة ـ تداركها الله ـ   غريبٌ كصالِح في ثمودِ

وقوله أيضا:

ما مُقامي بأرضِ نَخْلَةَ   إلاّكمُقامِ المسيحِ بين اليهودِ

استبشرت وتفاءلت، تحفزت وترقبهت، تطلعت نفسي لمعرفة أسباب التنزيل، من يعرف المتنبي لابد أن يكون من أهله وعشيرته الأدبية. إشارة ثالثة صفعتني ـ ليس بمعنى صفعة التأديب والتوبيخ ـ ولكنها صفعة ملاك الرحمة في غرفة الإنعاش تسعى لإفاقة مريض من أثر التخدير، حتى إذا فتح عينيه رأى وجها ملائكيا وابتسامة حنونة مشرقة كهلال عيد الفطر. شدد الناسخ على جملة «تداركها الله» وهي جملة اعتراضية، لكنها في موضع أسماه البلغاء «بالالتفات في باب الخروج عن مقتضى الظاهر» حين يجمع البليغ بين أسلوبين مختلفين، كما في حالة المتنبي الذي لم تمنعه حالة التشاؤم واليأس والتردي من التضرع والدعاء لأمته باليُمن والخير. أدركت أن صاحبي الذي عثرت عليه بسوق العفاريت هو أيضا من عفاريت اللغة العربية وشياطينها وأن الكنز الذي عثرت عليه قد بدأ يُظهر بعض نفائسه وتُحفه. لقد تلبّس الأبيات الشعرية وعبّر عن نفسه وحالته من خلالها، هو كالمتنبي غريب بين قومه وعشيرته وأمته، استجمعت أشلائي المتناثرة، حواسا وذهنا وعزما وإدراكا ثم سافرت في رحلة داخل المخطوطة وسؤال التماثل بين المؤلف والمتنبي في شخصية الغريب الملتبسة في صالح وقومه، والمسيح وأهله من اليهود، هل كان المتنبي ـ فعلا ـ يُحس أنه نبي غريب في قومه؟! وهل مؤلف المخطوطة يحس هو أيضا بأنه غريب بين أهله ؟!...

كان الخط مغربيا منسوخا بعناية فائقة، ورغم آثار القدم وقلة الاهتمام بالمحافظة والصيانة، فلا يزال الخط واضحا، بهيا، مشرقا بحروفه وثنياته ومدّاته وواواته وجرّاته وتاءاته المربوطة والمفتوحة وأواخر كلماته المعتنى بها بحفاوة بالغة. لعل المؤلف ـ أو الناسخ ـ حرر هذه النسخة من بعد تسويد سابق. أعدت ترتيب الصفحات كمرحلة أولية ـ في انتظار أن أتفرغ بجدية للترتيب النهائي ـ خاصة بعد أن لاحظت استعماله أسلوب «التوريق» حيث يتم الترقيم بالورقة وليس بالصفحة، وحيث تأخذ الورقة الواحدة وجها وظهرا رقما واحدا. وفي كثير من الصفحات لجأ المؤلف إلى تذييل الصفحة التي أنهى كتابتها بأول كلمة سيفتتح بها الصفحة التالية وهو ما يسمى عند الخطاطين بأسلوب «التلحيق» للربط والانتقال السلس من صفحة إلى أخرى، وقد استعمل أيضا في كتابة المصحف القرآني. سجلت أيضا كملاحظة أولية أن المؤلف لم يضع عنوانا لمخطوطته ولم يحدد أبوابا أو أجزاء أو فصولا، كما أظهرت هذه القراءة التصفحية أن المخطوطة ـ أو ما تبقى منها ـ لم يتعرض للتلف أو البلى أو الرطوبة أو الأرضة والجرذان، لكن إحساسي كقارئ مهتم يتصفح مجموعة من الأوراق أثار قلقي ووَسْوس لي بأن المخطوطة ناقصة وربما ضاعت منها فصول برمتها، لكن شيئا مهما أخذ في الظهور والتجلي الواضح، أنني أمام مخطوطة بخط مؤلفها الأصلي، والأدلة كثيرة، فلم يتمكن من عنونتها أو ترتيبها أو تصحيح كلمات وجمل، ولو كان ناسخا غيره لأخذ وقته الكافي لتدارك كل ذلك. هذا الاقتناع هو الذي قادني مرة ثانية إلى سوق العفاريت بعد مدة زمنية قاربت الشهر للبحث من جديد عما يكون قد سقط من المخطوطة من أوراق أو التي ربما دُست داخل مجلة أو كتاب أو ملف، سهوا أو غفلة أو جهلا. كل هذا وأنا لم أتمكن من معرفة اسم المؤلف ولا اسم الناسخ الذي يذكر عادة في آخر صفحة، ولم أتمكن بعد من تحديد موضوع المخطوطة بالضبط، في اللغة والنحو أم في الفقه والنوازل، ما حصلت عليه قد لا يكون إلا جزءا. لم يطل ليلي.. ولم أنم، كنت أتقلب على فراش من الهواجس والمخاوف ومشاعر الخيبة، كنت كمن رأى غادة جميلة عدة مرات، فلما تعلق بها اختفت كسراب أو برق خُلب لمع ثم انطفأ.

عدت إلى سوق العفاريت، هذه المرة ليست كسابقاتها، كنت مهتما قلقا مهوسا بالبحث عما ضاع مني في الجولة الماضية، متلهفا إلى الحصول على الأوراق المتسربة من المخطوطة، إن لم تكن جميعا، فعلى الأقل بعضها، وفي أسوأ التقديرات الورقات المفصلية: صفحات العنوان، إسم المؤلف، مقدمة الكتاب أو خاتمته... سألت عن البائع حتى وجدته، هذه المرة كان يصيح معلنا عن بضاعة من الأقمصة الرياضية والتي-شورتات الصيفية، سبحان مبدل الأحوال ! ومع ذلك تجرأت وسألته عما بقي من بضاعة الكتب التي كانت معه يوم كذا بتاريخ كذا... نظر إلي بعدم اكتراث ثم أشاح عني بوجهه الشبيه بلون التراب الحمريِّ وهو يتابع باهتمام المتفحصين لبضاعته، ودون أن يلتف إلي قال: تخلصت منها لَصْحاب الزريعة وكاوكاو والحمص، اخْسارتها كبيرة، ادعي معانا ألفقيه باش إيعَوَضْ لِنا الله في هاذ التي-شورتات. تعثرت رجلاي في أذيال الخيبة وأنا أداري حسرتي وخجلي وارتباكي، وأخيرا وبصعوبة شديدة قلت له مواسيا: الله يَّسر ليك.. آمين، أجابني صائحا. أحسستني كمن احترق بنار، فأسرع إلى حوض بارد ليرتمي فيه فوجده قاعا صفصفا. سرت مخترقا صفوف الباعة والمشترين وقد أخذت أتحرر من ربق ما ضاع وكأني أعفي نفسي من المسؤولية أو التقصير في البحث، تحررت ـ نسبيا ـ من الضغط النفسي وبدأت مشوار النزهة وسط الزحام وتعدد المعروضات وأصوات الباعة ومساومات المشترين المتلهفين والتلصص على أجسام صغيرة ونحيلة تلتصق بهم عندما ينحنون على بضاعة أو يقومون بمقايستها على أبدانهم أو يفتحون محافظهم الجلدية ليسددوا ثمنها، فتتحرك الكائنات الصغيرة بحثا عن ثغرة أو خطأ أو لحظة غفلة لتدس بخفة ومهارة أناملها الصغيرة الرقيقة فتسلبهم ما ادخروه لهذا اليوم وما وعدوا به أنفسهم دائما : بذلة أنيقة بثمن بخس. سوق العفاريت، وما أدراك ما العفاريت، هؤلاء هم الجن الخفي الذي يسلبك ما تملك وأنت فاغر فاك. عندما انتبهت إلى نفسي كنت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في الشرك حين وصلت إلى حطة كبيرة من الكتب والمجلات، بعضها لازال في أكياس ضخمة مركونة على حائط ورشة النجارة. بهتت أول الأمر ثم استفقت على نداءات ثلاثة بائعين قياما على هذه الحطة، متحفزين متوثبين، يتطاير الشرر من عيونهم عندما يقترب أحد الأظناء المشبوهين من

المعروضات. دنوت من أحد الباعة وكان وجهه مألوفا لدي، قلت بتودد: هذا خير كثير.. انتبه إلي وقال : هذه مكتبة باعوها الورثة، أقض الغرض أأستاذ، راه الشُرْكَة اللي امْعايا ابْغاو إبعُوها جَملةٍ لْشِي واحد من البَيَّاعة دْيال الكُتُب القديمة. تجولت بعينيْ صقر ينظر من علٍ إلى الوحيش، فيتأنى ثم يقدر ويثمن لينقض أخيرا قبل أن تصل مخالب غيره إلى الفريسة، إلى جانب حدة عيني الصقر، تسلحت أيضا بعيني صائغ ذهب وفضة، لا تنخدع بالبريق الكاذب عندما تريد التمييز بين الأصيل والمموه، بين الحقيقي والزائف. جمعت أمامي رزمة من الكتب، وكنت جالسا القرفصاء، وأنا في نفس الآن أجري عمليات حسابية بين المعروض وما في جيبي الذي ضربت عليه حراسة مشددة خوفا من النشالين المبثوثين في كل مكان. احتضنت الرزمة وأسندتها إلى صدري، عندما رآني البائع ابتسم مستبشرا ومد يديه ليأخذها مني وهو يقول: أرا نَجْمَعْها ليك، ما اتخافش. قلت وأنا أضعها برفق بين ذراعيه المفتولتين: دِيرْ شي ثمن زْوين دْيال لَحْباب، قال منبسطا: ما تكون غير خاطرك. قلت وأنا أناوله الثمن المتفق عليه بعد مفاصلة ومساومة كان كريما فيها، اشكون صاحب هاذ المكتبة، أجابني بسرعة كمن كان ينتظر أن يُسأل: شرطي... عندما طنت كلمة شرطي في أذني اليمنى الموجهة نحو فم البائع، تداعت أمامي صور المعتقلين السياسيين والمثقفين الذين تم الحجز على كتبهم وأوراقهم، الذين فُتشت دورهم بحثا عن الوثائق والمنشورات، أسررت لنفسي: هذه كتب تخرج من الحجز أو من خزانات من احتفظ بها بعد اعتقالهم، وعناوين الكتب أمامي تبوح بأسرارهم: مؤلفات ماركسية وكتب عبد الله العروي ومحمد العابد الجابري مؤلفات هيجل وكتب في التاريخ العربي والإسلامي وتاريخ العالم. لكنه أوقف شريط التداعيات وتابع كلامه قائلا: مات شي عام هذا، عائلته انتقلت إلى مراكش، واتْفَكُو من هاذ الخزانة.. ثم أضاف: كان رجل درويش، راك اتْعرفُ، امْرض بعد ما شَدْ التقاعد، الله يرحمه، كان خدام غير في البيرُو.. بعد سرده للعديد من الصفات والخصال والملامح والأماكن التي كان يتردد عليها، والباعة الذين كان يشتري منهم الكتب ويجالسهم أحيانا كثيرة، أعتقد أنني كونت صورة تقريبية عنه، الأمر شجعني على أن أستفسر إن كان ضمن محتويات الخزانة أوراق مخطوطة، إلتفت بسرعة إلى شريكه آمرا إياه بأن يأتينا بكيس كبير ملقى

في آخر الحطة، قال لي: بهذا الكيس أوراق ودفاتر كثيرة، فتش فيها عما تريد، كان الكيس مفتوحا، ما أن مددته على الأرض حتى سقطت منه أوراق مخطوطة شبيهة بالتي في حوزتي، أفرغت الكيس كله، وأخذت ألتقط الأوراق كالطير يلتقط الحَبّ وسط الركام. جمعت بفرح شديد غنيمة وتوجهت نحو البائع أسأله الثمن، قال بانبساط، هْدية ليك ألفقيه، ادْعي امعانا بالخير، هاذ الأوراق كنا غا انْبيعُوهُم لصحاب الزريعة وكاوكاو. في منطقة من دماغي التقى المؤلف المجهولَ بالشرطي صاحب الخزانة القيّمة، صدفة أم ميعاد موقوت؟

- 2 -

حزمت أمري وتوكلت على الله، في الساعة الرابعة صباحا كنت أقتعد مكاني في الحافلة المتوجهة نحو الرباط، فوق رأسي - على الرف الحديدي طبعا - حقيبة سفري الصغيرة محشوة بين أمتعة المسافرين، وعلى حجري تستقر محفظتي المتهالكة من كثرة إمساك يدي برَسَنِها وسحبها على المكاتب والطاولات، تبدو لي الآن مزهوة ومختالة وأنا أكثر حنوا عليها ورفقا بها. هذه المرة أضع داخلها وأئتمنها على نسخة مصورة من المخطوطة الفريدة التي اكتشفتها بسوق العفاريت، أهميتها تفوق الحقائب الديبلوماسية بالمطارات، أمنا وحراسة وسرية خلال رحلتي إلى الرباط، وبالضبط للقاء الأستاذ الذي سيؤطر تحقيقي للمخطوطة ويشرف على عملي خلال إنجاز رسالتي الجامعية. يداخلني خوف بحجم المغامرة التي أنا مُقدم عليها، لكن زغاريد فرح سرعان ما تمحو الخوف وتنشر الارتياح والإنتشاء بالفوز. كنت قد حصلت منذ زمن على ما يخولني تحضير رسالة جامعية لكنني تكاسلت طويلا متعللا بأسباب كثيرة، على رأسها الموضوع المناسب، أنا الآن مزهو باكتشافي لأثر تاريخي، مخطوطة فريدة ستغير الكثير من الأفكار والآراء، ليس مهما أنني تأخرت، لكن المهم هو الآن.. الآن أنا أحمل اكتشافا مُبهراً، لعل سبب تأخري هو ما ينتظرني الآن، الفرق كبير أن تنجز بحثا تجميعيا، من هنا وهناك، وتقول هذا لنا، وأن تقدم وثيقة نادرة وكشفا جديدا. دخلت الحرم الجامعي باحثا عن أستاذ من الذين عرفتهم خلال مشوار ي الجامعي.. التقيته، هو الذي كان يحوم حوله فكري وتطمئن إليه نفسي، بعد التحية والسلام وعبارات الترحيب والسؤال عن الصحة والأحوال، طلبت منه موعد لقاء اليوم أو غدا، إن أمكن، فاجأني

بقوله : خير البر عاجله، لا التزامات تمنعني الآن.. عزمته على مقهى باليما، فتحت المحفظة وأخرجت ـ كمروض الأفاعي بجامع الفنا أو ساحر السيرك ـ نسخة المخطوطة، تساءل الأستاذ بعينيه كما لو أراد أن يقول ـ مترجما ـ استفهاما واستغرابا: ما هذا؟

- مخطوطة نادرة.. أعتقد أنها فريدة لا شريكة لها.

- أين وجدتها؟

- بسوق للمستعملات والمتلاشيات ولكل نوادر الآلات، وخصوصا المستوردة، يسمى بسوق العفاريت بأسفي.

ارتسم على وجهه طيف ضحكة، عانى في إخفائها، ولا أعرف لماذا شغّل حصارات قوية لمنع نفسه من الضحك ـ وقد كان ذلك سيفرحني لو فعله ـ إذ سرعان ما أخذ سمة الجد والوقار وهو يأخذ من يدي النسخة ثم يمرر أوراقها بسرعة على إبهامه يده اليمنى، فتتراقص الأوراق كمروحة تنفث هواء خفيفا، ثم قال:

- إذا كانت هذه المخطوطة فريدة، فسيصعب تحقيقها، إذ لا توجد لها نسخ أخرى يمكن من خلالها ضبط النص لغة وإملاء ونحوا ومحتوى...

- لهذه الأسباب اخترتكم للإشراف على تحقيقي للمخطوطة.

- شكرا لتقديرك، ولكنك تعلم أنني لم أشتغل من قبل في تحقيق أي كتاب.

- أعلم ذلك.. ولكن هذه المخطوطة لا تبحث في موضوعات الفقه واللغة أو التاريخ.

- ما موضوعها إذن؟

- من خلال قراءة أولية يمكن القول إن موضوعها ينتمي إلى أدب الرحلات أو السيرة الذاتية، أعتقد اعتبارها نصا أدبيا قد تسمح لنا دراسته بالتصنيف الأدبي المناسب، وهذا يدخل في مجال اهتماماتكم وأعمالكم الأدبية والنقدية.

- صحيح.. ولكن التصنيف النوعي للجنس الأدبي ضرورة أكاديمية لامناص من إثباتها قبل أي عمل آخر.

أخذ المخطوطة بين يديه برزانة أستاذية، وقورا كأنه جبل ابن خفاجة، طوال الليالي مفكّر في العواقب، رفع بصره إلي ثم عاد يقلّب وعلامات غير

مُريحة تبدو على صفحة وجهه البيضاء، بينما عيناه الصغيرتان تكادان تخرجان من أعلى النظارة الطبية التي انزلقت على أرنبة أنفه فلم يُوقفها إلا منخاره المفلطح. توقف عند الصفحة الأخيرة، رفع بصره إلي مرة ثانية وسوّى وضع نظارته وهو يقول :

- كيف ستحقق هذه المخطوطة تحقيقا علميا أكاديميا وهي بدون عنوان ومؤلفها مجهول أو نكرة ولا ذكر لتاريخ كتابتها أو مكان تأليفها، الظاهر أيضا أن الكثير من أوراقها قد ضاعت أو أتلفت. إن أية أحكام نقدية أو تاريخية غير ممكنة في ظل غياب هذه الشروط.

استجمعت قواي واستدعيت ملاحظاتي التي تجمعت لذي بعد قراءتي التوجيهية، وما انبثق في ذهني آنذاك من فرضيات أولية، من الممكن الانطلاق منها للإجابة عن معظم الأسئلة المنهجية في التحقيق، ومنها ما ذكره الأستاذ، قلت وأنا أحاول التستر عن بعض خفايا النص أو قل إنني كنت أتجنب البوح بكل ما أملك من معلومات، فالعمل لم يأخذ شكله الرسمي بعد:

- مسألة العنوان تطرح نفسها بحدة، ولا شك أن الورقة الأولى التي تحتوي المعلومات الكاملة: العنوان واسم المؤلف وربما تاريخ الكتابة ومكانها أو أية إشارة مفيدة في هذا الباب قد ضاعت أو تعرضت للتلف قبل غيرها من الأوراق، وهذا يظهر قدم المخطوطة إلى حد ما. وإذا لم يُسعفني الحظ في الحصول على الأوراق الضائعة ومنها الغلاف والورقة الأولى وورقة الختام التي غالبا ما تحمل عنوان الكتاب وتاريخ التأليف أو تاريخ النسخ واسم الناسخ فإنه بالإمكان استنطاق النص للحصول على أجوبة مناسبة.

- وهل قمت بمحاولة في هذا الصدد؟ !

- نعم.. ولكني لم أحسم نهائيا في الأمر، فعندي خيارات عديدة يمكن أن أناقشها معكم عندما يحين أمر ذلك.

- هل لديك اقتراحات حول العنوان كمثال؟

- بعض العناوين قد تنسجم مع مضمون النص مثل:

- الضروري في المعاش.

- بلوغ المدارك في معرفة الممالك.

- حكاية الغريب في بلاد البربر والأعاريب.

- وبالنسبة للمؤلف؟

- اكتفيت باقتراح: مؤلف مجهول، وهي صيغة مستعملة في الكثير من المخطوطات المحققة.

بدا عليه بعض الارتياح، ربما تشجيعا لي أو تجنبا منه لكل ما من شأنه أن يدفعه لقول شيء قد يضطر للتراجع عنه مستقبلا أو ربما تلك هي ديبلوماسية المواقف والسلوكات التي يتخذها كل مسؤول أو مشرف على تسيير مجموعة بشرية. كان من هؤلاء الذين لا يظهرون مشاعر الحب أو الكراهية، ولا يميلون إلى رأي ولو وافق هواهم، لا يقولون نعم أولا، بل ما بين نعم ولا، قد تقول لا يوجد بينهما شيء، يوجد.. يوجد دائما شيء بينهما، عليك فقط أن تجده وعندما تجده، أتقنه جيدا وسترى النتائج. كنت دائما أجد هذه الإجابة في طريقي، لم أصادف في حياتي إلا المراوغات والالتفاف على الأمور والإبهام والغموض، أقبض على الماء فيتسرب بين أصابعي، على ذهب فيذهب بريقه، على الملح فيذوب في حرارة الشمس، على الثلج فيتبخر في الشتاء، كان ذاك شعوري عندما رأيت ارتياحه المباغت وهو يريد أن ينهي الحديث بتوصية مختصرة قائلا:

- هذه جلسة أولى، أعتقد أننا لا يمكن أن نحسم فيها كل الأمور، أترك لي عنوانك وهاتفك وبريدك الإلكتروني، ثم قدم لي بطاقة صغيرة تحمل اسمه وصفته وهاتفه الجوال والمنزلي وبريده الإلكتروني، وخلال مدة لا تتجاوز شهرا أعرض خلالها المخطوطة على بعض الأساتذة الزملاء الذين سبق لهم الاشتغال بتحقيق المخطوطات، أكون قد كوّنت فكرة واضحة، وربما هيأت عناصر خطة العمل، نلتقي فيما بعد لنحدد ما يجب عمله.

- وأنا ماذا يجب علي عمله خلال هذه المدة؟

- يمكنك أن تقرأ المخطوطة قراءة متعمقة، أن تبحث عن نسخ أخرى إن كانت موجودة، أن تنقب عن اسم المؤلف وسيرته وأعماله الأخرى، أن توسع دائرة البحث حول عصره وشيوخه وقبيلته و... باختصار كل ما من شأنه أن ينير

البحث ويوثق النص ويساهم في إخراجه مضبوطا محكما وفق الشروط العلمية الأكاديمية.

عدت إلى أسفي، لا أقول بخفي حنين، ولا بدونهما، ولا حتى حزينا مكروبا، فقد تعودت على الإيلام والجروح والحظ العاثر، حتى ليخيل إلي أن ما يصادفني من فعل فاعل، ظاهر أو مستتر. ضحكت من نفسي، أو ضحكت من قولي، فأنا ـ هذه الأيام ـ متعدد النفوس والعقول والأبدان، أو كما قال المتنبي الذي أعادني مؤلف المخطوطة المجهول إلى قراءته من جديد.

جَرحتِ مُجَرَّحا لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام

بعد اعتكاف أسبوع كامل ـ كان عطلة مدرسية ـ على قراءة المخطوطة، تمكنت من رصد بعض المعالم والعلامات التي يمكنني الارتكاز عليها في استقصاء حياة صاحب المخطوطة ولملمة خيوط سيرته المتناثرة. وهكذا بدأت في البحث عن فقيه أو شيخ أو رحالة مات في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أو بداية القرن العشرين ينتمي إلى قبيلتي عبدة واحمر، فلم أجد أثرا لمؤلف قريب الشبه ممن أبحث عنه. تقصّيت الأثر عن فروع العائلة التي اهتديت إلى بعض أفرادها بالاستخبار والاستعلام من الشيوخ والقراء وحفاظ الحديث ورواة الأخبار والحكايات ببادية أسفي، فلم أعثر عند أحد على خبر صحيح أو وثيقة، في الوقت الذي تأكدت فيه أنه لم يتزوج ـ بالمغرب ـ وإن كان قد تزوج فلم يخلف ولدا ولا بنتا ولم يكن له عقب، وأنه نذر نفسه ليكون وحيدا منفردا بذاته، خاصة أن ظروف حياته كرحالة ربما كانت السبب الأساسي في ذلك.

لم أجد عند أحد ممن التقيتهم أو كاتبتهم على عناوين داخل المغرب وخارجه ـ منهم الموظف العمومي ورجل التعليم وأطر الصحة والجيش ورجال الدين والمحافظون على الخزانات العامة والخاصة ومقدمو الزوايا والأضرحة وهواة جمع التحف والنفائس والأثريات ـ خبرا موثقا أو معلومة مفيدة حول سيرة المؤلف المجهول، حتى كدت ـ أنا نفسي ـ أن أنكر أمر وجوده، وأنه من صنع الخيال، لكن إيماني بأنه وُجد ذات يوم، وأنه عاش حياة مضطربة وكتب مخطوطة فريدة، لا يعادله إلا إيماني بوجودي وأنا أمسك بالمخطوطة وأتابع على

صفحاتها رحلته في الحياة وتجواله بين الأقطار وأحلامه التي لم تتحقق. وضعت على الشبكة العنكبوتية بريدا إلكترونيا لتلقي المعلومات والمراسلات والتواصل مع أي أحد يملك معلومة ولو كانت غير ذات أهمية أو عادية في رأيه، فهي مهمة وقيّمة بالنسبة لموضوع البحث كما يقول رجال التحقيق والاستعلامات في تقصي آثار المجرمين، البعض كاتبني، وآخرون قالوا بأن الموضوع لا يعنيهم وأنني أخطأت في العنوان واسم المرسل إليه. راسلت الكثيرين وطرقت الأبواب بأسفي وسبت جزولة والشماعية ومراكش وفاس بحثا عن أناس أرشدني بعض العارفين إليهم أو وصفوهم لي بأنهم من سلالة صاحب المخطوطة الذي لم أكن أعرف له اسما ولا هوية إلا ما استخلصت من قراءة المخطوطة، فشكلت منه بورتريها تقريبيا كما يفعل رجال الشرطة القضائية. خلال هذه الفترة نمت بيني وبينه صداقة عجيبة، لم يعد يفارقني، ولم أعد أستطيع عنه صبرا ولا أتحمل فراقا، لا يمر يوم دون أن أسأل شخصا أو أكتب رسالة أو أفتح بريدي الإلكتروني سعيا وراء خبر مفرح عنه يصلني من أحد الأحفاد أو أبنائهم - رغم شكوكي في زواجه - أو أحد الأدباء ومحققي المخطوطات التراثية... ولكن لا خبر عند من تنادي، حتى بت أعتقد أن صاحبي عاش بدون رفيق وإن كان يعرف الطريق. افترستني الشكوك والظّنون ماذا لو أن صاحب المخطوطة لم يوجد أصلا، وأن المخطوطة زائفة؟!

ما يمنع من ذلك، إذا كان تلفيقا وانتحالا من شخص توهم نفسه مؤلفا فتخيل ما كتب ثم رماه جانبا حتى وصل إلى سوق العفاريت على الصفة التي وجدته بها، وكيف وصلت أوراق من المخطوطة إلى خزانة الشرطي؟! أصدّق نفسي مرة وأكذّبها مرات، لا يعقل أن يتنازل كاتب عما كتبه، حتى لو كان فسقا وإلحادا وخروجا عن الملة والجماعة، إن خاف سوء العاقبة انتحل اسما أو كنية اختفى وراءهما، الكثيرون جاهروا بأفكارهم وعواطفهم وأحلامهم فعذبوا أو قُتلوا سحلا أو شنقا أو إغراقا في الماء أو سقيا بالسم، ولم يمنع ذلك من جاء بعدهم أن يسير على طريقهم حتى لو استعمل الأسماء المستعارة. عزفت أحيانا كثيرة عن المخطوطة والعمل على تحقيقها، لكنني أحيانا أخرى لا أشعر إلا وأنا أمد يدي لقمطر المكتب فأخرجها بهدوء وحذر كالبكر تغادر هودجها، فأجردها

برفق من الغلاف الواقي الذي ألبستها إياه منذ خروجها من سوق العفاريت، وأبهج العين بخطها المغربي الأنيق وكلماتها وجملها وحبرها الأسود الحائل لونه، وورقها المُتعب من طول السنين التي تحمّل فيها ثقل الكلمات والغبار والرطوبة والحشرات ووقاحة الأيدي وهي تقلب في الأوراق شدا وجذبا أو تضع فوقها أدوات وأقلام وحتى كؤوس شاي وقهوة. كان ذلك كافيا أن يهبني الحماسة ويُقوّي عزيمتي ويشد أزري، فلعل هذه المخطوطة قدر من أقداري، وأن طرقنا تتقاطع حتى ولو كانت عشرات السنين تفصل بيننا، فنحن لا نتقاطع مع الأحياء وحدهم، بل مع الأموات أيضا بشكل أو بآخر.

من حين لآخر كنت أنتظر رسالة أو مكالمة من الأستاذ المقترح للإشراف على تحقيق ودراسة المخطوطة، ولكن الأمد طال ولا من مجيب. حاولت الاتصال به عن طريق الهاتف، لكنه لا يرد، ربما ظهور رقم هاتفي على الشاشة وراء رنين هاتفه دون رد، حتى أيأس أو ينقطع الاتصال، حتى علبة هاتفه الصوتية غير مشغّلة، فلم أتمكن من أن أترك رسالة صوتية مسجلة. جرّبت الاتصال من هاتف عمومي من دون فائدة، سلكت الاتصال الهاتفي المتنكر، فلم تنفع المحاولة. ساورني الإحساس بأنه يملك أكثر من رقم هاتفي، وأن الرقم الذي أعطاني إياه هو لغير المرغوب في سماع نداءاتهم، هي الطريقة الديبلوماسية الواقعة بين نعم ولا حتى يتخلص مني، لاحت لي ابتسامة الارتياح التي صبغت ملامحه بمقهى باليما، كان وقتها يخطط للانسحاب بدون خسائر وبطريقة تحيلني على اليأس ونفض اليد من عمل لا جدوى منه. الطريق المسدود أمام البحث عن مؤلف المخطوطة والإهمال من طرف الأستاذ المرشح للإشراف في مواجهة رغبة التحدي وحلم تحقيق المخطوطة، خضني كل ذلك وتلاعب بي يمينا وشمالا كملاكم هاو يتلقى الضربات من ملاكم مُحترف شرس يسعى إلى تحقيق الضربة القاضية. فما أدري لنفسي أمرا إلا وأنا أُلقي بحقيبتي على الرف الحديدي وأقتعد مكاني داخل القطار باتجاه الرباط. قضيت يومين متجولا بين المكتبات بحثا في فهارسها وعناوين كتبها ومراجعها عن ضوء شمعة ينير الطريق إلى معرفة صاحب المخطوطة، وثلاثة أيام بالخزانة الوطنية العامة، كل الفهارس والكراريس وعناوين المخطوطات المعلومة والمجهولة ألقيت عليها نظرة أو

تصفحت بعضها من المسموح به لأمثالي، ولم يبق أمامي إلا الخزانات الخاصة - كما نصحني بعض القيّمين - ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ مكّنني القيّم من بعض أسماء وعناوين عائلات تملك خزانات تراثية. بعد عودتي إلى أسفي راسلتهم طالبا العون والمساعدة من أجل إنجاز تحقيق علمي أكاديمي لمخطوطة مجهولة المؤلف، وقدمت بعض البيانات بما أطلب، طال انتظاري لأجوبتهم ولم يأت من جهتهم إلا الصمت والإهمال. صادف اليوم السادس من رحلتي الرباطية عطلة نهاية الأسبوع، وكان التعب قد هدّني واليأس قد أخذ مني كل آمال الحياة وأحلام الشباب، فكرت في يوم راحة، أشاهد فيلما أو مسرحية، كان شريط ويسترن الأمريكي المتمدن يحارب الهنود الحمر المتوحشين.

اليوم السابع يوم الاثنين، استيقظت مبكرا، مُنْتوِيا دخول روما مهما كان الثمن قاتلا أو مقتولا. كنت قبل ثلاثة أيام - أي يوم الجمعة الماضي - قد وضعت بصندوق بريد الأستاذ المشرف - المفترض - رسالة أخبره فيها بقدومي إلى الكلية قصد مقابلته، وقد تأكدت - بوسائلي البسيطة - أن أعرف برنامج عمله اليومي ومواعيده الرسمية، فلن يستطيع معي هربا. على الساعة العاشرة كنت أنتظره أمام مكتب الشعبة الذي هو - بالمناسبة - رئيسها. استقبلته بأدب ولطف قبل أن يصل إلى الباب بخطوات - لم يخذلني - فقد أقبل علي محيّيا هاشا باشا، لم نتعانق بالأحضان - على الطريقة العربية - فلم نصبح بعد صديقين، ولكنه شد على يدي بحرارة، وكذلك فعلت، مع انحناءة رأس واجبة في حق الأستاذية. دخلنا المكتب، وقد كنت في كامل استعدادي، صففت شعري وحلقت لحيتي بموسى جديدة واستحممت وتعطرت ثم ارتديت لباس المعركة، كسوة زرقاء كاملة على قميص سماوي اللون ورابطة عنق أنيقة مخبّأة لمثل هذا اليوم المشهود، إنها النيشان الذي يرفعك ولو كنت منحطا ويجعل منك رجلا محترما أو مدينيا على الأقل. وضعت في جيبي بعض الأسلحة الخفيفة، قدّاحة مموهة بالذهب وعلبة سجائر أمريكية نوع مالبورو. بعد عشر دقائق أمضيناها في حديث عام حول المناخ وظروف الطقس والوضعية التعليمية بالبلاد، دخل علينا أستاذان من أساتذة الشعبة، قدمهما لي فلم أتعرف عليهما، هما أيضا في طريق تحضير رسالتيهما الجامعيتين. بعد مرور سحابة صمت صيفية سريعة، بادرني أحدهما، وكان نحيفا

ممصوص العظم، شفتاه رماديتان من كثرة التدخين، بقوله: مخطوطة نادرة وعجيبة، ولكن للأسف لا يمكن الوثوق بها. تأملته برهة من الزمن، أخرجت خلالها علبة مالبورو، ألقمته سيجارة، فرح بها، لم ينتظر أن أشعلها، إذ سرعان ما استل من جيب سرواله الضيق ولاعة كالحة. كنت وقتذاك قد طفت بسجائري على الآخرين وأخذت لنفسي واحدة، تطوع الأستاذ النحيف بإشعالها، إن بعض الأشواك لا تزول إلا بإحراقها، كذلك كنت أفكر فيما يضمرون، لعلهم بيتوا للأمر من قبل، ويبدو أن الأستاذ النحيف يقوم بالمناوشات الأولى لجري إلى معركة خُطط لها مسبقا. أخذت بعض الوقت لأجذب نترتين عميقتين ولَأستلذ بالشهيق وأستبقي الزفير إلى حين أحس بنشوة غامرة ثم أغرق المكتب في سحابة من الدخان. استجمعت نفسي متكأ على حافة المائدة المستطيلة التي تتوسط المكتب وقلت: إنني أنتظر ملاحظاتك وتوجيهاتك وأنا متوجه بكليتي اتجاه الأستاذ المفترض للإشراف، يظهر أنني فاجأتهم، فقد عمّ صمت مريب مليء بالاتهامات والأسئلة المبهمة، وقد ضاعف الدخان ووجودهم وحيرتهم من ثقل الصمت وكثافته إن أمكن تقدير ذلك، ولكن لابد أن يتكلم أحد وإلا انفجر المكتب من فرط شدة الصمت فيه، إن انزياح الخطاب نحو الأستاذ المشرف افتراضا بدلا عن الأستاذ النحيف خلط الأوراق وأربك الأدوار وخلخلها، حتى تداركهم الأستاذ ذو النظارة الطبية ـ هكذا سأسميه منذ الآن، فلم يتقرر بعد أن يُصبح مشرفا على رسالتي ـ وقال: ليس عندنا ملاحظات، فبالأحرى أن تكون عندنا توجيهات، إننا لم ندرس الأمر بعد. قلت بسرعة: ولكن الأستاذ ـ وأشرت إلى النحيف ـ قال لا يمكن الوثوق بصحة المخطوطة، بمعنى أنها منتحلة أو مزيفة. أشاح ذو النظارة الطبية بوجهه جهة النافذة وهو يطّوح بيده كعلامة على عدم أهمية ما قيل، وتابع كلامه: هذه المسألة تحتاج إلى دراسة وتحليل معمّق للمخطوطة وبحث جدي عن مصادر ومراجع التوثيق، لا يمكن إطلاق حكم بهذه السهولة. قلت وأنا أريد إبعادهم عن موضوع المخطوطة: هل أنا أمام لجنة علمية، وهل لاجتماعنا هذا إطار قانوني، وهل ستترتب عنه نتائج؟ إذا كان الأمر كذلك، فأريد أن يكون موثقا بمحضر وأن أتعرف على أعضاء اللجنة. ارتبك القوم وفزعوا كأنني ألقيت ثعبانا أو عقربا في حجورهم، أداروا عيونهم في محاجرها ثم نظروا في وجوه بعضهم البعض، أما أنا فقد كنت أنتظر

ماذا سيفعلون، تنحنح الأستاذ الثالث الذي ظل صامتا طيلة هذا الوقت، مكتفيا بتوزيع النظرات والاستمتاع بتدخين مالبورو ـ وقد كانت العلبة وسط المائدة وطوع يده ـ. كان بدينا شرها في تدخينه، يتدلى بطنه ليغطي حجره، ربما لم ير أيره يوما ولا في المرآة، تنحنح الأستاذ البدين عدة مرات كأنه يقوم بشحن البطارية التي سيعلو بها صوته علينا، وقال: لا تعقد الأمور، نحن، أنا والأستاذ ـ وأشار إلى النحيف ـ مجرد زميلين استشارهما الأستاذ رئيس الشعبة للمساهمة في تقييم المخطوطة، ومدى صلاحيتها لتكون موضوع تحقيق. قلت بسرعة مقتحما طريق كلامه كسائق لا يسمح لأحد أن يأخذ منه حقه في أسبقية اليمين: إذا كان الأمر كما تقول، تقييم المخطوطة ومدى صلاحيتها لتكون موضوع تحقيق، معنى ذلك أنني سأجتاز الامتحان قبل موعد إجرائه، أنا الذي أملك هذه الصلاحية، ثم التفت إلى الأستاذ ذو النظارة الطبية وأنا أقول: ولا أحد يملك سلطة علمية أو أكاديمية إلا بقرار رسمي معلل بالأسباب والأدلة. ران الصمت على المكتب من جديد، تبادلوا النظرات المُريبة فيما بينهم، أدركت وقتها ـ كما يقولون بلغة البلاغات العسكرية ـ أن القذيفة التي أطلقتها في الظلام قد أصابت أهدافها وأنهم يتكتمون على الخسائر. انطلق الأستاذ البدين في حديث مسترسل، كان يصفف الكلمات ويبحث في معجمه عن العبارات الرنانة، تحدث طويلا، كلام سمعته وكلام آخر ذهب مع الريح، بينما كانت الدماء تندفع إلى رأسي ووجهي، التهبت أذناي بعد أن سكت الأستاذ المتفصح وبعد أن لمست أنهم لن يتكلموا، فقد طال انتظار بعضهم بعضا لمن يأخذ المبادرة، بعد أن فشلت محاولة الأستاذ البدين في دفعي للكلام. وأخيرا تحرك الأستاذ ذو النظارة الطبية وهو يمسك بنسخة المخطوطة، لوّح بها أمام وجهي متحديا إياي أو شامتا فيّ ـ بحضور صاحبيه ـ لا يمكن أن تكون هذه رسالة جامعية. خطفتها من يده بخفة الحُواة، انتبه إلى ما يجري وقال: ماذا ستفعل بها؟ قلت: ليفعل الله بها وبي خيرا، ثم وقفت لأنصرف، قال الأستاذ النحيف وهو يقف ليصافحني مواسيا: ثق بي.. لن يقبل أحد الإشراف على تحقيقها ما لم تستوف الشروط المطلوبة في التوثيق العلمي، قلت: لقد صرفت ـ قبل أن ألقاكم ـ النظر عن موضوع التحقيق، فهي فعلا لا تستحق أن تكون موضوع تحقيق على مقاساتكم لتوضع جنب الذخائر التراثية، من حقها أن تحيا وتعيش بين الناس البسطاء كما عاش صاحبها.

- 3 -

خلال رحلة العودة، نزلت بالدار البيضاء، أودعت متاعي بغرفة الفندق وخرجت باحثا عن صديقي ذي العوينتين الثاقبتين كفوانيس المنجمين الباحثين عن الكنوز النفيسة، ولا أغلى عنده من كنوز التراث اليوناني واللاتيني مجالا للتنقيب والبحث والترجمة. وجدته بمقهى ومطعم «لاَبْريس»، كان هناك ـ كعادته ـ يشرب قهوته الصباحية الروميّة، هلّ لرؤيتي وفرحت بلقائه. تذكرت يوما قضيناه هنا ـ بعد مصادقة الناشر على طبع روايتي الأولى ـ أنا وصاحب العوينتين الصغيرتين الحادتين المشعتين بقلب أفلاطون وعقل أرسطو ولسان دوسوسير. حكيت له حكايتي، ضحك وضرب على فخذه بعصبية، طلب إكسير الحياة ومُفرّج الكروب والأزمات، وطال سمرنا وطال حديثنا كل شيء، مقدسا ومدنسا، مباحا ومحرما. خفّ عني الضغط قليلا، وعمّتنا المصائب فهانت.

عدت إلى قواعدي معطوبا، من الغرور أن أدعي أنني عدت منتصرا أو محمّلا بغنائم وأسلاب كثيرة، خاب أملي فيما كنت أعقد العزم عليه كطريق يحقق بعض أحلامي وآمالي. كان السفر من الدار البيضاء إلى أسفي طويلا، والقطار ينهب المسافات نهبا، نافرا وزاعقا متعجرفا وهو يخرج من نفق إلى جسر، تتلقفه الحقول والبراري بالأحضان والأذرع، رأيتني قطارا بلا سكة، إذا دخلت نفقا لا أخرج منه، وإذا خرجت لا أجد إلا الخراب والدمار. كان قرار صغير ينمو في ذهني وسط الخراب النفسي والمعنوي الذي أجرجره ورائي كجندي خسر المعركة، وهاهو يعيش من جديد في انتظار معركة أخرى ترد له كرامته وشرفه. بدأ قرار صغير يتبلور في غفلة من قواي العقلية التي كانت ترى أن لا فائدة من أي عمل ثقافي أو علمي في هذا الزمن الرديء الأغبر. لكن

عقلا باطنا يحب الحياة والفن والناس البسطاء الطيبين وخبز القمح والشعير وسمك أسفي ورائحة حشيشها، يوخزني منبها ومستفزا، ماذا لو قمتُ بتحقيق المخطوطة على طريقتي الخاصة وخارج الأعراف الجامعية الأكاديمية؟ ماذا لو قمت بهذا العمل بعيدا عن أية وصاية أستاذية؟ المخطوطة حكاية وسيرة حياة ومسار رحلة وملحمة وجود لرجل من عامة الناس أراد تبليغها إلى العموم، حتى اسمه أنكره وعنوانه طمسه، فلم يرد رفعة ولا سؤددا، كتب جليلة لم يعرف أصحابها وعلى رأسها ألف ليلة وليلة. تجندت للعمل وعوّدت نفسي على الاعتكاف الطويل خارج أوقات العمل وأكل الخبز، أصبحت المخطوطة همي الأول والأخير، وتأكدت من حقيقة أولية سرعان ما أصبحت نهائية، لعدم ظهور ما يدحضها أو ينفيها أو يشكك فيها، وهي أن هذه المخطوطة فريدة وأنها النسخة الوحيدة الموجودة أو هي على الأصح النسخة الأصلية التي لا صورة مستنسخة لها، وأنها أيضا - وهذا هو السر الكبير - بخط صاحبها أي المؤلف الأصلي، إذ لو خطها ناسخ لترك بصماته في مكان ما ولأضاف حاشية أو صحح معلومة. فرحت بها لكن فرحتي لم تكتمل، فأمام مخطوطة فريدة يضيق مجال البحث وتنعدم فرصة المقارنة بين النسخ الموجودة والكتب التي نقلت عنها نصوصا أو أقوالا، خاصة وأن مؤلفها مجهول، ولم يرو له أحد من معاصريه أو ممن جاء بعده شيئا، ولم تشر إليه كتب التراجم والسير والحوليات، وهي كثيرة في أدبنا العربي والمغربي. من حسن حظي أن المخطوطة الفريدة كتبت بخط واضح ومقروء، لكن مجهودا كبيرا ينتظرني عند تحقيقها إن كنت أريد أن أبلغ بها درجة عالية من الضبط والدقة والأمانة العلمية.

تعلمت من العقاد أن الكتب هي خير معلم للإنسان، بهذه الجملة بدأت دراسة مناهج كبار المحققين الذين أثروا المكتبة العربية والإسلامية، والذين ثابرت على استكشاف طرقهم في البحث والتمحيص مسترشدا بأدواتهم التقنية والعلمية مع وجود الفارق بيني وبينهم، وبين ما حققوه من وثائق وما أزمع أنا على تحقيقه، وكان ممن تتلمذت على مناهجهم الأستاذ عبد السلام محمد هارون في تحقيقه لكتاب الجاحظ «البيان والتبيين»، والأستاذ طه الحاجري محقق كتاب الجاحظ أيضا «البخلاء»، والأستاذ عبد الرحمن

بدوي، من كتبه المحققة كتاب أبي حيان التوحيدي «الإشارات الإلهية» وهو من الكتب التي اشتريتها من بائع خزانة الشرطي بسوق العفاريت، والدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» وتحقيقها الرائع لأبي العلاء المعري و»رسالة الغفران» والأستاذ أحمد محمد شاكر محقق «الشعر والشعراء» لابن قتبة، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور محقق «ديوان بشار بن برد» و»الواضح في مشكلات شعر المتنبي» لأبي القاسم الأصفهاني، ومن المغاربة أحمد بن تاويت الطنجي في تحقيقه لكتاب «التعريف برحلة ابن خلدون شرقا وغربا»، ومحمد بن شريفة محقق «الذيل والحكمة» لابن عبد المالك المراكشي وأحمد توفيق «الكشوف إلى معرفة رجال التصوف لأبي يعقوب التادلي. هؤلاء وغيرهم أناروا طريقي، وفي ضوء مناهجهم أخذت في معالجة المسائل الآتية:

- مسألة العنوان:

كان بودي أن لا أضع لهذه المخطوطة عنوانا، ولكن عموم القراء وعموم الجمهور سيضعون لها عنوانا ما، قائلين مثلا، هل قرأت رواية «بلا عنوان» أو «المخطوطة المجهولة»، وهكذا سيصبح «بلا عنوان» عنوانا، لا على سبيل المجاز بل علىٍ سبيل الحقيقة، وسيكتسب مع الزمن استمرارا و أقدمية فيلتصق بها التصاق الكنية بصاحبها. تساءلت عدة مرات، هل يحق لي أن أضع عنوانا لما لا عنوان له، وهل يعتبر من باب خيانة الأمانة العلمية أن أتصرف في النص بتكثيف مضمونه ووسمه بعنوان يتوخى الإشارة والتلميح إلى محتوى معين؟ وهل بإمكان عنوان مقترح من المحقق أن يشمل الأوراق الضائعة من المخطوطة.

- مسألة إسم المؤلف:

أجلت البحث في مسألة العنوان لأنشغل بمسألة أكثر عَوصا منها، من هو صاحب النص، أين ومتى ولد وعاش وتربى وتعلم؟ في أي وقت كتب المخطوطة ولأي سبب؟ وهل ترك أثرا في الحياة ينبئ عنه ويدل عليه، مال أو ذرية أو عمل صالح؟ لم يكن أمامي إلا النص المخطوط، فانكببت عليه راسما خطة لجرد الأماكن والقبائل والأعلام والسنوات والأحداث، وكل ما يمكن استثماره في بناء سيرة متكاملة لحياة المؤلف المجهول. تتبعت خيوطا دقيقة

كخيوط العنكبوت، تصمد أمام الريح لكنها لا تصمد أمام يد بشرية خرقاء تنتهك نسيجها المتشابك. كان علي أن أستعين بأي خيط مهما كان رفيعا، لذلك أجريت تحريات بحثية في دائرة شيوخ المدينة القديمة وأئمة مساجدها الذين لازالوا على قيد الحياة وأبناء من ماتوا منهم، وجلهم أثناء البحث قد جاوزوا عتبة الستين، وفي محيط رباط الشيخ أبي محمد صالح وأحفاده القيمين على الضريح وأولاد أئمة مسجده وأحفادهم، وتشعبت الخيوط شبه الواهية إلى عائلات عبدية بجماعة سبت جزولة وجمعة سحيم وقبيلة احمر بالشماعية وضريح شاكر الماجري أو من نسميه «سيدي شيكر»، واستجوبت بعض المسنين ممن سافر بعض أفراد عائلاتهم ضمن وفود الحجيج منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى دخول المغرب تحت الحماية الفرنسية 1912 وهي الفترة التي حج خلالها صاحب المخطوطة وزار مكة والمدينة والأزهر الشريف، وهل لازالت بحوزتهم بعض مقتنيات الحجاج العائدين إلى المغرب في شكل كراسات أو أوراق مخطوطة جمعت أخبارا كثيرة، ولكن لا شيء منها ينبئ عن اسم صاحب المخطوطة أو وجوده ضمن دائرة المستجوبين، وقد أثارني جدا أن يبقى اسم مؤلف المخطوطة مجهولا وليس بيننا وبين وفاته إلا فاصل زمني يقدر بقرن وبضع سنوات، فهل يعود هذا فعلا إلى فقدان وتلف الورقة الأولى من المخطوطة، وقد يكون صحيحا نظرا لعدم وجود عنوان لها. ولكن المؤلف لم يصرح بعنوان معين أو محدد داخل المخطوطة شأن القدماء عندما كانوا يشيرون بقولهم: لقد عملنا هذا الكتاب في موضوع كذا.. أو ألفناه في باب كذا وكذا.. إلى غير ذلك من العبارات التي قد يصلح بعضها عنوانا للمخطوطة، أم أن المؤلف أخفى اسمه خشية وخوفا من خصوم وأعداء. قاد تتبع الإشارات التي حدد من خلالها صاحب المخطوطة بعض معالم أصله وعائلته إلى أنه عاش فترة من حياته بمدينة أسفي وباديتها، كما تلقى تعليمه الأولي بالكتاتيب القرآنية بكل من سبت جزولة وسيدي شيكر والشماعية وبالجامع المعظم بأسفي ثم بالقرويين بفاس. وتتحدث المخطوطة عن رحلة قادته إلى مكة والمدينة للحج والزيارة، وقد اغتنمها لزيارة أماكن أخرى وخاصة مصر وجامعها الأزهر الشريف. وقد مر خلال رحلته ذهابا وإيابا بأهوال ومخاطر ومغامرات عجيبة. ولحل مسألتي العنوان وإسم المؤلف معا، كان لزاما أن أجد رابطة بينهما من داخل النص، تُقرّب المسافة وتلم شتات الموضوع، وهكذا شطبت العناوين التي كنت قد

اقترحتها سابقا والتي اطلعت الأستاذ ذو النظارة الطبية عليها ووضعت بدلا عنها العنوان التالي المتضمن في ذاته اسم المؤلف أو كنيته «العبدي» على الشكل التالي: «تغريبة العبدي المشهور بولد الحمرية».

– وصف المخطوطة:

لقد درج الباحثون والمحققون في التراث والتاريخ على نسبة المخطوطات إلى خزانات عمومية أو خاصة يشار إليها عند تقديم المخطوط أو تحقيقه أو التعريف به أو الإشارة إليه كمرجع يعود إليه الباحث إذا لم يحقق المخطوط بعد. أما في حالتي فالمخطوطة التي عثرت عليها لا تنتمي إلى أية مكتبة أو خزانة، عمومية كانت أو خصوصية، فلم أجد لها نظائر أو نسخ بالخِزانة الملكية أو المكتبة الوطنية العامة أو بمكتبة جامعة القرويين أو بخزانة تامكَروت أو بمكتبة الأسكوريال أو بدار الكتب المصرية، وإنما عثرت عليها على قارعة الطريق ـ إذا جاز لنا أن نسميها مكتبة ـ بسوق العفاريت.

ومثل جميع الأثريات القديمة والأموات، تعرضت مخطوطة "تغريبة العبدي المشهور بولد الحمرية" لعوامل طبيعية وبيئية أثرت على هيئتها الشكلية ورقا وحبرا وكلمات، وهي كنسخة أصلية فريدة لا تحمل اسما لمؤلف ولا عنوانا ولا اسما لناسخ، لم نتمكن في هذه الحالة من تصحيح ما اعتراها من آفات بالاعتماد على نسخ أخرى أو كتب أخذت عنها، ويمكن تحديد هذه الأعراض في سقوط وفقدان الورقتين الأولى والأخيرة ووجود بعض البلى بالأوراق الأولى، ضاعت بسببه حروف وكلمات، كما عثرنا بين بعض السطور على شطب كثير ودوائر متداخلة، وعلى الحواف والهوامش صحح العبدي بعضها أو رسم بعض الكلمات دون أن يكمل الجملة وهو ما يلاحظ أيضا في بعض المواضع من المخطوطة من اضطراب ملحوظ في رسم الكلمات، وربما يمكن أن نفسر ذلك بظروف العبدي كرحالة وتنقله المستمر وظروف الكتابة التي اضطر خلالها إلى التضحية بالكثير من متاعه لكي يحافظ على أوراقه وأقلامه. أما سائر النسخة فواضح إجمالا. عدد الأوراق التي عثرنا عليها تم حصرها في مائتين وخمسين ورقة متوالية في مجملها، ومسطرة الورقة عشرون سطرا. كتبت المخطوطة بخط مغربي شبيه إلى حد كبير بخط المصحف الشريف المتداول في شمال إفريقيا

وبالخط التي كتبت به الألواح بالمسيد أو الكتاب القرآني بالمغرب، وقد كتبت بقلم النسخ المعتاد في عصرها وقد يكون مصنوعا من القصب أو من ريش الإوز أو الحمام، أو منها جميعا، حيث يظهر ـ من حين إلى آخر ـ اختلاف في رسم الخطوط، فخامة ورقة، مما يمكن أن يفسر بتغيير الأقلام. واعتنى العبدي بالشكل الصحيح لمعظم النص، إلا أن بالمخطوطة مواضيع خالية من الشكل أو من الإعجام أو منهما معا، وقد يعود ذلك إلى السرعة في الكتابة أو تحت ضغط عامل الزمن خوفا من أن تضيع الفكرة أو تؤول إلى النسيان فيصعب تذكرها أو لحظة قلق لم يعد فيها العبدي مهتما بقارئه، وربما كان العبدي ـ كما يظهر من رحلته ـ يائسا من وجود قارئ له. اعترت العبدي لحظات نسيان أثناء كتابته لمشاهداته وخواطره مما تسبب في وجود مواضع ألحاق كثيرة، ونعني باللحق ـ كما يعرفه المحققون ـ تخريج الناسخ للساقط في الحواشي، وذلك أن يخط خطا صاعدا إلى فوق معطوفا بين سطرين عطفة إلى جهة الحاشية التي يكتب فيها اللحق الذي سقط من المتن.

ورغم العناية الفائقة التي أولاها العبدي / المؤلف / الناسخ لمخطوطته على مستوى الخط والشكل والضبط وتدارك الساقط، فإنها تعرضت لآفات الزمن وعبث الأيدي وإهمال الجاهلين، ويظهر تشريح أولي لهيئتها أنها تعرضت لعوامل الرطوبة مما تسبب لها في تشوهات شكلية أضعفت مقاومة ورقها للتلف ما فسح المجال للحشرات والقوارض أن تعيث فيها فسادا. وغير خاف أن الكتابات الرحلية الحجية استمرت خلال القرن التاسع عشر في مقاربتها لإشكالية النهضة العربية ومعالجة قضية الإسلام والحداثة، في تقديم صورة الصدام الحضاري مع أوربا الصناعية على نمط قواعد شكلية ماضوية منحطة أو في شكل قياسات واستدلالات تمثيلية لتبرير الهزيمة الحضارية أمام العدو الكافر بنقص الإيمان والتفريط بالدين اعتمادا على أساليب فقهية فاقدة لروح الإبداع والتجديد، في مقابل ذلك يقدم نص العبدي صورة مغايرة للعالم وموقفا إنسانيا وحضاريا يمزج بين الذات والآخر ويسائل الماضي كما يسائل الحاضر والمستقبل ويضع الحقيقة موضع الشك، والظن محل اليقين، باحثا عن أفق جديد يتصالح فيه الإنسان مع ذاته وعصره وتاريخه.

المخطوطة الفريدة

أو

مخطوطة سوق العفاريت

تغريبة العبدي

المشهور

بولد الحَمْريّة

* عنوان المخطوطة وعناوين الفصول من وضع المحقق

كتاب الخروج

تجشمت[1] أسفارا بعيدة أبعد من آمالي، ومشيت في مناكب الأرض أطوي المسافات والمراحل، وأجتاز الوهاد والجبال، ولا زاد إلا ما صادت النبال والحراب، وما عاف وحش الصحراء واليباب[2]، وكم مرة فقدت الناقة والجمل، فلم أَجد مطيّة إلا الخُفّ والنعل والحفاء على الرمضاء[3] والرمل. فارقت الأحباب وهجرت مرابع الصبا والشباب بعد أن ابتدرتني غادة كأن البدر ركب على أزرارها[4]، الكشح[5] مهفهف[6] مُخطف[7]، والقوام معتدل أهيف[8]، في غلالة تنم عما تستره، وتخفي[9] ـ مع رقتها ـ ما تظهره، بهرت عقلي واستوقفت نظري ثم أجفلت كالظبي المذعور، تدعوني للحاق كلما هزّني الاشتياق وطال الفراق، أستوقفها وهي عجلى، متى أحط الرحال؟ متى يرتاح البال؟ تنتصب كعمود النور فوق رأسي، قل: وقت انفتاق الأنوار وإدراك الثمار، وحين يستوي الليل والنهار. ذاك زمن الخروج، يوم تكون السنة كالشهر، والشهر كاليوم، واليوم

1- يخالف العبدي التوطئة التقليدية في كتب الرحلات بالاستهلال بالتوسل والتضرع إلى الله بالحفظ والسلامة والأمان في الذهاب والإياب...

2- اليباب : الخراب.

3- الرمضاء : شدة الحر، الأرض الحامية من شدة الحر.

4- أزرار : أَزَرَّ القميص، جعله الله أزرارا.

5- الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر.

6- مهفهف : الضامر البطن.

7- مخطف : الخُطْف والخُطُف : الضمْر وخفة لحم الجنب.

8- أهيف : ضامر البطن رقيق الخصر ومؤنثه هيفاء.

9- العارضتان من وضع المحقق.

كصلاة الجمعة. وراءها خرجت راحلا بعد إشارة من شيخنا الجليل حيدة بن عبد الله[10] بعد أن كنت قد خلّصت ما قدرني الله عليه من علم جليل في حفظ القرآن الكريم وحسن تلاوته وتجويده وما تيسر من الحديث النبوي الشريف وبعض مسائل متفرقة في علم التوقيت والمواريث والحساب وتقويم الأرض[11].

أخذني - حفظه الله إن كان حيا، ورحمته عليه إن كان ميتا - من يدي أمام ضريح القطب الرباني سيدي أبي محمد صالح صاحب الكرامات، وأنا أتعثر في تلابيب جلبابي ورأسي منكس ينظر إلى قدمي كأني واقف في صلاة، اتجه بي نحو البحر وكديَةْ «لَعْفُو»[12]، وقفنا على الحافة، رفع يده الرفيعة والمسبحة ملتفة بمعصمه وأشار بسبابته نحو البحر. صمت وقتا قصيرا وقال: هذا البحر يفصلنا عن بلاد النصارى ولا يمنعهم من الوصول إلينا متى شاؤوا بسبب ضعفنا وتخاذلنا وتفرقنا شعوبا وقبائل، ووراء هذا البحر كذلك علوم وفنون وصنائع ما أحوجنا إليها لو أحسنا تعلمها وإتقانها كما فعل أجدادنا مع الفرس والهند واليونان وغيرهم.. لكن من يذهب الآن إلى الديار الأورباوية لا ينفع أحدا، وإنما يضر نفسه بهول ما يرى من مظاهر الترقي والتمدن والعمران، لا أحد يسمع منه، حتى الذين بعثوه. خفض صوته كمن يكلم نفسه وتابع قوله: البلاد تحتاج إلى خَضَّة تفيق أو تميت. عليك يا ولدي بالرحيل إلى فاس مهبط الأدارسة سليلي النسب النبوي الشريف، ومتابعة التحصيل بجامع القرويين والأخذ عن كبار العلماء والمشايخ والحفاظ وملازمتهم، فليس في بلاد الغرب الإسلامي منارة أشد إشعاعا وأكثر حفظا للتراث والدين والأخلاق كجامع القرويين، وفيها من المتعلمين والمريدين من كل أقاليم المغرب من يؤنس وحشتك ويخفف أحزان غربتك. رافقتك السلامة وكان الله لك حفيظا.

10- هو أبو العباس أحمد المدعو حيدة بن عبد الله بن المهدي بن عبد السلام، كان فقيها مدرسا مفتيا ذا معرفة بالفقه والفتوى والحساب والهندسة، وهو رابع أربعة من أهل أسفي أرسلهم السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام لبلاد أوربا لتعلم الهندسة ونحوها.. توفي سنة 1293هـ الموافق 1875م بأسفي (محمد الكانوني، جواهر الكمال في تراجم الرجال، ص 14/ ج1، ط 1، 2004، مطبعة ريانيت، الرباط).

11- الجغرافية والراجح أنه يقصد الهندسة.

12- بها مقبرة قديمة تعرف باسمها، تحولت الآن إلى كورنيش.

اجتاحتني الخاطرات من كل حدب وصوب وأنا أُحمِّل متاعي على الحمار الذي اكتريته للسفر مع قافلة نحو تنبكتو. كان عليّ الرحيل، فقد اشتد عليَّ الأمر حتى لم أعد أطيق صبرا ولا أتحمل انتظارا، عزمت على الرحيل والهروب من فاس بعد أن ضاقت بيَّ الأرض بما رحُبت، وقد أفعل بنفسي الأفاعيل إن مكثت وتحملت ما لا أطيق. عزمت وتوكلت وما توكيلي إلا بالله على السفر إلى حج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي (ص)، الحج فريضة والسفر سياحة ومعرفة، أقتفي آثار الغادة المتلفعة بالأستار والمكشوفة للأنظار، فلا هي مرئية ولا مخفية. اجتمع خلق كثير من تجار ومسافرين عائدين إلى بلدانهم، في الطريق سيلحق بنا غيرهم من مراكش وسجلماسة والصحراء. وداع فاس وشيك، عيناي تتمليان منظرها الأخاذ، وأنفي يتشمم روائح دروبها الضيقة وحدائقها الغنّاء ومبانيها العتيقة. خمس سنوات مرت عليَّ بفاس وأنا ذاهل عن نفسي وعن الدنيا وهي تدور كالناعورة، ترفع قوما إلى السماء وتهبط بآخرين إلى الحضيض، غارقا في بطون المتون والشروح والحواشي، أتنقل من عمود إلى آخر، ومن شيخ إلى مقرئ، ومن محدث إلى مؤرخ، كمن به مرض لا يعرف أحد علاجه، يطوف به على الأطباء والنطاسين، لكن لا أحد بقادر على شفائه ولو بالكي. كل شيء بميقات وأجل معلوم، إذ نادى هاتف الرحيل نحو ينابيع الحقيقة الصافية لترتوي النفس الظمآنة وترضى الغادة المتخفية الظاهرة أن تكشف عن سرها المكنون. كل من سبقوني جاؤوا من مطلع الشمس أو قصدوه، غير ذلك لم أعلمه، على سُنتهم ودربهم سائر، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، عزمي - إن شاء الله - على الرحيل إلى الحجاز حجا وزيارة وطلبا للعلم وتحصيلا للمعرفة، لعل الله يلهمني سر الأسرار ويفتح أبواب العلم المظنون به على غير أهله ويخصني به كما خصّ أنبياءه بالوحي وأولياءه من الصالحين والسالكين والزهاد بالكشف والتجلي. هذا طريق الأوائل، عبد الله بن ياسين والمهدي بن تومرت وغيرهما كثير، ولن أكون من الناكرين للجميل، لمن علمني ولو حرفا واحدا، شيوخي بأسفي وباديتها وبجامع القرويين، فقد أخذت عنهم كتاب الله وتفسيره ودلائل الخيرات في الصلاة على النبي الهاشمي صلوات الله عليه، وفي الحديث كتب المسانيد وصحيحي البخاري ومسلما والبيان والتحصيل في علم الفقه. قاسمت جماعة من الطلبة المعيشة والرفقة وسوء الأحوال، كما شاطرتهم تململنا مما يفرض على جامع القرويين من علوم وفنون وآداب للدرس

والتحصيل، فلا مكان عند الشيوخ والقراء لكتب الفلسفة والمنطق وعلم الكلام[13] أو علم الفلك وآداب الصوفية أو أمهات كتب اللغة العربية كالكامل للمبّرد، والأمالي والنوادر لأبي علي القالي وأدب الكاتب لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ[14]. وما أحوج طالب الفقه والحديث لهذه المناهل كي يتقن علوم الآلة ويحيط بلغة الشعر والنثر ويكشف أسرار البلاغة. كم كان يحز في قلبي منظرنا نحن الطلبة القادمين من البوادي والأقاليم أمام هؤلاء الطلبة الفاسيين، فما يُعطاهم من المودة والتقدير والاعتبار لا ينالنا منه مثقال ذرة، لكن شمعة واحدة تكفي لتبديد الظلمة وإنارة الطريق، وقد كانت هي العالم الشهير شيخ الجماعة بالقرويين دون منازع ابن عبد الرحمن الحجرتي[15] الذي درست على يديه علوم الفقه والحديث والنحو والأصول، كما كنت أحضر مع جماعة من الطلبة جلسات المساء التي كان يخصصها لعلم البلاغة والإنشاء قصد أن نتمكن من التحكم في ناصية اللغة العربية. كنا نعلم علم اليقين أنهم يعدونهم[16] للمناصب السامية، ونحن لأعمال العدول والوعظ وإمامة المصلين بالدواوير والمداشر[17].

13- منشور السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) المنظم للمقررات والمواد الدراسية والكتب المقررة بجامع القرويين: «ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص، فليتعاط ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرون بأنهم لا يدرون، ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلوم إلا نفسه...».

14- قال ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب «الكامل» للمبّرد، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «النوادر» لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتوابع لها، وفروع عنها» المقدمة ص 490 - ط 2005 – دار ابن الهيثم – القاهرة).

15- واسمه الكامل: أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الحجرتي من كبار علماء المغرب في عصره (ت سنة 1886/1303). نقلا عن رحلة الصفار إلى فرنسا ص 52 هامش 83 ط 1995/1.

16- أي الطلبة الفاسيين

17- جاء في ظهير للمولى عبد العزيز: «خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء المحروسة ...فقد أصدرنا أمرنا الشريف لقاضي فاس بتعيين فقيهين مدرسين وتوجيههما على يد خليفة العامل ثمة واصلين للثغر المذكور... وأمرنا أمناء عديل بأن ينفذوا لهما ما ينفذ لأمثالهما في جهازهما سلفا عنك لتوجهه لهم من وفر الأحباس المذكور... فنأمرك أن توجه لهم ما يدفعونه لهما... كما نأمرك أن تعين لهما محلا مناسبا لهما للنزول وتنفذ لهما المئونة التي تحصل الكفاية بها من الأحباس بعد إعلام جنابنا العالي بالله بقدرها... 31 صفر 1898/11/21/1316 (نقلا عن مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، ص 99 ط 1995، مطبعة فضالة - المغرب)

طموحي بعرض السماوات والأرض، ولن أجد في بلدي ما أبحث عنه، لذلك أزمعت على الرحيل إلى حيث الينابيع الأولى لأزيد علما وتفقها وأقبض على الغادة الممتنعة وراء الخفاء والتجلي، يومها سأعود فاتحا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الصراط المستقيم فيعلو شأني ويتبعني من أثقلت كواهلهم الجبايات والمكوس، وأثخنت أجسادهم وأبدان نسائهم وأطفالهم أمراض التيفوس والجذري والوباء[18] وبوكَليب[19]، يومذاك لا تنفع الناس أموالهم ولا أولادهم ولا سلطانهم. في فاس تفتح قلبي وأزهر ريحانا وياسمينا وسوسنا في خلسة من القوم الماكرين الحاسدين النمامين الذين لا يرون الحياة إلا فتنة وزينة ولهوا ولعبا، فينكرون ما أنعم الله به على عباده من متع الحياة وملذاتها وأكرم الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم وسيّده على جميع المخلوقات وسخّرها الله. ستكون لي فسحة طويل من الزمن للحكي عن نفسي، أما الآن فإن الهرج والمرج يعم الساحة الكبرى التي تتجمع فيها القوافل المتجهة نحو الصحراء، تجار أغنياء ومبعوثون ورسل إلى ممالك السودان والصحراء، أفاقون ومخاطرون، أكثر من مائتي بعير وضعفها بغال وحمير، رغاء يهدر ونهيق يعلو ونباح كلاب، ولازال الخلق يلحق بنا، حراس القافلة أخذوا أماكنهم، يبدو أن رجلا كبيرا سيرافقنا، قد يكون واحدا من المبعوثين الذين يسعون في هذا الوقت لتدارك ما حل بتطاون[20] وما جرى في مراسي الجنوب هذا العام.

ولا أعلم إن كان من نوادر الشؤم أم من بشائر الأمل وحسن الطالع أن يكون خروجي مقرونا بسقوط تطاون في يد الاسبان الذين لم يغمدوا سيفا ولم يسكتوا مدفعا منذ سقوط غرناطة وطرد المسلمين من الأندلس.

18- الطاعون.

19- بوكَليب : التسمية العامية للكوليرا، وقد وصفها أحد الرحالة بقوله: «وهو ريح ما سمعوا به، قاتل فيحينه، ويسمونه عندنا في المغرب بأسماء الكوليرة والريح الأصفر وبو قليب.. إذا أصاب الرجل تغير لونه واسود جفن عينيه، ويجعل يقيء من أعلى ومن أسفله، ومن الناس من يشكي مع ما ذكر وجع رجليه ويموت في الحين» «في أسفي، ظهر الوباء في 8 يوليوز (1868) مخلفا ضحيتين في اليوم ثم ارتفع العدد تدريجيا إلى أن بلغ 42 ضحية. ليتراجع بعد ذلك... وكان جل المصابين يسقطون موتى في ظرف أربع أو خمس ساعات من الإصابة، وتصير جثتهم سوداء» محمد الأمين البزاز: تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، ص 171 وص 223 ط 1992 – الرباط.

20- معركة تطوان (1860/1276) واحتلالها من طرف الجيش الإسباني، أعقبها عقد معاهدة صلح بين المغرب وإسبانيا.

مر كبير الزطاطين[21] يجمع معلوم الحماية من المسافرين، كانت رفقتهم للرحلة تنتهي عند باب الصحراء، أعطيت للزطاط الكبير نصف ريال رومي[22]، فأظهر عدمِ الرضا، وبدا في عينيه طمع وشرهِ للمال، فعاجلته بالكلام قبل أن يطلب الزيادة، هذا ما عندي، وهو كثير من طالِب علم من فقهاء القرويين، تبسم غصبا عنه وقال: لن يمسك ضر أو سوء ما دمت في حمايتنا. رفاقي من الطَلْبة لم يقصّروا في العون والمساعدة، ما أن علموا بنيتي على السفر وعزمي الوطيد على الرحيل حتى هبّوا في جمع المؤونة والمال وما ينفع في الأحوال التي أنا مقبل عليها، زودوني بأكثر من ذلك، بمحبتهم وعطفهم وخشيتهم علي من كل سوء، لولا هم لما حملت معي الكثير من الأشياء النافعة للغذاء والدواء والوقاية من حر الشمس وأشياء صغيرة لم أكن مهتما بها كزوادة الزميطة[23] وزمزمية الماء وقطع من الصابون وكمية من الشمع وعدد من صناديق الوقيد، بعد أن شاع استعمالها بين الناس ورفع عنها التحريم[24].

21- الزطاط : منه الزّطاطة و «تازطّاط» وتعني القيمة التي تؤخذ على رؤوس المسافرين أو حسب دوابهم أو حسب ما يحملون من السلع ، ويطلق عليه لقب«المزْراك» أيضا وهو الشخص الذي يقوم بحماية المسافرين عند مرورهم بقبيلته أو بالقبائل المجاورة مقابل أجرة معينة، يسمى أيضا الخفير. (عمر أفا: مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر–ص 404 و 418- ط1 / 1988 – الدار البيضاء.

22- الريال الرومي: ويسمى أيضا ريال فرنصيص، الريال الصغير، الريال 5 فرنك، الريال الجزائري أو أدزيري. أصبح الريال الفرنسي الوحدة الأساسية التي تقاس بها العملة المغربية، فابتداء من منتصف القرن التاسع عشر إذا ذكر الريال فالمقصود به الريال الفرنسي، (عمر أفا: ن م .ص 210). وغير خاف أن دخول العملات الأجنبية إلى المغرب أدى إلى انهيار العملة المغربية وارتفاع الأسعار، الأمر الذي دفع بالمخزن إلى إحداث ضريبة المكوس على الأسواق وأبواب المدن، وأصبحت كل الضرائب تدفع نقدا. (الناصري: الاستقصا – ص 120 / ج 9 – ط 1956 – دار الكتب – الدار البيضاء).

23- الزميطة : (لغة عامية) زاد المسافر عند الفقراء، وهي طعام يصنع من دقيق الشعير بعد أن يتم تجفيفه في إناء فخاري على النار، ويتم تناوله بإضافة زيت الزيتون أو السكر مذابا في ماء مغلي، صلاحيتها للأكل طويلة المدة.

24- وضع الفقيه محمد بن جعفر الكتاني تأليفا صغيرا بعنوان «حكم صابون الشرق وشمع البوجي وصندوق النار المجلوب من بلاد الكفار لعنهم الله وحكم خياطة أهل الذمة قبحهم الله» يناقش فيه حكم جواز الطهارة بالصابون المصنوع من شحم الخنزير، كما يناقش مدى جواز الصلاة بثياب خاطها الكفار. (محمد سبيلا: المغرب في مواجهة الحداثة، ص 21 منشورات الزمن – يوليوز 1999) (د. أحمد المكاوي: الدور الإختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب – ص97. منشورات الزمن –2009.

علا النفير في القافلة أن يا قوم هبّوا للرحيل، لم أكن من أصحاب النوق والجمال، فقد كان حماري متواضعا وسط هذه الكوكبة الكبيرة من الهُجن التي امتطاها رجال مهندمون في ثياب زاهية بعد أن وطئت أقدامهم على كُفوف خدم طيّعين مُنحنين ليرفعوهم إلى سنام النوق، ثم ساروا أمامهم قابضين على أرسانها. وقتها كان الزطاطون يتقربون منهم سعيا لخدمة تُطلب منهم ينالون عليها أجرا. سارت القافلة ببطء شديد، فقد كان الأمر يقتضي عمل الكثير لتستقيم القافلة وتأخذ مجراها على بركة الله. السنوات الخمس التي قضيتها بفاس حبّبت لي فاس وأهلها ومنازلها وأسواقها ونساءها، أولاد القرويين محبوبون هنا، فهم حملة القلم والعلم، لذلك نجد يُسرا في التعامل مع الناس ونقضي حوائجنا على الوجه الذي نريد. رتب بعض أصحابي الطلبة خرجة للاستحمام في أحد حمامات فاس البالي تكريما لي قبل رحيلي الطويل في الصحراء. ونحن في الطريق إلى الحمام، لم أدر بنفسي وأنا ساه في ملاطفة الصحاب والحكي معهم إلا ونحن وسط فندق فخم كبير حسن البناء، به عدة غرف بأسفله وأعلاه مع ما هو ضروري من الأثاث، تلفت يمنة ويسرة، ضحكوا من حركتي، فقال أقربهم لنفسي: أنت على سفر طويل، ويعلم الله متى تجد من تراودها وتراودك، قلت: ما هذا المزاح؟ هذا ليس وقته!.. ومتى يكون الوقت يا مولانا، ودفعوني إلى غرفة ثم أغلقوا الباب ورائي[25]. أتراهم قد بيّتوا للأمر وأنا في دار غفلون، لن أنس لهم هذا الجميل، فقد أكرموني بما لا يخطر على بال، إحذر مقالب الطلْبة والفَقْها فأنت لست ندهم. شقّ علينا الفراق، فأكثرنا

25- «وسائر الفنادق الأخرى ملاجئ للشياطين ترتكب فيها آلاف المعاصي بكامل الإباحة وبدون عقاب، لدرجة أنه يسمح لأصحاب الفنادق بالخروج بزي النساء، محلقين اللحي، متمنطقين كالنساء، مرققين صوتهم عند الكلام ومقلدين النساء لتحريض الرجال على فسق بشع. ويُباح لهم اتخاذ وسطاء عموميين وبيع الخمر وإيواء النساء والصبيان كما هو جار في المواخير المخصصة للفجور...» (مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ص 147 / ج 2 ط 1989.

«لأرباب الفنادق أمين، ويؤدون بعض الأتاوات للنقيب، بالإضافة إلى أنهم ملزمون عند الاقتضاء بأن يقدموا إلى جيش الملك أو الأمراء عددا كثيرا من مستخدميهم لطبخ الطعام للجنود، لقلة المختصين في مثل هذه الخدمة»؟!!.

(الحسن الوزان: وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي وآخرون، ص 232 ج 1 ط 1983/2.

من أوقات الوداع، وكنت على خشية من أن يرقّ قلبي ويخذلني فلا أستطيع رحيلا ولا سفرا. أماكن كثيرة لن تطمس أو تندثر من روحي وفكري، الوادي الذي يخترق فاس ويدير أربعمائة طاحونة، لم يبق منها إلا القليل، بعضها لطحن قمح المنازل والبعض الآخر يملكه طحانون أو خبازون يبيعون الدقيق بالتقسيط إلى الصناع وغيرهم من الذين ليست لهم وسيلة لشراء القمح، والباقي يطحن للسكان في مقابل مال أو دقيق. من هذا النوع الأخير ابتعت ما يلزمني للخبيز مدة من الزمن حتى أستطيع أن أبتاع غيره. لقد كنت كريما، ليس مع نفسي، بل مع حماري الذي سيتحمل مشاق رحلة، ربما قد لا يكون راغبا فيها، ابتعت له حصة من الشعير تليق به كرفيق رحلة. ومن القيصارية ذات الاثنى عشر بابا والخمسة عشر زقاقا مخصصة للدكاكين، فإن ما همني منها هو الزقاق الذي يقيم به الرثاثون بائعو الملابس المستعملة، حيث تباع ألبسة رجالية ونسوية من الحرير والقماش المطرز بلدية أو أورباوية، بالية أو جديدة[26] أو بها عيب، من هناك اشتريت ثيابا وأغطية وأغراضا أخرى، أما زقاق دكاكين أقمشة الصوف الرقيقة وربطات الحرير والتي أغلب تجارها من مسلمي الأندلس، فقد كانت أبعد عني قدر ما بَعُدت السماء عن الأرض. ملأت شوارين بحوائجي ومتاعي وحشود من المتسولين والفقراء[27] تحاصر القافلة من كل جهة.

تحركت القافلة، فكبّر البعض وهلل آخرون، وأغلب المسافرين أخذ في تلاوة القرآن الكريم والدعوات سرا أو بصوت مهموس، قرأت آية الكرسي والمعوذتين. كل أمر يبدو لي جديدا، فباستثناء رحلتي من أسفي إلى فاس، لم أرحل إلى أي مكان آخر، وهاهي ذي الرحلة توقظ الأبصار والأسماع والنفس من سباتها العميق. انشغلت عن نفسي بمرآى المسافرين معي وما يفعلون وبالزطاطين وما يقومون به وبالتجار ببرانيسهم وجلاليبهم الناصعة البياض على

26- من غرائب الصدف أن لا تجد مخطوطة «تغريبة العبدي المشهور بولد الحمرية» مكانها إلا بسوق العفاريت بأسفي، وهو الذي كان في وقت سابق يتسوق ويتنزه بأحد أسواق الملابس المستعملة بفاس.

27- «كنت مارا في بعض الطرق بفاس... وإذا بسائل يسأل شيئا لله. إلا أن بعض السُّؤّال كان لا يستقر بمكان بعينه، وإنما كان يترصد الناس ويقصدهم حيثما وُجدوا بأعداد كبيرة، في الأزقة والأسواق...» (د. محمد استيتو: الفقراء في المغرب، ص 41 ط 2006، منشورات الزمن).

نوقهم المنيفة وما يُشغلهم، لم أسأم من النظر والتلصص إلا حين صدح نداء النفير يؤذن بالوقوف للاستراحة والصلاة والغداء. كان وقت الظهيرة وكنا قد سرنا منذ بضع ساعات، قد تكون على وجه التقريب ثلاث أو أكثر، فقد فاتني ضبط وقت الانطلاق. كنت جائعا وخلال الرحيل لم أتبلغ إلا ببعض التمرات على فطور خفيف. بمكان يسمى «عين الشقف». أرحنا رواحلنا وأنفسنا، تسابق المسافرون، كل نفر يسعى لتلبية حاجته، من قصد البراح للتغوط والتبول، من سعى للوضوء بنية الصلاة، من تمدد على بساط لغفوة استراحة، من أقام عدة الطعام وهيأ مائدته، أما المترفون فقد تمددوا على بُسط وثيرة، وأسندوا ظهورهم ورؤوسهم على نمارق مزركشة في انتظار أن يقوم الخدم بالخدمة عليهم. كان طعامي مهيئا لا يحتاج إلى إعداد أو تسخين، خبز وزيتون أسود وطماطم وبيض مسلوق وزبدة بلدية. وضعت قدرا من الشعير في المخلاة ثم علقتها بعنق الحمار، أشعلت النار ووضعت براد الشاي، ثم بدأت تناول طعامي، قبل أن أتم الأكل، توقفت لإعداد الشاي، أتممت أكلي وشربت كأسا من الشاي. قمت للوضوء والصلاة، أديت صلاتي الظهر والعصر معا، صلاة المسافر جمعا وتقصيرا وتقديما. ثم استندت على مرفقي وأسندت ظهري على بردعة الحمار. كنت أنتظر نداء الرحيل الذي تأخر شيئا ما، ويظهر أن ذلك بمشيئة إخواننا المترفين، فهم الآمرون الناهون. أطلقت عناني لخاطرات تعبر سماء نفسي ورحت وراءها أطاردها كما كنت أطارد العصافير بضاحية مدينة أسفي التي تبدو لي الآن جنة عدن أو جنة العريف التي سمعت عنها من أندلسيي فاس. كانت هناك سواني عديدة وآبار على قدر عشر قامات وحقول قمح وفول وبازلاء، كانت أرضا خصبة معطاءة، أهلها من الفوارس العرب الأقحاح العبديين[28] والمصامدة الأمازيغ الأشداء. بها ولدت وتربيت ونشأت وحفظت

28- «عبدة من بين القبائل العربية التي استقرت بالمغرب سنة 584هـ (1188م) في عهد السلطان الموحدي يعقوب المنصور... أصلها يرجع إلى الشيخ عبد قيس كما أن بعض صحابة الرسول قد انضموا إليها... وهي من القبائل التي تم تهجيرها من الشرق إلى المغرب من لدن السلطان الموحدي عبد المومن نتيجة للهزيمة الذريعة التي ألحقها بسكان دكالة، مما نتج عنه إفراغ هذه الأخيرة من بعض سكانها بالمنطقة الساحلية (أرمان أنطونا: جهة عبدة – ص 36 – ترجمة علال ركول / محمد محمد بن الشيخ – ط 1 /2003 – الرباط.

القرآن وأخرجت السَلْكَة[29] بالحْضَارْ[30]، وتعلمت أيضا الخط والكتابة والقراءة كما استظهرت دليل الخيرات على يد إمام الجامع. كانت الوالدة تريدني أن أصبح فقيها أو عالما في أمور الدين أو قاضيا عادلا بين الناس. عندما أدركت الوجود عقلا ووعيا لم أجد غير الوالدة، وعندما سألت عن الوالد، انتظرت طويلا حتى قالت لي ذات يوم، بأنه تركنا ذات يوم ورحل. تركني وسط حقل أمام الجامع ورحل دون عودة. هل كان ينوي أن يأخذني معه، ثم عدل عن رأيه؟ هل أخذني معه إلى الجامع ثم قرر - بعد صلاة الاستخارة - الرحيل وتركني هناك عندما جاءته الرؤيا؟ الله أعلم بذات الصدور. زعق النفير وسط القافلة، ارتج له أولها وآخرها، قفزت من مكمني، رميت البردعة ثم الشوارين على ظهر الحمار وأعدت المخلاة إلى مكانها. أخذت حماري وسرت نحو موضعي بالقافلة وراء الإبل المحملة بالأمتعة والمؤن. سرنا إلى وقت المغرب، كان سيرنا حثيثا إذا قسناه بالشوط الأول من المسير، أنخنا إبلنا ودوابنا في ضواحي أحد المداشر يقال له «إيموزار الكندر». كان الهواء رطبا ونحن في ثالث يوم من شهر محرم الخير من سنة ست وسبعين ومائتين بعد الألف[31]، بعد أكثر من عشرين يوما عن عيد الأضحى، معي في أمتعتي كمية من القديد التي جمعها لي صحابي وكل من علم برحلتي نحو المشرق للحج والزيارة من الطلبة، بعض أبناء فاس أكرموني بقُلل صغيرة من «الخليع[32]» وبهيضورتين[33] كبيرتين بعد أن أصلحتا على خير وجه بدار الدباغين التي كان لي فيها أصحاب من أهل الحرفة والصنعة في دباغة وصباغة الجلود، لكن أحوالهم كانت تسوء من يوم لآخر بعد مزاحمة سلع الكفار[34]. كان أهل فاس أهل حضر وأدب وظرف، كما كان

29- السلكة: حفظ ستين حزبا عن ظهر قلب واستظهارها.

30- لَحْضَار: المسيد - الكُتاب القرآني.

31- الموافق للسنة الميلادية 1859.

32- الخليع: لحم يُصَبَّر بتمليحه وتيبيسه وطبخه.

33- الهيضورة: فروة الخروف.

34- تعرض الحرفيون الصغار لمزاحمة البضائع الأجنبية، مما أثار سخطهم وتشكل «ثورة الدباغين (1874) بفاس نموذجا بارزا عندما «ارتجت فاس وماجت الأسواق وقامت الفتنة على ساق... ثم لم يكفهم عصيانهم (الدباغون) حتى صعدوا على منار المدرسة العنانية وعلى

شيوخنا بالقرويين يجهدون ويجتهدون في تلقيننا كل يوم تفاسير القرآن وشرح السنة النبوية وأحيانا الطب والرياضة والشعر والفلسفة وعلم الفلك رغم الحضر السلطاني. سوّيت الأرض وأزلت ما عليها من حصى وحصباء بسعفة نخيل، مددت فرشتي وألقيت عليها الهضورتين، عملت مخدة من ثيابي، ثم اتجهت إلى الحمار فأنزلت عنه متاعي المتبقى وربطته مع قطيع الدواب. صلّيت ما كان بذمتي من الفرائض وانتظرت أن أصلي مع الجماعة صلاة العشاء. طبق صغير من الخليع كسرت فوقه بيضة وبراد شاي وكفى المؤمنين شر الشره والتخمة. ارتفع صوت الأذان وسط القافلة التي أخذت شكل دائرة يلتف حولها قوس من الحراس والزطاطين، وسط الدائرة تجمع الناس، وقف أحدهم وتقدم من أقرب المصلين إليه، وشوش له فأقام الصلاة.. استووا رحمكم الله، سَوّوا الصفوف.. الله أكبر.. كان إلقاؤه سيئا ونطقه غير مبين ولا موافقا لقراءة المغاربة[35]. ختمنا الصلاة بالدعاء والمغفرة وأن يحفظ الله العلي القدير قافلتنا من كل سوء أو مكروه، كان التعب قد أخذ من القوم كل مأخذ فأسرع كل واحد إلى مرقده، بداية كل أمر منهكة ناصبة. ما هي إلا لحظات حتى أطفئت الأنوار ولم يتبق إلا مشاعل العسس والحراس. دبت الحركة عند مطلع الفجر، وكان الهواء طيبا حسنا، قمت لأتوضأ وأعد نفسي للصلاة إذ أقبل علي كبير الحرس وبمعيّته وجيه من وجهاء القافلة، سلما وحيّيا، بادلتهما بأحسن مما حيّيا به، تكلم الوجيه فقال: عيّناك لتكون إمام القافلة ومرشدها وفقيهها.. فما تقول؟، قلت: ما سافرت من أجل هذا، قال: شغُر المقام بتَخلُف الإمام، فقد حال بينه وبين السفر ما قدر الله وقضى به، قلت: على بركة الله، قال: موعدنا المصلى، وبعد

غيرها مما هو مطل على فاس الجديد وأخذوا في الرمي بالرصاص حتى أصابوا بعض من كان بأبي الجلود فطافت بهم العساكر ورموهم بالكور من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة من العسكر سور فاس من جهة الطالعة وأخذوا في النهب والقتل وعظم الخطب واشتد الكرب...» وجاء في كتاب السلطان الحسن الأول إلى عماله وقواده بالأقاليم لإخبارهم: «فتصدينا بحول الله وقوته لتربيتهم... فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى ظهر نصر الله فهدمت دور وصوامع، وخربت فنادق ومصانع كانوا يضربون بها ويتترّسون بها ونهبت حوانيت ودور واستَلَبت أيدي الجيش أقواما منهم وأسرت أسرى وأخذوا نكالا للآخرة والأولى». (الناصري. م س – ص 138 – 137).

35- قراءة ورش عن الإمام نافع.

الصلاة سنتحدث في الأمر. عبرت خاطرات الإمام أمام عيني ورجّت فؤادي، صحيح أنني تأممت الناس مرات عديدة، هذه المرة يختلف الأمر، هذه إمامة قافلة وقوم رحل، كل يهاجر إلى ما انتواه، أما أنا فإلى الإمامة هاجرت ورحلت، هي الطريق وأنا السالك، ولن أدعها منذ اليوم تهرب من يدي، هذه هي الساعة التي كنت أنتظر، وقد جاء ميقاتها مع فجر اليوم الرابع من محرم لسنة ست وسبعين ومائتين وألف. اليوم ولدت مرة ثانية، اليوم إماما، مُحللا مُحرِّما، آمرا ناهيا، معفيا مجرّما، راضيا ساخطا، مانحا سالبا، مسالما مقاتلا، اليومَ الصلاة وغدا السلطان. وقفت للصلاة، كانوا صفوفا متراصة، مشيت يمينا ثم شمالا للتوكيد على الاصطفاف، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فيما يروى عنه - أنه كان يضرب من لا يسوّي صفه ولا ينتظم، رجعت إلى مكاني وشفتاي ترددان دعائي إلى الله عز وجل، أرى نفسي كالقائد ينظر إلى جنوده المصطفة وراءه والمنتظمة تلبية لنفير الأمر بالهجوم، برقت عيناي بنشوة النصر، ووجهت وجهي نحو القبلة، رفعت يداي إلى أعلى رأسي وكبّرت، رتلت القرآن ترتيلا، وقصّرت في القيام والسجود قليلا وختمت بدعاء مؤثر. بعد الختم، جاءني وفد من التجار وكبراء القافلة، باركوا ودعَوا بالتوفيق ووعدوا بقضاء أية خدمة أو مصلحة تخصني. كنت أردد في دخيلتي، هذه البداية، لازال الطريق طويلا أمام من يسعى للإمارة. في الطريق إلى «يفرن» التي عمل الواقفون على القافلة أن تكون حطة الغداء، رأيت من الأشجار والنباتات والطيور والأزهار ما يُبهر ويسحر، فندمت على ما فاتني من زمن قضيته بفاس دون أن أزور هذه الأماكن وأروّح عن نفسي وأستمتع بما خلق الله في بلاد المغرب من عجائب مخلوقاته. من يفرن إلى أزرو التي دخلناها ميقات المغرب، فخيّمنا بضاحيتها.

فصل..

في إيموزار الكندر[36] فكرت في كتابة خاطراتي ومشاهداتي وما حدث وما سيحدث لي خلال هذه الرحلة، وكنت قد تحوطت للأمر من قبل خروجي من فاس فجهزت أقلاما من القصب وسننتها بدقة وجعلت منها أصنافا، الرقيق

---

36 - يوم انطلاق الرحلة 3 محرم 1276 هـ (1859).

للخط العادي، والغليظ لتفخيم الحروف، والقلم القصير للسرعة في الكتابة، والطويل لإجادة الخط وتجويده، كما جمعت حزمة من الورق من الأصحاب وشيوخ القرويين والوراقين والكتبيين، أما السمخ فقد كنت من البارعين في إعداده وتهييئه. ملأت منه قارورتين كبيرتين، وحملت معي مقدارا خاما منه.

أمر ثان لن يفوتني ذكره، وإن كنت قد نسيت ذكره في حينه، وقد ذكّرني به تعب الطريق وعرق الإجهاد وما لصق بالجسد من غبار الطريق، تذكرت يوم الحمّام الأخير بفاس مع جميع الإخوان، عندما دخلنا وسط ضباب الحمام نتلمس طريقنا، فتعالت ضحكاتنا ومناوشاتنا وشغبنا، وانطلقت نفوسنا إلى السماء لما رمينا عن أجسامنا ملابسنا وعماماتنا، أحرارا سواسية في العري[37]، وهو الذي خلق الله عليه آدم وحواء، فلما صنعنا اللباس وتأنقنا فيه وبالغنا، زاد اختلافنا وتميّزنا عن بعضنا البعض. الماء طهارة، دخول للعبادة، الحمام جوار للجامع، الحمام رفيق الشهوة والمُطَهّر من الدنس. سأفتقد الحمام كثيرا.

رجع..

بعد صلاة المغرب، جاءني رسول من عند التجار والوجهاء بالقافلة بدعوة للعشاء والسمر الليلة مع كبراء القافلة ثم قال باسما: لا تتعب نفسك بإعداد الطعام. هذا أول القطر.. قلت في دخيلتي. أديت صلاة العشاء ونافلة الشفع والوتر ثم لحقت بمكان خيمتي لأطمئن على متاعي وحماري قبل أن أحود على حطة علية كبراء القافلة. فرش موضوعة ونمارق مبثوثة وأباريق وكؤوس مصفوفة وفاكهة طازجة وجافة معروضة، وشواء على سفافيد يتلوى على نار هادئة، وخدم وحشم يسعون بين المقاعد والأرجل، يلبون أمرك قبل أن تكمل العبارة. جلست على حافة الفراش بعد أن حييت وسلمت على الجميع يدا بيد، لكنهم ألحوا علي أن أجلس بمكان قريب من صدر المجلس. كان هناك حديث يجري بينهم، لم يقطعه وصولي ولا جلوسي بينهم، فأنصت إليهم وهم يتحادثون عن أمور البلاد

37- «ومن عادة سكان المدينة أيضا (فاس) رجالا ونساء أن يأكلوا في الحمامات ويتسلوا فيها.. ويغنوا بأعلى أصواتهم، ويدخل إليها معظم الشبان عراة دون أن يستحيي بعضهم من بعض». (الوزان: م. س – ص 230/ ج 1)

والرعية وما تمور به من أحداث وقلاقل، وما تفاحش من منكرات ينهى عنها الشرع كانتشار تعاطي الخمور بالحواضر مثل فاس ومراكش، وما يقوم به اليهود من تعاط لحرفة تحضير الخمرة وخاصة النوع المشهور بـ «الماحيا[38]». كانوا يلتفتون إلى بعضهم البعض، لعل أحدا منهم ابتلي بشربه، فيخففون من حدة الكلام، وقد أنبأتني نفسي ـ وهي الأمارة بالسوء ـ أن في المجلس من يعشقها، وكأني بهم يبحثون عن أي حديث يسليهم ويقرب بينهم ويرفع عنهم الكلفة ربما ليتقاربوا ويتجاذبوا أطراف حديث أهم وأجدر، وكأني أخط الرمل، إذ قال أحدهم واعظا: شر البليّة وعلامة الساعة شيوع البغاء والسحاق[39] واللواط الذي استفحل بين الجند وأصحاب الحرف كالحاكة[40] بمكناسة الزيتون[41] ولهم أماكن مخصوصة. كنت أتقلب في مكاني وقد أحسست به ساخنا حارا رغم رطوبة الجو في هذه المنطقة الباردة، غير أن المزاح والترويح عن النفس الذي صاحب رواية الأخبار نفض عن الجميع غبار التعب وعناء السفر. لمحت صدفة أحدهم يقدم لُقيمة صغيرة حالكة اللون، يلمع في ضوء النار دهنها وهو يهمس لجاره ضاحكا بكلام لم أسمعه لكنني رأيته يأخذ منه اللقيمة شاكرا. لما أبصرني مُقدم الهدية قال: خلطة أعشاب تُذهب التعب وتُرخي شد الأعصاب وتُريح الدماغ من الأوجاع. كان هذا كافيا لأعرف، إنه المعجون. بادرني رجل فخم من التجار كان يجلس بصدر المجلس وعلى وجهه ابتسامة، لم أعرف هل هي للاستخفاف أم الاستلطاف؟ وفي عينيه نظرة لم أدر أهي لاستنكار ما رُوي أمامنا؟ أم هي

38- ماء الحياة. وقد ذكر الوزان (م . س) أنه وجدت بتازة وحدها خمسمائة دار لليهود كانوا يعصرون بها خمرا في غاية الجودة. (ص 276).

39- سبق للوزان أن ذكر ـ قبل العبدي ـ انتشار السحاق بين النساء خاصة العرافات: «يمارسن تلك العادة الشنيعة وتساحق إحداهن الأخرى... فإذا امرأة جميلة من بين اللواتي أتين لاستشارتهن، عشقنها كما يعشق شاب فتاة» م.س 263.

40- الحاكة: الحياكة.

41- «وهي من عز بلاد المغرب... إلا أن في صبيانها دعارة وسفاهة لأنهم أكثرهم حاكة يصنعون أشغالهم في بيوتهم، فإذا خرجوا إلى الفضاء الواسع حركتهم طباعهم الذميمة، فلا يعرفون إلا تجرد الشررة، سيما من كان منهم يجد زعامة في نفسه أو نجدة في بدنه» (المؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار. ص1985/188 تحقيق د.سعد زغلول عبد الحميد. دار النشر المغربية–الدار البيضاء.

توريط لي في حديث لا يسلم الخائض فيه من وسخ يلوث طهارته، وهو يقول: ما رأي سيدنا الفقيه فيما سمعنا وما قيل فيه غيض من فيض وما سُكت عنه أكبر وأعظم.. كأنني كنت أنتظر هذه الهبة، وأنا أعرف أنني في بلد عيونها أكثر من أوادمها والحرفة التي يتقنها أهل المغرب أكثر من غيرها - دون أي يحتاج ذلك منهم إلى تعلم أو درس - هي التلصص والبصبصة والالتقاط ونقل الأخبار والنميمة، فلن نعدم أن يكون معنا في مجلسنا هذا من العيون من ينقل عنا ما قلنا وما لم نقل. تزحزحت قليلا وقلت، من خبر الأمم وقرأ تواريخها لا يدهشه ما سمع، القرآن الكريم يُنبئنا عن أمم غابرة من قوم لوط وغيرهم، والأمم إذا وهن عظمها وفلّ سلاحها ونخر السوس بنيانها، لا شك أن تصيبها الأدواء والعلل، ولن يستقيم أمرها إلا بتكاثف وتعاضد الصالحين والأتقياء من أبنائها ورجالها، وما يقع لا يلهينا عما ينبغي علينا فعله لمحاربة المنكر والبدع وكل خروج عن الدين والشرع. لقد تكالبت علينا المصائب، حرب تطاون انتهت بدخول الصبنيول إلى بلادنا، وقبل ذلك احتل الفرنسيس بلد الأمير عبد القادر[42] ولم يكن بمقدورنا أن نرد عنه كيد الكائدين ولا اعتداء المعتدين ولا أن نحمي ثغورنا وحدودنا التي بدأ العدو الكافر يتحرش بها ويتربص وقت الانقضاض حتى كانت معركة إيسلي[43] ومرارة الهزيمة.. فهل تنتظرون خيرا، لن تروا إلا ما هو أقبح من ذلك، فعسى الله أن يرحمنا برحمته الواسعة ويجعل لنا مخرجا آمنا مما نحن فيه، إنه السميع المجيب.. آمين، ترددت مجلجلة، ثم حل الصمت،

42- احتلت فرنسا الجزائر سنة 1245هـ الموافق 1830م
الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري (1229-1304هـ - 1808-1883م) ينتمي إلى قبيلة هاشم العربية المقيمة قرب مدينة «معسكر» التي اتخذها عاصمة لدولته الفتية عندما حقق انتصارا ضد الأعيان الأتراك وأحدث قوات نظامية قوامها 10.000 رجل، حقق انتصارا واضحا في معركة «المقطع» ضد الفرنسيين 1836. وبما أن إمكاناته العسكرية كانت محدودة، فقد توجهت استراتيجية الفرنسيين العسكرية بإرغامه على اللجوء إلى المغرب فأرسل السلطان عبد الرحمن بن هشام جيوشا مغربية نحو الحدود المشرقية وقامت معركة إسلي (1245هـ - 1844م) والتي انتهت بانهزام الجيش المخزني، وأرغم عبد القادر على تسليم نفسه، فتم نفيه إلى فرنسا ومنها إلى سوريا.

43- «معركة إيسلي» عنوان اللوحة التي رسمها Horace Vernet (1789 - 1863) سنة 1844 ليخلد فيها انتصار القوات الفرنسية من خلال فرسان مغاربة مندحرين هاربين.
(les Orientalistes, peintres voyageurs: P 46. 1983 ACR Edition. Paris)

فكأن على رؤوسهم الطير، لكن الطعام كان على وصول، فسرعان ما انهمك الجميع في الهرش والقطع والمضغ واللوك والبلع ، خِلت معه أن كل نفر يرى في لحم الخروف عدوا، عليه تقطيعه وأكله انتقاما وتعزيةً لما يعتمل في الصدور من خوف وتوجس، فلا أحد يأمن في هذا الزمن على نفسه وولده وماله، والحال أننا نجوب في بلاد السيبة، وقد دفعنا من مالنا ما يقينا شر الغارات والقتل والأسر والتشريد. خرجنا من «يفرن» مبكرين على أمل أن نستدرك ما فاتنا من الطريق، فأمامنا طرق جبلية كثيفة الأشجار، وعرة الأحراش، غايتنا أن نصل تمحضيت عبر مشليفن قبل المغرب بقليل.

بعد صلاة الصبح، وقبل الشروق بساعة، كانت القافلة تخود[44] في أرض خضراء يانعة ونسائم الأطلس تهب ندية فتوقظ هممنا وتشعل حماسنا، هنأ كبار التجار بعضهم البعض، فقد نجونا من بربر زيان - قطاع الطرق بهذه الناحية - بسَلْكنا لهذه الطريق، لكننا رغم ذلك لم نتوقف، فقد اكتفى كل نفر منا بأن يأكل ويشرب راكبا مطيته، ومن أراد قضاء حاجته فليؤجلها، فإن لم يستطع فليسرع في قضائها وليلحق بالقافلة ركضا، كذا صدرت الأوامر لنا هذا الصباح. بعد أن أصبحنا على مقربة من «تمحضيت»، أصبح بإمكاننا أن نريح أنفسنا وأرواحنا ثم ندخل «تمحضيت» مع أذان المغرب. دخلت فراشي هذه الليلة بعد صلاة العشاء توا، فقد أنهكني المسير وآلمتني إليتيّ أشد الألم وأمضه، كتبت بعض السطور في تذكرة السفر ثم أطفأت شمعتي وأسلمت نفسي لسلطان النوم. كان اليوم الرابع كاليوم الذي قبله، تبكير في الخروج، وطعام على ظهور الدواب، وسير حثيث لتدارك المسافات حتى لا يصيبنا الوهن. خرجنا قاصدين «ميدلت»، وكل واحد مشغول بنفسه عن غيره، من يقرأ القرآن من المصحف، وكانت المصاحف قليلة لا يملكها إلا الميسورون، ومن يحادث جاره في الموكب، أما أنا فقد تقاسمتني مشاهدة ما خلق الله من زرع ونبات وحيوان، والقراءة في بعض ما جلبته معي من كتب وأمالي ونقول عن شيوخ القرويين وما استنسخته طوال سنين تعلمي، فقد كان هذا هو الكنز النفيس الذي أحمله معي وأقاتل دونه جند الإنس والجن. دنت مني ناقة يمتطيها أحد الوجهاء الذين

44- التخويد: أن تهتز كأنها تضطرب، وتخود الغصن تمايل والخود: المرأة الشابة.

جالستهم على العشاء في اليوم الثاني من خروجنا، كان في العقد الثالث من عمره، شباب وغنى ووجاهة، سلم وحيّا، رددت عليه سلامه وتحيته ورحبت به، بادرني بقوله: أصحابي في القافلة أعجبوا وبُهروا بحديثك الليلة الماضية وما قلته كان حقا وصوابا.. قلت وفقنا الله تعالى جميعا، قال: الناس يخافون قول الحق، والأمة في حاجة إلى من يفقهها في أمور دينها ودنياها وآخرتها، ولا ينفع أن يفكر كل نفر في مصلحته الخصوصية وحدها، أليس هذا صحيحا آ السي...؟ قلت: العبدي[45]، هكذا يناديني أصحابي. من أي البلاد في المغرب؟ سألني، قلت: من جهة عبدة وحاضرتها مدينة أسفي، قال: أسمع بها، لكنني لم أزرها، أحد أقاربي له معاملات مع بعض تجارها حيث يرسلون له كميات كبيرة من الحبوب[46] والقطانيات[47] والزيتيات[48] والجلود[49]. علت البشاشة وجهي وأنا أقابل لأول مرة رجلا يقول كلاما حسنا في قومي وبلدتي، عبدة بلد الحرث والزرع، وأهلها كرام أمجاد[50]، وهو الرجل الذي حسبته من هؤلاء المترفين يفخفخون[51] ولا يستحون، سامحني الله على سوء الظن، ثم زاد قائلا: ما ذكرت تلك الليلة لازال صداه يرن في قلبي وعقلي.. أحنيت رأسي وأنا أبعد حماري عن ناقته التي حاذاها كثيرا، إذ توجست منه شرا، قلت: أنا لم أقل بدعة ولا شيئا مبتكرا، أنا لم أحك إلا كل ما يراه كل ذي عينين مفتحتين.. ولكن العيون مغمضة، أجابني

45- تلك هي المرة الأولى الذي يذكر فيها المؤلف لقبا يُعرّف به.

46- كالشعير والذرة والقمح الصلب والطري والخرطال والبشنة. (أرمان أنطونا م. س-ص 110 وما بعدها).

47- كالفول والحمص والجلبان والحلبة والعدس والفاصوليا (أنطونا: م. س ص 16 وما بعدها).

48- الكتان (زريعة الكتان) والزيتون (أنطونا م. س ص 120).

49- بلغت صادرات جلود الماعز والأكباش من أسفي إلى فرنسا (سنة 1928 كمثال) مايلي:
جلود الماعز 2429 كلغ بقيمة 42.966 فرنك.
جلود الأكباش 43420 كلغ بقيمة 1393205 فرنك.
(أنطونا: م س ص 168).

50- وكأني به يرد على الحسن الوزان صاحب كتاب «وصف إفريقيا» عندما وصف سكان مدينة أسفي بقوله: «يسكنها جمهور غفير من الناس لكن تنقصهم التربية... والأرض المحيطة بالمدينة خصبة جدا إلا أن الأهالي (أي سكان أسفي) غير أذكياء لا يعرفون كيف يحرثونها ولا حتى يغرسون فيها الكروم» الوزان م س-ص 147 / ج1).

51- فخفخ الرجل (فخفخة) فاخر بالباطل.

مسرعا، قلت.. وقد اقتربنا من حطة الراحة، لا أحد بقادر أن يغمض عينيك كما لا أحد يستطيع أن يركب ظهرك إلا إذا كنت منحنيا. صدقت، والله صدقت، كلنا نحن أبناء هذا الوقت منحنون ومُقوسو الظهور كأن أمهاتنا أنجبتنا هكذا.

تذكير..

أغفلت أمرا هاما، لم أتطرق إلى وفد النسوة بالقافلة وخروجهن معنا من فاس، ذكّرني بهذا ما رأيت على وجه العسس والحرس من تأهب وحذر ونحن ننزل بأرض تمر عبرها عدة طرق تؤدي إلى جهات مختلفة، وهم يحشون بنادقهم بالبارود ويتأهبون لكل أمر طارئ. كان موكب النسوة وسط القافلة، بين إبل التجار وهي بمثابة المقدمة وبين البغال المحملة بالمؤن والسلع وأمانات التجار وحمير المسافرين وهي بمثابة المؤخرة وموكب النسوة بمثابة القلب، وعلى ميمنتنا وميسرتنا تفرق الحرس، كما وضعوا على رأس القافلة وعلى مؤخرتها راصدين ورقباء[52]. كانت النساء تمثلن عشر القافلة، وكان منتجعهن دائما صدر القافلة وقلبها سيرا أو استراحة أو مبيتا، منهن نسوة يسافرن مع بعولتهن، وأخريات راحلات إلى قراهن أو بلداتهن على خط سير القافلة، سمعت أحدهم - لعله من العسس - يقول: إن مع النسوة إمرأة عظيمة الجاه ذات نسب وحسب يقال لها «الشريفة».

رجع..

أنخنا إبلنا ودوابنا، وأخذنا في قضاء مآربنا من وضوء وصلاة وإطعام ونحن في عجلة من أمرنا، فالمكان غير آمن و «خير الغزوة يا رسول؟ ما شافونا ما شفناهم» هكذا كان يقول شيخي «حيدة» بالجامع الأعظم بأسفي عندما يُسأل عن الحربِ مع النصارى الكفار في هذه الأيام التي قويّت فيها شوكتهم وازداد بأسهم وعظُم سلاحهم وكَثُر عتادهم. بعد ساعة أو ما يزيد قليلا، أخذنا طريقنا إلى «ميدلت» التي دخلناها قبيل صلاة العشاء. كان التعب قد هدَّ الأوادم

52- يقدم العبدي في هذه الفقرة خطاطة لتركيبة الجيش عند خوض المعارك.

والبهائم وأخّرنا الصلاة إلى حين أن استرحنا وأطعمنا أنفسنا ودوابنا واغتسلنا من عطن[53] العرق وغبار الطريق. عند الفجر كان كل نفر يسأل صاحبه هذا السؤال: كيف نمنا؟ ومتى؟ فلا أحد يعرف كيف وصل إلى فراشه، ومتى أغمض عينيه، الخوف والتعب وطول المسافة، كبس كل هذا على أنفسنا، فلم ندر بأمرنا علما، ولو أن أحدا هاجمنا تلك الليلة لأخذنا على حين غرة ونحن غافلون، وما أظن العسس كانوا متيقظين.. اللهم لك الحمد والشكر. لم نُبكر كعادتنا هذا اليوم، هو اليوم الخامس بعد خروجنا من فاس صوب واحات النخيل بجهة «تافيلالت» وبلاد سجلماسة القديمة وما بقي من قصورها وقصباتها على نحو ما ذكره لي بعض الرحالة ممن التقيتهم قبل السفر. سرت كعادتي في الموقع الذي اعتدته ضمن القافلة، بعد مسيرة ساعتين أو أكثر قليلا، كان يسير بجانبي التاجر الشاب الذي حادثني بالأمس. بعد أن بادلته التحية والسلام، كان وجوبا علي أن أسأله عن اسمه وكنيته، فإلى الآن لا أعرف له اسما ولا نسبا، قال: سعيد بن محمد الطرابلسي، لي نسب بعيد بعائلة أندلسية، لم يورثني إلا التيه والتشرد، الشطارة والكياسة والحذق في التجارة والمعاملات هي رأس مالي في البيع والشراء واغتنام الفرص، أنظر إلى هؤلاء التجار المرافقين لنا، جُلهم تابعين لذوي الحمايات الذين لا يؤدون مكوسا ولا رسوما مخزنية ولا تصادر ثرواتهم، أولئك المحميون وطدوا روابط تجارية مع عدد من البلدان الإفريقية كالسودان المغربي وتنبكتو، إنهم اليوم يضعون أيديهم ويُحكمون قبضتها على تجارة الصادر والوارد، ويستحوذون على كل ناتج الفلاحة من غلات الحبوب والمواشي والعطريات. جُل من معنا في القافلة وسطاء عندهم، مبثوثون على طريق القوافل يشترون ويبيعون ويختمون على «الكنطردات[54]» ويحتكرون ويضاربون بالسلع ويتلاعبون بالأسعار، ولعلمك أيها الفقيه الجليل، فالحمايات الأجنبية عمت التجار والفلاحين والشرفاء وحتى عدد من الوزراء والكتاب[55].

53- العطن : النتن والعفونة.

54- الكنطردة: بمعنى العُقدة، وأصل الكلمة من اللغة الاسبانية «Cantrato»، وقد استعملها المخزن للدلالة على العقدة المبرمة مع أية دولة أجنبية في شؤون التجارة، كما كانت تعني العقدة المبرمة في شأن احتكار بعض السلع ، وأيضا ضرب السكة «كنطردة» السكة. (عمر أفا، م . س ص 414).

55- «تكاثر عدد المحميين سنة بعد سنة بنفس النسبة التي تكاثر بها عدد الأوربيين في المغرب... وكان هذا النظام مصدر ربح بالنسبة لبعض القناصلة الفقراء أو اللئام. أما بالنسبة للمغارب

هكذا تولد الثروات وتنشأ وتكبر وتعظم وتتفرعن ببلاد المغرب . . قلت لصاحبي وأنا أكاد أشرد بعيدا إلى مرسى أسفي الذي كانت تحمّل منه السلع والأوساق والمؤن والخيول والحبوب، بينما أهل أسفي يتضورون جوعا ويموتون بالعلل والأوبئة. على ضفاف واد "زيز" أنخنا رواحلنا وأخذنا نصيبا من الطعام والراحة كما صلّينا الظهر والعصر. تغذيت هذا اليوم - ضيفا - عند السيد سعيد الطرابلسي الذي استضاف من أجلي - كما قال - اثنين من أصحابه التجار الرحل ليُنوّروني بمعارفهم وما خبروه من الرحلات والسفريات لَمّا علم بنيتي الذهاب إلى مكة والمدينة. قدموا لي نصائح وفيرة، أنا الآن مُنكب على تدوينها، وأهمها النصيحة التي شددوا عليها كثيرا وهي أن أسلك طرق القوافل وأن لا أسافر إلا مع قوافل التجار التي يكون فيها التجار الكبار ووجهاء القوم أو الباشادورات[56]، فهي وحدها التي تكون دوما محروسة منيعة محمية بأقوى الرجال وأحسن العتاد، وحتى إذا ساءت الأحوال بإمكان التجار أن يقايضوا قطاع الطرق بالمال والسلع، فيسهلون لهم الأمان والسلامة فيما يواليهم من نفوذ، وقد يتوسطون لهم عند غيرهم.

علا النفير في القافلة إيذانا بالرحيل، قاصدين واحدا من قصور "تافيلالت" قبل أن يجن الليل، كان وصولنا بين صلاتي المغرب والعشاء. اليوم الخميس، وهو خامس يوم في عمر رحلتنا. بعد أن أدينا الصلاة، دعاني التجار إلى حضور ليلة الجمعة، وهي عادة متبعة في القوافل، حيث تتنادى كل جماعة إلى ما يجمعها، فيتناولون الطعام والشراب ويسهرون إلى وقت متأخر، وفي ذلك راحة

الأغنياء، فكان وسيلة للتملص من أداء الضرائب... سنة 1884 كان بيع الحماية أمر مألوفا... وعُزل قنصل الولايات المتحدة من منصبه بسبب الرشوة واستغلال النفوذ. وتبين من بحث أنجز سنة 1893 أن آلار Allard أحد أعوان قنصلية فرنسا الذي كان يقيم في مدينة أسفي كان يعيش بما تذره عليه عملية الاتجار في الحماية، إذ لم يكن له من رأس مال سوى بطاقات الحماية... وفي سنة 1886 كان عدد المحميين المسجلين في سجلات الحماية الرسمية الفرنسية 336 مغربيا. وفي مدينة أسفي حيث يقطن فرنسي واحد كان عدد المحميين 30 شخصا في متم يونيو 1890. وفي ملاح تطوان كان عدد المحميين اليهود 300 شخص سنة 1893 وكانت الحماية تشمل رب الأسرة وأفراد عائلته وتمتد عمليا إلى شركائه وعملائه في مهنة.. وهكذا تملص من سلطة المخزن في أواخر القرن التاسع عشر عشرات الآلاف من المغاربة، ومن أغناهم وأكثرهم نفوذا" (جان لوي مييج) مذكرات من التراث المغربي. م س ص 265).

56- الباشادور: السفير

للمسافرين ودوابهم. انصب حديث المتسامرين، بل قل أحاديثهم على أمور التجارة والبيع والشراء وأنواع السلع والبضائع وفرق الربح المرجو من كل صنف إن لم يكن الغُنم كله. كأن المكان ليس مكاني والقوم غرباء عني، ومع ذلك استمعت بانتباه، وتفرّست فيهم بإمعان، وتابعت كلامهم بتمعن وتبصر، فلم يبن عنهم إلا المكر والدسيسة. هم اليوم أصحاب الوقت والمتحكمون في أقوات الرعية والمالكون لزمام الفقر والغنى، يمالئون الحاكم ويُجهزون على المحكوم، وهاهم اليوم محميون من طرف الأجناس[57] الأورباوية، وكان إفتاء شيوخنا بمخالفة ذلك للدين والشرع كصيحة في واد. انصرفت مبكرا متعللا بالتعب. دخلت فراشي ثم تناولت القلم والدواة وطرس الكتابة وأخذت في تدوين مشاهداتي وخاطراتي متمما ما كنت أسلفت. نادى علي مناد - من وراء حجاب الخيمة الصغيرة التي هيأتها بنفسي قبل الرحيل - يقول: اخرج إلي، خرجت إليه حَبْوا، فلا قيام داخل هذه الخيمة، سلم وقال: الشريفة تبعث لك بهذا وتطلب منك أن تصنع لها حجابا يدفع عنها الأرق ويجلب النعاس. قلت: ما أنا بساحر ولا عرّاف ولا ضارب للرمل، عُد وقل لها بأن تقرأ شيئا من القرآن، وسيرفع عنها الله كل عناء وسهر. عاد إليّ بعد قليل، وكان أهل القافلة يتسامرون وينتدون[58]، قائلا إن الشريفة تدعوك لتحكي لك عما بها، جمعت أوراقي وأغلقت زجاجة الحبر وطويت ما كنت نشرت، أطفأت الشمعة وأسدلت الستار وتبعت الخادم إلى خيمة الشريفة، كانت في بقعة من ساحة القافلة لا يكاد المرء يلحظها، محاطة بالإبل والأمتعة، تناثرت بجانبها خيام صغيرة محندقة، بدت وأنا

57- الأجناس : الدول الأجنبية، الجنسيات مفردها: الجنس، وتنطق في اللهجة العامية «الكَنْسْ» بنبرة استهجان وذم.
ومن الجدير أن نذكر «فتوتين لعالمين مغربيين عاصرا هذه الظاهرة، ولعلهما يُعبران عن وجهة نظر مثقفي الفترة (ق 19) حول هذه الجائحة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفتوتان ل: الشيخ جعفر بن ادريس الكتاني: «الدواهي المدهية للفرق المحمية» وللشيخ بن ابراهيم السباعي: «كشف النور عن حقيقة كفر أهل البسبور» (مصطفى الشابي: م س . ص 85 هامش رقم 77.
«وكان خطر هذا المشكل عظيما إلى درجة جعلت السفير الإنجليزي «جوهن دروموندهاي يقول: «إن السلطان قد يفيق ذات صباح من نومه فيجد نفسه بدون رعايا» (مذكرات من تراث المغربي: م. س ص 266).

58- انتدى القوم: اجتمعوا في النادي أو حضروا ندوة.

داخل إليها كالشمس تحوط بها الكوكب في تصاوير الفلكيين وأصحاب التقويم والتنجيم، كان هناك عدد من الحراس الحراطين. نادى الخادم الزنجي: اسْمِيّة لالة[59]، خرجت خادمة صغيرة، لما رأتني دخلت متعجلة إلى الخباء، ثم خرجت، نادتني بالدخول وصرفت الخادم. تقدمت إلى داخل الخيمة، كانت الخادمة الزنجية تبتسم في وجهي، ثم أشارت علي بالجلوس، كنت قد تجاوزت الباب إلى مكان لازال بعيدا عن وسط الخيمة ولكنه مفصول عنه بستار من الثوب، ذهبي أصفر، تشف رقعته عن ثقوب صغيرة، تُريك شيئا ولا تُريك إنسانا. ما أن استويت في قعدتي الوثيرة التي عرفت أنها مخصصة للضيوف من الرجال الأغراب، حتى سمعت صوتا رخيما يقول: مرحبًا بالفقيه، البركة مْعاك.. قلت: أنا في الطوع والخدمة.. قالت: منذ خروجنا من فاس لم أذق طعم النوم إلا ما كان متقطعا مُهدّا للبدن، موجعا للدماغ، وما زال بيني وبين الوصول إلى "جيني" أيام وليَال طوال، كيف أقضيها بلا نوم، سأهلك في هذه الصحراء بلا زوج ولا ولد ولا أقارب، وما الذي أقامكم بهذه المدينة: "جيني" أو "جِني"؟! أستغفر الله، ما كان لي أن أسأل هذا السؤال.. قلت وأظنها ابتسمت، كما ترآى لي من خلال ثقوب الستار على صغرها، كما قلت أيها الفقيه، هي حقا مدينة جنيَّة، فهي موطن مناجم الذهب الذي يحمل إلى تنبكتو ومنه إلى فاس وكل بلاد العالم، سافر أجدادي من زمن بعيد إلى هناك مع حملة المنصور الذهبي واستقروا بها، هناك وُلدت وتزوجت، لكن فروعا كثيرة من عائلتي لا زالت بفاس وتطاون ومراكش. كل سنة أو سنتين أزورهم، هم يفعلون مثلنا.. العفو ألالة الشريفة ما كان لي أن أسألك عن كل ذلك، قالت: لا حرج ولا جرم في ذلك، أريدك أن تعرف ما بي من داء ووسواس لترشدني إلى الدواء الأكثر نجاعة. لو سمحت لي الشريفة بالعودة إلى خيمتي لأحضر لها وصفة دواء من أعشاب طبية، فأنا أتعاطي شيئا من الخيمياء لعله يأتي بشيء نافع إن شاء الله.. رافقتك السلامة، الله إجيبْ الشفا على إيديك. أخرجت عُدتي خارج الخيمة واستعنت بشمعتين كبيرتَين، ثم طلبت منَ الحرطاني[60] أن يوقظ نارا. اشتغلت بإعداد خلطة من

59- تعبير لفظي كناية عن عدم ذكر اسم الشخص نظرا لسموه ورفعته.

60- الحرطاني: أسود البشرة وليس عبدا، يتمتع باستقلال نسبي، يعمل عند الشرفاء، أما العبد (العبيد) فهو قاعدة الهرم الاجتماعي.

أعشاب كنت جهزتها قبل سفري صالحة لتسكين العَصب وجلب النوم وإزالة الصداع، استغرق مني ذلك زهاء الساعة أو أكثر قليلا، دفعت به إلى الحرطاني ودخلت إلى خيمتي بعد أن أمرته بإخماد النار، كاد النوم يخاصمني لولا التعب وما تيسر من الذكر الحكيم، فقد بدت لي الشريفة في طيف الغادة التي تلاحقني من أسفي إلى هنا. استيقظ القوم لصلاة الصبح، لم يتعجل أحد، فقد كانت «تافيلالت[61]» واسطة عقد الرحلة، كان علينا فقط أن ندخل «الريصان[62]»، ولم يبق بيننا وبينها إلا يوم واحد من السير. بعد الفروغ من الصلاة سألت واحدا من أعوان الدليل عن المكان فقال إننا ننيخ بجوار قصر[63] مولاي أحمد الذهبي، قبيلة أولاد يحيى المجاورة على ضفاف نهر زيز حيث تمر السواقي والخطارات مخترقة الأراضي، كان المكان آمنا، فقد كنا في أرض الشرفاء والمرابطين وتحت حماية القبائل البربرية الرحالة الذين تدفع لهم القوافل أتاوات المرور والأمان.

هيأت فطورا من خبز الشعير وزيت الزيتون والشاي ثم خرجت للتنزه جنب الوادي[64]، لم يحن بعد وقت الرحيل نحو الريصان. غير بعيد كانت نسوة يغسلن ثيابهن وأطفالهن يستحمون بجوارهن. على مسافة عشرة أذرع منهن كانت دائرة من الخادمات يقمن على خدمة سيدة، لعلها الشريفة، ربما كانت تستحم. عدت أدراجي وأخذت ألملم متاعي، نادى المنادي في الناس، هَبّوا قياما، فنهاية رحلة بعضهم قريبة، وآخرون لازالت الطريق أمامهم طويلة وشاقة، لكنهم سينعمون براحة هنيئة بسجلماسة القديمة، يشترون ما يلزم سفرهم، ويبيعون ما جلبوه من فاس. مع الضحى انطلقت القافلة بعد أن التحق بها ركب صغير من المسافرين قادما من تفزة حاضرة إقليم تادلة الذي رغم صغره كثير القمح والزيت والقطعان،

61- تقع تافيلالت جنوب شرق المغرب، وتنطبق محليا على الواحة التي توجد بين واد غريس وواد زيز. وكان مجتمع تافيلالت يضم الرحل والمستقرين، وهم فئتان: فئة الأحرار وفئة الحراطين والعبيد.. أصبحت تسمى الآن «قصر السوق» ثم سميت مؤخرا «الراشيدية».

62- هكذا كتبها «العبدي» في مخطوطته، وتكتب أحيانا «الريسان» وحاليا تكتب «الريصاني».

63- القصْر: قرية محصنة ووحدة إنتاجية ودفاعية تخضع لتنظيم محكم ويطلق على الوحدة «تاقبيلت» (القبيلة).

64- اهتم الرسامون الاستشراقيون برسم لحظات الوصول إلى الواحات وضفاف الأنهار، لوحة الفنان Théodore Frère (1814-1888) تحت عنوان «قافلة في الصحراء» 40.5 x 25.5 cm². (les Orientalistes: op.cit. p.53)

وأهله أغنياء، سكان الجبال بربر من قبيلة مصمودة، أما السهول فآهلة بقبيلتين كبيرتين من الأعراب أولاد زعير وبني جابر. ساروا جنبي في الركب الذي بدأ يكبر كلما دنونا من سجلماسة. عند الظهر توقفنا للطعام والصلاة، كان الكثيرون منا يريدون أن يقيّلوا، لكن الدليل ضرب صفحا عن ذلك، مفضلا التعجيل بالوصول على قيلولة غير مجدية. مع صلاة العشاء كنا في أحضان سجلماسة العتيقة التي لم يبق منها إلا قصور متناثرة، وقد بدأت مدينة الريصان تحل محلها، ومع ذلك لإسم سجلماسة رائحة ومحبة ودلالة، سأظل أستعمله ولو كره الآخرون. واحات النخيل في كل مكان والسواقي والخطارات، الخضر اليانعة كأنك في سهل من سهول عبدة ودكالة ولست على أبواب الصحراء. التمور الفيلالية الرطبة الحلوة والماء الزلال، نعيم ما بعده نعيم.

نصبت خيمتي وفي نيتي أننا سنمكث هنا أياما كثيرة، فهنا بسجلماسة ـ من خلال ما جمعت من أخبار ـ تلتقي القوافل الصغيرة الآتية من عدة مدن كفاس ومراكش وتفزة وورغلة لتسير نحو السودان[65]، كما أن سجلماسة سوق للبيع والشراء، الشرفاء والمرابطون والأعراب والحراطين والعبيد والعوام، كلهم في سِجلماسة يحسنون فنون التجارة والصرافة والمكاييل. ستكبر القافلة لتصبح «أكْبار[66]»، هي وحدها التي بإمكانها خرق الصحراء والوصول إلى السودان.

65- السودان: المقصود به السودان المغربي (السينغال، مالي، النيجر) وهو دلالة على اللون أكثر مما هو دلالة على المكان (السودان مقابل البيضان). في الأسطوغرافية المغربية يمثل السودان الإمبراطورية التي أقامها المنصور الذهبي بعد بيعة ملك «بورنو-كالم» وضم مملكة سونغاي وعاصمتها كاغو. (مذكرات من التراث المغربي م. س – ص 195 / ج 3).

66- يطلق لفظ «أكبار» على القافلة العابرة للصحراء، والتي يسبق انطلاقها إلى السودان استعدادات طويلة ودقيقة، وكان الأعيان وكبار التجار وممثلو السلطات الدينية والسياسية هم المشرفون عليها، كما كان الاستعداد يشمل أمورا منها: الجمال، وإعداد الزاد والماء، وكان الزاد يشمل المواد القابلة للادخار. أما الماء فكانت تعد الحبال والدلاء وتطلى القراب بالقطران الذي يحفظ الماء من التبخر، هذا إلى جانب السلع التي ستباع في السودان وتتمثل في الملابس والحلي والبخور والفضة والملح الذي كان يؤخذ من المملحات. يُسيّر «أكبار» طاقم على رأسه «الدليل»، وبجانبه عدد من المساعدين على رأسهم الحراس و«المنادي» ومهمته إبلاغ أوامر «الدليل»، يضاف إلى ذلك جهاز ديني وقضائي يشمل المؤذن والإمام والعدول لتوثيق المعاملات» (معلمة المغرب ج 2 / ص 600 – 598– مطابع سلا – نشر الجمعية المغربية للتأليف.

قطع..

مذ رجعت من عند الشريفة لم يهدأ لي بال ولا خاطر، كنت أُنيحُها عن فكري، لكنها تعود فتملأ النفس والفؤاد، حيّرتني، فلا أعلم ما تريد مني؟ هل حقا بها وسواس ومرض؟ أم أن ذلك من كيد النساء.. وإن كيدهن لعظيم، أخاف أن أقدم رجلا فتغوص الثانية، وهل أنا على قدْر الشريفة وجاهها.

رجع..

جاورني أهل تفزة سكن الخيام واستضافوني على العشاء، كان شهيا ولذيذا، كثير اللحم والدسم. دخلنا في الهزيع الثاني من الليل ولازال من الناس من يأتي للحاق «بأكْبار»، فيعرف بنفسه وقبيلته ووجهته، ثم يؤدي المعلوم المستحق للدليل والحارس والزطاط وفقا للمكان الذي يقصد، فكلٌ بثمنه. كنت أهيئ نفسي لدخول خيمتي حتى وقف علي الحرطاني خادم الشريفة ليبلغني مرسالا منها يدعوني لزيارتها. في هذا الوقت؟! قلت، قال: نعم، أنزلت الستارة على باب الخيمة وتلفعت بسلهامي الأسود على الجلباب ثم ذهبت معه. كالمرة السابقة استقبلتني بنفس المكان، لكنها هذه المرة بدون حجاب الحرير الأصفر المُثقب، اكتفت بحجابها وبُرقعها. يظهر أن الدواء الذي وصفت لي لا يصلح إلا لليلة واحدة، فقد عاودني الوسواس مرة أخرى.. قلت مطمئنا، لا خوف عليك من الوسواس فهو لا يصيب إلا الحاكمين وولاة الأمر المشغولين بأمور الدولة والدين[67]. أما مثلكِ فلا يحق أن يصيبه وسواس إلا إذا كان من الشيطان الرجيم والعياذ بالله، قالتَ: هو الشيطان إذن، قلت: ـ ربما متسرعا ـ نُخرجه بإذن الله، قالت: عليك به، ولك مني ما تريد، قلت: نحتاج إلى وقت وتعازيم وبخور وقراءة قرآن وحضرة، ولا أرى المكان صالحا لذلك. لا عليك أيها الفقيه،

67- بعد جائحتي الطاعون والجذام تأتي طائفة من الأمراض الأكثر انتشارا في المغرب: كالفالج والصرع وأوجاع القولنج والمعدة والكبد ولدغات الأفاعي والعقارب والإسهال (الذي أصيب ى به عبد المومن بن علي الموحدي) والسل والأورام والقرع وأمراض العينين والأذنين وداء الكلب والتسمم والوسواس (للحكام خاصة). د. الحسين بولقطيب: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين – ص 58 ط 2002 – منشورات الزمن – الدار البيضاء.

سنمكث هنا ما يقرب الأسبوع، هذا ما قال الدليل، حتى يصل الموكب القادم من مراكش، وقد جاء الرقّاص[68] ليخبر بذلك. قلت: نبدأ على بركة الله، علينا الآن بقراءة الكف، كنت أخمّن أن لا داء بها، إن هي إلا حالة نفس مشوشة وقلق وفراغ وقت، فكثير من علامات الصداع والشقيقة وفقدان الشهية والحزن قد تؤول في نهاية الأمر إلى مرض النفس والعقل أكثر ما تؤول إلى مرض البدن، وهو ما يتضح من كشوفات الحمقى والمجانين[69]. قلت لها: إيدَكْ آ الشريفة، مدت يدها بخفر وحياء وهي مطرقة نحو الأرض رغم ما تتلفع به من حجاب وبرقع، تلقيت يدها على سطح كفي فنزلت كالطائر الخائف المضطر ليهبط مكانا لا يعرف أمأمنا أم فخا تلقاه؟ تأملت أصابعها الرقيقة بعيني وقلبي، قلت لها: هذه الخطوط ستُعْلمنا بحول الله عما تعانيه، العلامات المرسومة على راحة الكف وثيقة الصلة بحركة النجوم والكواكب. مررت بسبابتي على الخطوط الثلاثة التي تقسم راحة الكف إلى ثلاث مناطق، على بركة الله، هذا خط الحياة يخرج من السوار ليفصل بين الإبهام والسبابة، أنظري إليه، واضح ووردي اللون، متصل غير متقطع، حياتك مُريحة وصحتك جيدة، فاطلبي من الله دوام الرضا والهناء. وهذا الخط الذي فوقه هو خط الرأس، هو الخط الأوسط بين الثلاثة، ها أنت ترينه، خط مستقيم مرسوم بدقة ولونه واضح زاه، بما أن صاحبته مُخها جيد وتتمتع بعقل وقاد. ولكنني - وفي خفية عنها - لاحظت أن خط الرأس لا يرتبط بخط الحياة بأية صلة، ويأتي من حلمة المشتري، فانتقلت إلى الخط الثالث، خط القلب، أظهرتُ الرضا والاطمئنان فقلت: خط تام كامل غير متقطع ولونه وردي، صاحبته امرأة كريمة النفس، ذات طوية سليمة، وسطية[70] - أظنها ابتسمت فرحة مستبشرة وتفاءلت بما سمعته - دون عصبية، متزنة العاطفة دون غلو أو برود. ومن أين يأتيني الوسواس ويفارقني النوم إلا ما كان سنة أو إغفاءة، قالت. قلت: هل تنتابك رعدة أو ارتعاش فتختلج بعض أعضائك،

68- رقّاص: «ناقل البريد وموزعه في الاصطلاح المغربي الأندلسي أو حامل الرسالة أو الخبر، معروف بالأمانة والسرعة، ويقوم بدور البريد السري خاصة في شؤون المخزن بينه وبين ممثليه، والكلمة مستمدة من الكلمة الأمازيغية (أرقّاص)». عمر أفا. م . س – ص 404.

69- إشارة إلى بيمارستانات الأمراض العقلية.

70- يقصد معتدلة.

أجابت: أحيانا.. لم أنتبه إلى ذلك كثيرا، ربما يقع ولا أحفظه، هل يختلج ما تحت الإبطين منك؟ قالت: ربما! أيهما يختلج أكثر من الآخر، الأيمن أم الأيسر؟ أعتقد الأيسر، قلت: هو فرح إذن، وإذا لم يوافق الدوائر الفلكية فهو موت قريب عزيز، قالت بتفجع، حقا.. مات عمي الذي تكفل بي بعد موت الوالد، أنا عائدة من عزائه. واليدين، اليمنى أم اليسرى، قالت: اليُمنى، قلت: نوال مال عظيم وكرامة وسرور، وبانشراح سألتها: هل يختلج قلبك؟ قالت: كثيرا هذه الأيام. قلت: قوم يريدون بك شرا وأذية ويشهدون عليك بزور وبهتان وبغي وعدوان، أقرباء زوجي ينكدون علينا عيشتنا وحياتنا. قلت بحياء، والخاصرتين أيهما تختلج أكثر، قالت اليسرى، قلت: هل أنت عاقر؟ قالت: نعم، من أين عرفت، قلت: أبشري سترزقين بمولود، إذا وافق الساعة الفلكية، كان ذكرا، وستنجين من الغم وتُسرّين بالأولاد. لَكَ عندي نذر أن أُلبيَّ كل ما تطلب وتبتغي إن صدق ما تنبأت به وتحقق ما في علم الغيب، والله إنك لمبرور مبروك، لم يخب ظني فيك عندما سمعت قراءتك للقرآن وتابعت إمامتك للمصلين، من أي بلاد المغرب أنت؟ فقيه سوسي؟ قلت: لا أنا من عبدة، أرض فلاحة وصلاح وملاحة، بلاد الأولياء والصالحين[71]. خُذي هذا الحجاب علّقيه على السرة، وهَذا ذَوّبيه في قليل من الماء ثم اشربيه قبل النوم، وهذا البخور عطّري به مكان نومك وفراشك. قدمت لي بحياء صرّة نقود، مانعت في قبولها، ثم قبضت عليها وأخفيتها في ثيابي. لما قمت مودعا، بادرتني بقولها: سأطلبك إن احتجتك، قلت: أنا في الطوع والخدمة. أمضيت اليوم، وهو اليوم الثامن من أيام السفر والترحال في التنزه والتفسح بأرض سجلماسة ومنتزهاتها وحقولها وأحواض الماء، كنت من الهناء والسعادة في العليّين، وقد حمدت الله أنني لم أنفق مما عندي ـ وهو قليل ـ لزاد هذه الرحلة، بل شكرت الله جزيل الشكر والحمد أنني كسبت شيئا من المال والمؤونة ولم أحتج إخراج ما عندي، لم أظن يوما أنني سأحظى بكل هذا الكرم والاحتفاء ولكن الله يوسعها على عبده، وأنا الذي كنت

71- يذكر أرمان أنطونا أن بعبدة 1000 سيد (ولي): 655 بالبحاترة، 293 بالعامر، 52 بربيعة، انتقى لائحة 20 وليا مشهورا. (جهة عبدة. م . س . ص 84).
– كما يحدد أحمد بن محمد الصبيحي لائحة من 55 وليا صالحا بإقليم عبدة. (كتابات أحمد بن محمد الصبيحي السلاوي، ص 127 وما بعدها ط 1 / 2004 – الرباط).

أخشى أن ألجأ إلى مد اليد للسؤال ودق الأبواب وطلب القِرى[72]. كان صاحبي الطرابلسي قد عرض عليّ الرحلة والسياحة في ربوع تافيلالت مادامت القافلة لن تقلع إلا بعد أيام، تمكن هو بشطارته ومعارفه الكثيرين أن يُخلّص أعماله بيعا وشراء، ولم يبق له إلا أن ينتظر القافلة الآتية من تنبكتو للعودة إلى فاس، وهي على وشك الوصول على ما راجت به الأخبار، يأخذ منها ما يريد بسعر يقل كثيرا عن مثيله بفاس، وهذا ربح آخر يصب في خزانته ومن حيث لا يحتسبون. كنت أسمعه وهو يحكي لي عن مقالب التجار ومناوراتهم وحيلهم الشيطانية لتجنب الخسارة والحصول على المكسب الفاحش كمن يحكي عن غزوات بدر وأحد والقادسية واليرموك، فتوحات المال والذهب والحرير، ولا يذكر - بل يستعيذ بالله منها - معارك العُقاب[73] إيسلي[74] وتطاون[75]، عندما ذكّرته بذلك، تحاشى

72- طلب الضيافة.

73- هزيمة معركة العُقاب (609 هـ - 1213).

74- معركة إيسلي (1259هـ - 1844م) «لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب، رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بُنْبة أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط، ولما رأى الخليفة ذلك، غيّر زيّه بأنه أسقط المظلة ودعا بفرسه كميت فركبه ولبس طيلسانا آخر فاختفى حينئذ. وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع، ولكنهم كانوا يقحمونها إقحاما، وثبتوا في نحر العدو مِقدار ساعة، ولما التفتوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيّه خشعت نفوسهم، وقال المرجفون: إن الخليفة قد هلك. فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحلة، فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال، فانتهبوه وتقاتلوا عليه، وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه، وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة، فتقدم بعض الحاشية إلى الخليفة وقال له: يا مولانا إن الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضا ويسلب بعضهم بعضا، فقال: ياسبحان الله! والتفت فرآى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه، وانهزم من كان قد بقي معه عن آخرهم، وتبعهم العدو يرمي بالكور والضوبلي من غير فترة، وثبت الله بعض الطبجية (المدفعية) *بالمحلة ولكن سال الوادي فطم على القرى ونفذ أمر الله» (الناصري. م. س. ص 52 – ج 9).

75- معركة تطاون (1860-1276) «وزحف بعسكره (القائد الإسباني*) شيئا فشيئا وهو في ذلك يرمي الكور والضوبلي والبغال تجر المدافع والجناحان ممتدان يكتنفان محلة المولى أحمد (أخ السلطان محمد بن عبد الرحمن*)، ولما قربا منها وكادا ينطبقان عليها، فر من كان بها وتركوا الأخبية و الأثاث بيد العدو، فاستولى عليها ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه وتقهقر المولى العباس (أخ السلطان محمد بن عبد الرحمن*) بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو، وكان في تقهقره هذا قد دخل المدينة ومر في وسطها واضعا منديلا على عينيه وهو يبكي أسفا على الدين وقلة ناصره» (الناصري م س – ص 90– ج 9).

*- من وضع المحقق.

سماعه وقال لي إن التجار لا يخسرون لا في السلم ولا في الحرب، بل قد تكون أيام المجاعات والأوبئة والحصار والجفاف والجوائح أكثر جودا وعطاء من أيام الرخاء والسلم. نحن أساس المُلك، قالها وهو يضحك، والحكام أكبر التجار، التفت إلي فجأة وهو يقول: دعك من هذا السفر المُضني الشاق من حج قد يكون هو حجة الوداع، وتعال لتشتغل معي بالسهم[76] الذي تريد وكأنك دفعته بعقد عدلي وأنا حُزته. إن تجارتي تحتاج لرجل أمين طيب فقيه مثلك، وسترى مني كل خير. أعرف الناس من محياهم، فراستي لا تخطئ، تاجر عيّار، أنت رجل مبروك، وعليك علامات، ولديك إشارات من هو منذور لعمل كبير جليل، والتجارة تقود إلى دار المخزن، فقد تصبح أمين الأمناء[77] أو باشادورا متجولا بين الأجناس ولِمَ لا وزير البحر[78]، وأقلها أن تغدو من أعيان الوقت[79] تلبس المَلْف[80] وترفل في النعيم. ابتسمت رغما عني وأنا أنظر إليه بعين التعجب والاستعجاب، صحيح أن بعضا مما يقول يختلج في نفسي ويمور في داخلي، ولكني لم أؤمن ذات يوم بأن يظهر عني ما ينبئ أنني مخلوق سام عن باقي الناس. أنا رجل بسيط يمشي في الأسواق ويأكل مما يأكل الناس ويلبس مثلهم أو أقل منهم، فما الذي يُميّزني؟ لم يقل هذا أحد قبل الطرابلسي. أعود لنفسي وهو لا يزال يحملق في وجهي، أنا حقا أحلم برحيل طويل أعرف فيه الناس والدنيا وأتعلم الصبر والحكمة، وأسير على خطى السابقين من الأولياء والصالحين والأئمة، أحلم بالغادة الفاتنة التي تستحثني وراءها ولا تدعني أستريح أبدا، تلح علي بالعدو وراءها، إلى متى؟ إلى أين؟ الله أعلم، وما دامت تناديني فلن أتوقف، قلت له: يا صاحبي أنا لم أعرفك إلا منذ أسبوع أو أقل، كيف جازفت بثقتك فيّ، أم أنك تضعني موضع السلعة التي تشتريها، إن جاءت بربحها، فعلى الرحب والسعة، وإن كسدت وبارت، أتخلص منها. ما خرجت لتجارة، وما أسعى لبيع أو شراء

76- النسبة أو حصة المساهمة.

77- مول الشكارة، وزير المالية.

78- وزير الخارجية

79- الطبقة السائدة.

80- الملف: نوع من الثوب رفيع الجودة تخاط منه أصناف جيدة من الملابس الخارجية وأصل الكلمة من المدينة الإيطالية Amalfi .

أو سمسرة، خرجت لأجد نفسي، ولن أجدها إلا بالبحث عنها، أين ومتى؟! هذا ما لا أعلمه. ألم أقل لك إنك واحد من هؤلاء السالكين المتصوفين الذين يضيّعون حياتهم في مطاردة الخيالات والأوهام، بينما بمقدورهم أن يحصلوا على أعز ما في الدنيا لو أرادوا، قال لي ناصحا.[81]

طلع علينا فجر اليوم العاشر منذ خروجنا من فاس، ونحن في غبطة وسرور وأمان، نتنقل من قصر إلى قصر، ومن ساقية إلى خطارة، في ضيافة الأشراف متنعمين فكهين، نقضي النهار في التنزه والتمتع بآيات الجمال التي أنعم الله بها على هذه الأرض الطيبة المباركة، وأينما قيّلنا كان الطعام يأتينا، وفي المساء نؤوب إلى واحد من الأشراف الذي عُيّن لاستضافتنا، أرض كريمة وناس أجواد، كانوا يتسابقون على قرى الضيف. في الليل تطول المسامرات والمساجلات الشعرية واستظهار قصائد فحول الشعر الجاهلي والأموي والعباسي، وتجري الأحاديث في كل درب، مهموسة بين اثنين، وجهرية إذا زاد العدد عن ثلاثة أنفار. كانوا يُسلّون أنفسهم بالتبغ والشاي، من جهتي ما كنت محرّما للتبغ ولا مرخصا له[82]، غير ميّال حتى أربأ بنفسي عن التخرصات والأقاويل، وهي - كما كنت أريد أن أكون - قد تضُرّ بي أكثر مما تنفعني. عدنا إلى مكان القافلة لتفقد الأحوال ومعرفة ما جرى في غيبتنا. كان الأمر قد تقرر، فالرحيل نحو تنبكتو سيكون بعد يومين، وعلى من يهمه الأمر أن يدفع ما يُستحق عليه من أتاوات وصائر لصاحب الرْبيعة[83] بالقافلة وأن يتقدم للتقييد في كناش المسافرين. رب كريم وأرض مباركة، عندما كنت أفكر في الكيفية التي أحل بها مشكلة رحيلي

81- بياض أو انقطاع الحوار فجأة بين العبدي والطرابلسي، والذي قد يُفسر بضياع أوراق من المخطوطة، أو حذفها من طرف المؤلف...

82- من التآليف في هذا الباب كتاب محمد السوسي المغربي «كشف الغسق عن قلب دفق في التنبيه على تحريم دخان الورق» وكتاب محمد العربي الفاسي «سهم الإصابة في حكم طابة» وكتاب العالم الصوفي محمد التوزاني «الأدلة الشرعية على تحريم الدخان» (محمد سبيلا: المغرب في مواجهة الحداثة ص 60 – ط 1999 منشورات الزمن).

83- الربيعة: صندوق يُحفظ فيه المال.

مع القافلة، فالحمار لم يعد صالحا لرحلة الرمال وطول المسافات، والغرامة[84] الواجبة للدليل والحراس ومُؤنة[85] الرحلة... كنت أفكر في بيع الحمار وأن أضيف إلى ثمنه بعضا مما عندي لأبتاع مطيّة أريدها مختارة على النجابة[86] وتمام الخَلقَ وحُسن المنظر لا بعيرا مهزولا[87] رازما[88]، وقد أغراني بذلك وشوّقني إليه حيازتي للصرّة التي وهبتني إياها الشريفة وحسن القبول الذي ألقى به الناس كما شهد بذلك الطرابلسي.

كانت الراحلة[89] التي تمنيتها لنفسي ولهذا الترحال الطويل والتي تقاسمني الرفقة والصبر على الحر والجوع والعطش منتصبة أمامي كأنها كبش إبراهيم الذي أنعم به الله عليه عندما هم بذبح ولده إسماعيل. وكان الطرابلسي بجانبي، عندما رأى اختلاج يدي وتصلّب رجلي وذهولي في حضرتها، صاح فرحا، هذه راحلتك المباركة أيها العبدي، ألا تراها في انتظارك؟! ولا أحد من خلق الله اقترب منها، حملقت فيه بعينين مذعورتين خشية وطمعا، وهل عندي مهرها؟ قلت، بادرني بجواب سريع، لا تقلق، إن ربك كريم، أنا في الذمة، لندخل الفصال[90] على بركة الله، قايضته بالحمار وأثواب وخاتم فضي بفص كبير أسود كأنه الحجر الأسعد وفوق كل ذلك مبلغ من المال لم يبق فيه من صرّتي إلا النزر القليل من الريالات. دس الطرابلسي في يدي صرة مال أبيت أن آخذها، لكنه أصر قائلا: هذا نصيبي في الناقة، وأنا أغريتك بشرائها فعلي العون على ذلك، هذا رزق قاده الله إليك، فتوكل عليه. شكرته وحمدت الله أن وضعه على طريقي. سوّيت أموري مع الدليل والحرس وأمّنت على الناقة وعلفها ثم قفلت راجعا إلى

84- الغرامة: التعويض.

85- المؤنة: كفاية الشخص من المواد الغذائية وغيرها.

86- النجابة: كرم الحسب، ناقة نجيب ونجيبة: الفاضل النفيس في نوعه.

87- مهزولا: من الهزال، الضعف.

88- رازما: الذي لا يتحرك هُزلا.

89- الراحلة من الإبل: القوي منها على الأحمال والأسفار للذكر والأنثى.
تقدم لوحة الرسام John Frederick Lewis (المدرسة الإنجليزية) تعلق الفنان الأوربي بسحر الشرق والصحراء، ففي لوحته «توقف في الصحراء» الموقعة بتاريخ 1855 (36.8 x 49.8 cm) يقدم جمالية العالم الصحراوي الذي تشكل فيه الإبل بعدا استيطيقيا مركزيا، إذ يحكى عنه أن لا شيء أحب إلى قلبه من امتطاء ظهر جمل في الصحراء. (Les Orientalistes.. op.cit. p.70).

90 - الفصال: المساومة.

خيمتي، توضأت وصليت ركعتين حمدا وشكرا لله العلي القدير. عندما قمت من صلاتي، كان الحرطاني واقفا على رأسي، ذعرت، لولا ما تعرفت عليه من ملامحه لظننته يريد بي سوءا. قلت ماذا جاء بك؟ قال: مولاتي الشريفة تريدك في الحال. قلت: إنه وقت الغذاء. قال: تريدك الآن، وصمت. قلت: انتظرني حتى أغيّر ثيابي. كان غبار سوق البهائم والروث والبعر قد علقت بلباسي وتسربت روائحها إلي بدني،ولا يصح أن يقابل رجل امرأة وخاصة الشريفة بثياب كهذه. لبست وتعطرت ثم سرت وراءه. لم يستأذن الخادمة، ولم أجد أحدا أمام باب الخيمة، دخلت توا إلى الغرفة الشبيهة ب َلفْصِيلْ[91]. ما كدت أقتعد مكاني حتى بادرتني بالتحية والسلام، كان لباسها زاهيا محتشما، لكن النقاب يشف قليلا كما يشف السحاب الخفيف عن وجه القمر، ثم قالت معاتبة لائمة، كيف تشتري ناقة ولا تُخبرني بنيتك؟ ثم كيف تغيب عن الريصان هذه المدة دون أن تعطينا خبرا؟ فوجئت بها وبسؤالاتها، أصابني العيّ فلم أقدر على الرد، ولا حتى أن أقوم في وجهها مستنكرا، فبأي حق يحق لها ذلك؟ لكن البراءة التي تقطر من كلماتها أخمدت ثورتي وهيجاني، فبدوت أمام نفسي وأمامها كالطفل الذي يخفض رأسه ويُنكسه أمام تقريع والدته. هل تحن عليّ كالوالدة، شبه أو اشتباه بينهما طمأنني على صدق طويتها. لو أخبرتني - قالت - لكنت كلفت رجالي وشهبندر[92] السوق بأن يختار لك أنفس ما في سوق الإبل، قلت باستحياء: أنا لك من الشاكرين الذاكرين لفضلك ومَنّك، من طبعي ألا أثقل على معارفي وأحبابي بأن أشغلهم عما هم فيه بمشاكل هيّنة من هذا القبيل. قالت: ولكنك تحتاج إلى صاحب خبرة ومعرفة بالإبل وصفاتها، فهذا ميدان له رجاله ومعلموه. الحمد لله، من نقل إليّ خبرك، طمأنني بأنك اشتريت ناقة من أجود ما في السوق. أنت رجل مبروك، لن يقدر أحد على خداعك أو النصب عليك، فيك من البركة ما يمنعه ويصد شره. قلت: حاشا لله ما أنا إلا بشر، ومن أضعف خلق الله، لا قوة ولا مال ولا جاه، ردت كأنها تستظهر ما حفظت، في الحياة أمور أخرى لا يمنحها الله إلا لمن أحبهم واصطفاهم لأمر لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا جبروت، ألا ترى أن كل من أحبه الله أفقره ويتّمه، كل الأنبياء والرسل والصالحين ساروا على

91- لفصيل: المدخل في الدار التقليدية وغالبا ما يكون بينه وبين ساحة الدار أو غرفها باب.

92- شهبندر: شهبندر التجار، رئيسهم أو الأمين.

هذا الدرب، فطوبى لمن أحبه الله. قلت بحياء مشوب بخوف من إطراء المرأة، فهي إن رفعتك إلى الأعلى، فانتظر الهاوية التي ستلقيك في جوفها، لا أظن أنني منهم، فمازال بيني وبينهم ما بين السماء والأرض، قالت بقطع ودلال: هذا الموضوع سيكون حديثنا طوال الرحلة، وليكن في علمك أنك راحل معي إلى «جيني»، قلت بسرعة المتفاجئ: لا يمكنني ذلك، أرغب في مواصلة الطريق، قالت بصوت العالمة المطلعة الخبيرة: لن تجد قافلة في هذا الوقت من الزمن، ونحن على أبواب فصل الصيف، إن لم يحل قبل وصولنا إلى "جيني"، السفر في الصيف كالسير في جهنم، فصل الشتاء هو الذي يوافق القوافل الذاهبة إلى بلاد النوبة ومصر والحجاز، قلت مستسلما: ليفعل الله خيرا. مدت يدها بصرة مال، رفضتها بإباء ونخوة، لكنها أصرت قائلة: ثمن العلاج والشفاء، بفضلك عادلي النوم العميق، ثم لا تنس أنني في حاجة إلى طبك ومعارفك في الأدوية والعقاقير، لقد عرفت سر مرضي، فلم يعد بمقدورك أن تتخلى عن مريضتك أو تمتنع عن مساعدتها وعلاجها. شكرتها وقمت مودعا، في الباب وجدت الحرطاني في انتظاري حاملا بين يديه طبلية طعام، سار بها يسبقني نحو الخيمة.

«وما أنسانيّه إلا الشيطان أن أذكره»[93]

ما نسيته ولم أنسه في قرارة نفسي، هو ما رأيته على كف الشريفة ولم أذكره أو أشرحه لها، خط الرأس لا يرتبط بخط الحياة، إذ يأتي منفردا معزولا عنه من حلمة المشتري وهذا يعني أن صاحبه أو صاحبته يتمتع أو تتمتع بالشجاعة والمجازفة، وعلى قدر ما ابتعد خط الرأس عن خط الحياة على قدر ما يكون الشخص ذكرا كان أو أنثى أكثر مجازفة ومخاطرة، وقد يكون صعب المراس في المعاملات مع الناس. ولا أدري أيكون ذلك مصدر قوة أم ضعف عند الشريفة، فذلك يختلف من فرد إلى آخر تبعا لما رُبيّ عليه، وعلى صحة أو اعتلال المكان الذي نشأ فيه هواء وشمسا وبردا[94].

---

93 - استأنف العبدي كلامه بجزء من الآية 63 من سورة الكهف، والآية كاملة هي «قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا» وهو استهلال استدراكي على ما فاته.

94- يردد العبدي في هذا الباب ما قاله ابن خلدون في مقدمته عن تأثير المناخ على طبائع الأفراد

تتميم..

بعد يومين من تملكي لناقة اعتقدت أنها ناقة صالح التي باركها الله ووضع فيها سرا من أسرار الألوهية التي يحرم على العباد العبث بها، اكتملت القافلة وأخذت عدتها لكل أمر كالزاد والماء والحبال والدلاء والقلل والقراب المحوّطة بالقطران والكثير من السلع التي ستباع في السودان، ملابس وحلي وبخور وخزف وخيول، كان على رأس «أكبار» دليل من شيوخ هذهِ الحنطة ودهاقنتها العُتاة، ومعه طقم من الأعوان والحراس، كل نفر أهل فيما أسند إليه. حدثني أحد التجار وكان قد سافر كثيرا تحت رياسة هذا الدليل، الذي لا يعرف له أحد إسما ولا لقبا، وإنما ينادونه بالشيخ أو الصحراوي، أو هما معا، فيقولون:الشيخ الصحراوي. إن كل من ركب راحلة في قافلة الصحراوي فهو آمن حتى يصل محله، فلم يته أو يقتل أو يجرح أحد سار تحت حمى الصحراوي، الحمد لله، هذه منّة من الله. قام المنادي يبلغ بأوامر الدليل، أن السير سيبدأ مع الفجر إلى الضحى، إذاك ستتوقف القافلة وتنصب الخيام إلى ما بعد الظهر ثم تستأنف الرحلة إلى ميقات العشاء. كنا في منتصف فصل الشتاء، وذلك أحسن الأوقات وأطيبها وأفضلها للسفر عبر الصحراء، كما حدّث الرحل وتجار القوافل، تفاديا للزوابع الرملية التي تُطمر الآبار، فيهلك الخلق من شدة العصف[95] والعطش.

استدراك..

توقفت أو قل انتهت المهمة التي كلفنيها التجار من فاس إلى سجلماسة منذ دخلنا هذه الأخيرة، وهي إمامة الصلاة، والحكم في ذلك أن ل»أكبار« ديوانا[96] لشؤون الدين والعدلية يتكون من إمام وعدول لتوثيق المعاملات والصكوك والفصل بين المتقاضين.

والجماعات، وهو أقرب المصادر إليه. (المقدمة – م س – من ص 67 إلى ص 74).

95- قوة العاصفة.

96- جهاز للقضاء والشؤون الدينية.

رجع..

على بركة الله خرجنا من سجلماسة بعد صلاة الفجر، وقد كانت مطايانا مجهزة ومتأهبة قبل أذان الصلاة. سرنا منحدرين غربا لنسلك طريق القوافل التجارية الذاهبة إلى تنبكتو عبر طريق تيغزة وتاودني. كانت أمامنا أيام هنيّة قبل أن نلج أتون الصحراء. قلدت خلالها الإخباريين والنسابين فتقصيت أخبار الصحراء وحواديثها[97] وأخلاق أهلها وطبائعهم ومعاشهم وعمرانهم، وكيف يحيون في هذه القفار ذات الحر الشديد، واجتمع لي من ذلك أوراق كثيرة، سأعمل بحول الله على مقابلتها بما أستطلعه بنفسي وخبرتي ومعاملاتي مع هذه الأقوام بالمعاينة والتقصي وربط الأسباب بالعلل حتى يجتمع لي من ذلك قدر من المعرفة عيانيا وإخباريا لآخذ ما صح عندي عقلا وطابق واقع الحال. لم يبخل علي الدليل وأعوانه وبعض التجار المداومين على الترحال بما يعرفونه وما خبروه، ربما تزايدوا قليلا حتى يبدون عارفين بكل شيء حين رأوني أدون كل ما يروون وأسند الحديث إلى أسمائهم وألقابهم. طيلة سبعة أيام ونحن نسير للوصول إلى «تاكونيت» بوابة الصحراء، والحق أن المسافة بين سجلماسة وآخر عمارة قبل الدخول إلى الصحراء لا تفوق ستين ومائتي ميل، قضينا خلالها أياما سعيدة في التنقل من ربع حسن إلى ربع أحسن منه، مررنا بتمرزيت والنيف وتازارين وزاكورة وتامكروت وزاويتها الشهيرة وصولا إلى «تاكونيت». وكم أبهجنا هذا الوادي الخصيب الذي يحاذي نهر درعة الكبير وهو يتجه إلى عمق الصحراء ليدفن نفسه غرقا في رمالها الساخنة تاركا وراءه جنائن النخيل والقصور والزوايا والمساجد والحصون والآثار المنتشرة على طول الطريق المنحدر مع الوادي حتى باب الصحراء. لا أعلم لماذا رأيتني أخرج من الجنة لأدخل إلى الجحيم، فها أنذا أتخلى عن السواقي والخطارات والتمور الطيبة اللذيذة وألبان النوق والماعز لأرمي بنفسي في تنور الحرِ والعطش، إن الله خلق لنا في هذه الدنيا أمثلة مما سنقابله في الآخرة. في «تامكروت» اتصلت ببعض الفقهاء والطَلبة وتذاكرنا في أمور الدين والعلم وأحوال زماننا هذا. قضيت معهم وقتا طيبا أطلعوني خلاله على عدد كبير من الكتب المنسوخة عندهم في شتى

97- حكايات.

العلوم كالفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة والتصوف وعلوم القرآن، لكن ما أثار فضولي إلحاحهم بأن يعرفوا مقصدي وغايتي من الرحلة والحج. أنكرت وأخفيت عنهم، الكثير مما أفكر فيه وأحلم به وأسعى إليه، فأنا لست ممن يفشي أسرار طويّته أمام أول سائل، ما لم أختبره وأعرف كنهه وأسبر غوره، كأنهم جالوا في رأسي، فأعرضوا عن كثرة السؤال والإلحاح فيه، ليذكّروني بما آلت إليه الأمة من ضعف ووهن حتى طمع فيها الأجناس من كل صوب وحدب، وأننا ولا ريب مقبلون على زمن أغبر تداس فيه كرامتنا ويُمتهن كبيرنا قبل صغيرنا، وأن غزو الجزائر واحتلالها وحرب تطاون واستيطانها وهزيمة إيسلي ومرارتها عِبَرٌ جليّة لمن يعتبر، وأن الأمة في حاجة لمن يبعث فيها روح الحياة ويوقظ همم أبنائها بالدعوة إلى الجهاد ضد الغزاة ونبذ التفرقة والعصبية البغيضة ومحاربة البدع والانحلال وجميع الموبقات التي أدخلها الأجناس معهم. لمّا كنت صامتا أسمع فقط، التفت إلي أحدهم وقال: أنت لست مجرد فقيه أو طالب علم مثلنا، أنت ممن تعلم بجامع القرويين وعاش بحاضرة المُلك، مسافر الآن إلى مهد النبوة والإسلام، إياك أن تنس أنك تركت ببلاد المغرب أهلا وأحبة وبلدا في حاجة إليك. ليفعل الله خيرا، قلت، ثم زدت فقلت: الأرض تمور تحت أقدامنا، فمن الحماقة أن نبحر في الظلام ونحن لا نعلم الوجهة ولا مسار الرياح. لقد تكالبت علينا الأجناس وطمع فينا الطامعون، واكتفى فقهاؤنا بالتحريم والترخيص والرد، بعضا على بعض، نقدا وتعقيبا وحاشية ونظما في الأراجيز[98]، ومُنع درس العلوم العقلية والخيمياء والطبابة الأورباوية[99] وفُتّحت الأبواب وشُرعت على وسعها للشعوذة والدجل والموبقات والمسكرت والدعارة والزنا. ولا من ناه ولا مُنته، والكل غافل ساه. نحن الطلبة والفقهاء نعرف حدود الله، ولكننا ـ فيما بيننا ـ

98- الأرجوزة: نظم تعليمي على بحر الرجز، غايته الحفظ والاستظهار (الفقه، الأصول، النحو).

99- «وأما استعمال أدوية الكفرة وأشربتهم فإن ذلك مما لا ينبغي لما عسى أن يقع من غشهم من استعمال بعض السموم القاتلة في الأدوية... فيجب تجنب دوائهم... إن كان المريض امرأة مسلمة تمتع عدو الله الكافر بالنظر إليها وجسها سيما مع فقد الضرورة الداعية لمباشرة الكافر لوجود المسلم وذلك بعيد عن الغيرة الإسلامية» د. أحمد المكاوي: الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب، ص 100-28، ط 2009 منشورات الزمن، الدار البيضاء.

بشر مثل جميع خلق الله، نأكل ونشرب ونمشي في الأسواق ونرغب في حظنا من خيرات الدنيا، بالحلال طبعا. وأنتم تعلمون أن الأمر شاق وعسير، يحتاج إلى عصبية ومال وقوة وطول مِراس وحكمة رياسة، فلا تستعجلوا أمركم، السنوات القادمات حاسمات، إما أن يفرجها الله عنا وعن جميع المسلمين، وإما أن تزداد سوء ليبتلينا الله بلاء حسنا، يكون بعده صلاحنا وفلاحنا.. آمين، قالوا جميعا. تكلم أحد الطلبة وكان أسمر اللون، على فمه ابتسامة دائمة كأنها خُلقت معه: عندما رأيناك ثم جالسناك وسمعنا منك وسمعت منا، أكبرناك وعظمناك، وقال كل واحد منا ـ ولو في خاطره ـ لا يمكن أن يسافر مثل هذا إلى الحج عن طريق القوافل الصحراوية دون أن يكون داعية من الدعاة التقاة، فما مر أحد في مثل موكبك إلا كانت وراءه رسالة أو دعوة، هذا الطريق لا يعبره إلا السالكون الواصلون الباحثون عن الحق، لذلك ناقشناك وجادلناك فيما يؤرقنا من أحوال الأمة وما آلت إليه أمور ديننا ومعاشنا ومدننا وحكامنا ورعيتنا، آملين أن نجد عندك جوابا شافيا لهمومنا. تزحزح في مكانه، الطالب الفقيه الذي حدثني أول كلامنا، والذي كانت تبدو عليه أمارات الرياسة في هذه المدرسة، نسيت اسمه، طول المسافة والوقت أنسانيه[100]، وقال: لست بالغريب لنخافك، ولست بالعدو لنخشاك، أنت عضو من جسم الفقهاء وطلبة العلم، إن لم تكن معنا فلست ضدنا. لا نخفيك سرا أننا عازمون على جمع شملنا وتوحيد كلمتنا في رابطة تلمُّنا ولا تفرقنا، جماعة أو إخوانية ترص الصفوف وتقوي العزائم وتعمل من أجل نصرة الدين والبلاد وفك أسر العباد من الرق والعبودية والفقر والأمية ومحاربة النصارى الكفرة وطردهم من دار السلم والإسلام. لقد سمعنا بجماعات الشرق وروى لنا الكثيرون ممن مروا من هنا ما يعيشه المشرق من حركة تجديد ونهضة وتنوير للأذهان والألباب، فإن كنت مسافرا رافقتك السلامة، وإن كنت مستقرا، فانضم إلينا، نقوى بك وتعلو بنا... أدعو لكم بالتوفيق والسداد، هجرتي إلى الله ورسوله، وعندما أنتهي منها ـ إن عدت سالما ـ سأراكم بحول الله وسيكون لنا كلام آخر. أما ما تريدون عمله فما زال بيني وبينه صحراء قفار وأقوام

100- يبدو من خلال هذه الجملة أن العبدي كتب هذا الجزء ـ على الأقل ـ بعد زمن ليس بالقصير أنساه تذكر اسم الفقيه – الطالب الذي جالسه بمدرسة تامكروت.

وحج، لا بد أن أجتازها لأصل إليكم، ثم إن المصلحة الوقتية[101] تقتضي منا عدم التعجيل وأخذ الحذر والحيطة مخافة الزيغ والزلل «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون» صدق الله العظيم.

بعد يومين من هذا الجمع المبارك الذي جالست فيه إخواننا المرابطين على تخوم الصحراء وقلوبهم تتفطر على حال الأمة وما يطرأ علينا وعلى بلادنا من الشؤون والمخترعات الوقتية[102] التي حيّرت الألباب وألهمت العقلاء طريق الصواب وتجنب الزلل والزيغ بما فيه خير المصالح المرسلة، لكنهم أفتوا بتحريم كل جديد بديع كالبارود والطبنجية[103]والصابون والشمع والخياطة[104] والمطبعة[105]والسكر والآلات الموسيقية والأعشاب المرقّدة والمسكرات وحلق اللحية والتزيين والورق النقدي والتجارة مع الأورباويين، وغيره كثير. كان حديث الإخوان يشق على نفس كل أبيّ غيور كريم، فما بالك إن كان من الذين أخذوا على أنفسهم عهد الله بأن ينصروه ويُعلو كلمته. فكرت كثيرا فيما قالوه، وربما هذه هي المرة الأولى التي أجابه فيها فتية صالحين أنذروا أنفسهم للدين والعدل والكرامة، وكانوا أكثر تشددا فيما هم عليه بخلاف طلبة فاس ومن عرفت من مدن الشمال، فقد كانوا أكثر لينا ولطفا، بل تركوا أمرهم لأولياء أمورهم، كأن الأمر لا يعنيهم، وليسوا حملة للقرآن وجندا لله.

عاودتني فكرتي القديمة التي كنت أرددها مرارا وتكرارا، وهي أن كثرة التحريم طريق للخمول والجمود والتقاعس، فكل أمر عجزنا عن مجابهته وتحديه أو لم نقدر عليه حرمناه ومنعنا الناس عنه، وكم حاجة قضيناها بتحريمها، وكانت هذه الفكرة تتشعب إلى فكرة مؤرقة جالبة للغم والهم والصداع: لماذا

101- الظرفية الحالية، الإكراهات، الشروط الموضوعية...

102- المخترعات الحديثة.

103- جنود المدفعية.

104- وضع محمد بن جعفر الكتاني تأليفا صغيرا بعنوان «حكم صابون الشرف...» (أنظر الهامش 24 من فصل «كتاب الخروج «من هذه الرواية.)

105- أفتى الفقيه محمد بن إبراهيم السبعي من مراكش بتحريم المطبعة لأنها يمكن أن تشكل في نظره «خطرا على التعليم الشفوي وحفظ القرآن» (محمد سبيلا م.س ص 21) كما ألف الفقيه احمد بن عبد الملك العلوي تأليفا عن «تحريم السكر» المستورد من أوربا وقال إنه لا يقبل شهادة من يشربه (محمد سبيلا م.س ص 20).

تأخرنا وتقدم غيرنا؟ حتى عندما جاءت فكرة «حرب النظام[106]» وأضحت شغلنا الشاغل، وأصبح واجبا أن نعد لهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل نرهب به عدونا وعدو الله، لكن إيسلي وتطاون أرهبتا القاعدين المتقاعسين بما تجهز به العدو الكافر من سلاح وعتاد وقوة وما أظهره من فنون الحرب والمناورة. ليس بوزير الحرب أو وزير البحر[107] أو العلاف الكبير[108] تُقاد الأمم إلى الترقي والرفعة والسؤدد، تلزمنا لذلك أمة يعرف أهلها الواجبات والحدود والحقوق، والمطلوب منا في وقتنا هذا أن نعلمه ونعمله لنكون على قدر المصلحة الوقتية التي يتطلبها منا واقع الحال وإلا ذهبت ريحنا وانقضى أمرنا كما وقع للأمم الغابرة من عاد وثمود وسبأ وآل فرعون، أن نعمل على جمع الشمل على كلمة واحدة، وإن كان لابد من إقامة حرب النظام، وهو أمر لا نشك في صحة سداده ونجاعته، فيلزمنا إسناده ودعمه بنظام الأمة، والمقصود به استنهاض الهمم وبعث الحماسة في دمائها وخلقها من جديد في شكل جماعة قوية من العلماء والفقهاء والمتنورين من الرعية والحرفيين والتجار والفلاحين في كل صقع من بلاد المغرب ليشحذوا في أهل المغرب كل ما يمت بصلة للجهاد والذوذ عن البلاد وتقديم المنفعة العامة قبل الخاصة وتعليم الناس أمور دينهم على الوجه الصحيح كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية ونبذ كل أشكال الدجل

106- تحديث الجيش المخزني على إثر الهزائم العسكرية التي شكلت «صدمة الحداثة» بين جيشين: أحدهما يحارب بالصفوف والاستيلاء على الأرض شبرا شبر، وآخر يعتمد الكر والفر والسلب والنهب (معركة إيسلي – حرب تطاون – احتلال الجزائر...). قامت الدولة المغربية باستفتاء الفقهاء حول مسألة تحديث الجيش، وكان الجواب بالإجماع، أي تنظيمه واستعمال الآلات الحديثة. كما توجهت في هذه الفترة (1890 – 1860) ثماني بعثات سفارية تضم 350 فردا إلى أروبا، وتوجهت ست بعثات إلى مصر، ورغم هذا الحماس في الإجماع على تحديث الجيش الذي أظهرته النخبة المخزنية، فإن الفقهاء لم يتخلوا عن دورهم في تقييم التقنيات والآليات العسكرية من زاوية الشرع، محمد بن عبد القادر الكردودي، وهو من أكثر المتحمسين لتحديث الجيش، يقول في كتابه «كشف الغمّة في أن حرب النظام واجبة على هذه الأمة» بأن استخدام المدافع ورمي العدو بها جائز شرعا، بالرغم من أنه بدعة محدثة لم يكن معمولا بها في عهد النبي(ص)، لأن الرمي بها يدخل في إطار الرمي بالسهام. (أنظر الناصري م.س ص 80 وما بعدها ج 9).

107- وزير الخارجية.

108- لقب من ألقاب وزير الحرب.

والشعوذة والاحتيال بغية الوصول إلى منافع خاصة. هذا هو المطلوب في وقتنا والمستفاد من تجارب الأمم السابقة واللاحقة، وها هي الأخبار تأتينا من المشرق ونتسقط غيرها من الرحالة الجوالين عن حركة الاستنهاض التي أخذت تشب في بلاد مصر بعد خروج الفرنسيس ومجيء محمد علي الكبير، وها هي السفاريات إلى أروبا تأتينا بأخبار أجناس الفرنسيس والطليان والصبنيول وما وصلوا إليه من رفعة وازدهار وما يبيتونه لأمة الإسلام وغيرها من الأمم التي لازالت تعيش على ماضيها متناسية وغافلة عن ضرورة المصلحة الوقتية التي يمكن إلحاقها بما أسماه الفقهاء وكتاب الآداب السلطانية بالضرورات الخمس وهي الدينِ والعرض والنفس والعقل والمال. والكلام في هذا يطول وسأعود إليه بعد أن أفْرغ له، وإن فسح الله في العمر سنترك الإلغاز عن الحق لنكتب بقول أشد قوة وأكثر تفصيلا. الليلة ليلة الرحيل، ومع الفجر سينطلق ركبنا إن شاء الله، زارتني في خيمتي جماعة صغيرة من طلبة تامكَروت محمّلين ببعض الهدايا من طعام جاف صالح لمثل هذه الرحلة الصحراوية وتمر وأعشاب عطرية وطبية مما يندر العثور عليه بسهولة مقطّرة في قوارير. سألتهم كثيرا عن وصفها وفعلها وشدتها والأحوال التي يُداوى فيها بمحتوياتها ومقادير ذلك ومواقيتها، ودونت ذلك كله في تذكرة خاصة بالأدوية والأعشاب والسموم وكيفية التداوي. أريتهم أنا بدوري بعض ما تتضمنه تذكرتي الطبية، فأعجبوا به. وهبوني قلّة من العسل الحر المستخرج من الأعشاب الطبية الصحراوية، نفعه كبير في التداوي من بعض الأدواء. زودوني أيضا - كثّر الله خيرهم - بكمية من الورق والسمخ الشديد السواد والذي لا ينمحي أثره إلا إذا تعرض لتلف مقصود أو سقط في بركة أو سيل ماء. ودعتهم كأني أعرفهم من زمن بعيد، وكان وقع توديعهم كتوديعي لإخوانهم بفاس، نحن الطلبة تجمعنا آصرة الحزن والتعلق بالأحلام، فنرى أنفسنا في بعضنا البعض كانجذاب التوأم لشقيقه. أمضيت ليلتي مسّهدا متفكرا في حالي وما أنا عليه من تشوش وحيرة واضطراب وساد، إلى أين أنا ماض؟ وماذا أصنع بنفسي؟ ألا يكون في هذا هلاكي وأنا لم أدرك من الدنيا إلا الشقاء والفقر وقلة ذات اليد، لماذا لا أعود إلى أسفي وباديتها عبدة واحمر لأعمل هناك على الوعظ والإرشاد وتعليم الصبيان وتحفيظ القرآن، وأشارك في أمور الفلاحة

والزراعة وأبتعد عن المهمات من الأمور[109]، في رأسي علم القرويين، وفي يدي حرف كثيرة، الخياطة والمداواة بالأعشاب وغيرها واستخراج زيت الزيتون. أم أنا رجل مخاطر يركب الأهوال ولا يُبالي، ما يقلقني أنني لم أتلق أية إشارة أو علامة طريق أو نجمة هادية إلى ما أنا سائر إليه، هل أواصل الطريق أم أنكص على عقبيّ مرتدا؟ باستثناء الشريفة، لعلها تكون الإشارة المرتقب، لا شيء يلمع في الأفق، قد تكون علامة من صُوى الطريق، لكنني مذ خرجنا من سجلماسة لم أر لها أثر أو أسمع عنها خبرا.

بعد صلاة الفجر انطلقنا ببطء شديد، فقد تعذر على البعض ممن كثرت أحمالهم وتعددت مطاياهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد، فكان المسير كما ضبطه الدليل متباطئا حتى يلحق بنا الآخرون المتأخرون. بعد ثلاثة أميال أو أربعة لحقوا بنا فانطلقنا حثيثا لنصل بوابة الصحراء قبل حلول الظلام، إذ أقل من خمسين ميلا هي التي تفصلنا عن زاوية «أولاد ادريس». بعد الضحى بقليل أنخنا على بعد بضعة أميال من تاكَونيت جوار قصور مبنية بالحجر المنحوت والطين، والسقوف كلها من جذوع النخل والخشب، وحولها بساتين النخيل ذات الثمار الطيبة، ومنها قصور بني صبيح وبعض اليِهود كقصر بني حيون. عندما قعدت لأتناول طعامي، تذكرت طلبة زاوية تامكَروت، إذ كانت مائدتي من فضلِهم، وتمنيت لو كان معي واحد منهم رفيقا في هذه الرحلة أشد به أزري وأسْلمه نفسي. صلّينا الظهر والعصر جماعة تقصيرا وجمعا ثم انطلقنا نحو زاوية «أولاد ادريس» آخر الواحات الخضراء المزدانة بالتمور.

استدراك على ما فات..

راودني خاطر يقول لي إن ما منع الشريفة أن ترسل لي خادمها وأن تدعوني إلى خيمتها أننا كنا في أواسط شهر محرم الخير، والقمر المنير يضيءِ كون الصحراء كأننا في ساعة الضحى، ثم انصرافي إلى رفقة طلبة زاوية تامكَروت والمبيت عندهم، وربما أشغالها ـ من جهتها ـ بأمور التجارة، فلها أموال في القافلة،

109- المهمات من الأمور: الشدائد المحرقة.

وعندها من يقوم لها بترويجها بيعا وشراء. كنت على يقين أنها ستدعوني في مستقبل الأيام، ولكن ليطمئن قلبي من الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنّة والناس أستعجل دعوتها.

رجع..

حطت رحالنا وسط الواحات الخضراء وأشجار النخيل السامقة كالمآذن في هذا البراح الفسيح، كان سواد الليل يزداد دكنة ونحن على ضوء المشاعل والفوانيس نبني خيامنا بجد وحماس رغم تعب طول الطريق وشدة الحر الذي أخذ منا كل قوة ونشاط، أوقدت النيران على شكل كوانين كبيرة عمت دواوير[110] أكبار، وأذن للصلاة. بعد الفروغ من صلاة العشاء، خطب الإمام والدليل في الناس بما ينبغي علينا التزامه وفعله خلال عبور الصحراء، وشددوا على مسائل هامة كحفظ الماء وعدم التبذير فيه، وكذلك الاقتصاد في الطعام، والتزام غطاء الرأس بثوب أبيض ووضع اللثام عند اندلاع العاصفة وتقديم العون لمن هو في حاجة إليه وإعلام الدليل أو أحد أعوانه بكل ما يطرأ خلال الطريق من حوادث كمرض أحدكم أو إصابة بضرر أو فقدان نفر من القافلة، وإذا قلّ الماء جاز التيمم دفعا للضرر وابتغاء المنفعة، وغير هذا مما سأل القوم عنه فأجابا بما يعرفان. عدت إلى خيمتي وأنا أحاور نفسي حول أيسر سبيل أهيئ به عشائي، فقد نال مني تعب الطريق، سبحان الله العظيم، وجدت خادم الشريفة ينتظر عند مدخل الدوار. سلّم عليّ وقدم قفة طعام وقال: الشريفة تسأل عنك وتبلغك سلامها وتطلب لك السلامة والنجاة، وتوصيني أن أقول لك بأن تطلب منها أي شيء احتجته ولا تتأخر في ذلك ولا تحجم ولا تخجل، فقد قالت لي أن أقول لك: إنك أصبحت واحدا منا، قلت للخادم: لا تريد مني شيئا آخر؟ قال: لا. تصبح على خير، قلت. ألقيت بجثتي على الفراش، كم يبدو وثيرا وناعما عندما يكون المرء في أقصى حدود العناء والتعب، وخيالي يلاعب طيف

110- تنقسم القافلة الكبيرة من نوع «أكبار» عند الاستقرار إلى عدة تجمعات صغيرة متجاورة ومتباعدة نسبيا عن بعضها في نفس الوقت، حسب القبائل أو المهن... تسمى دواوير (مفردها دوار).

الشريفة ويداعبها ثم يأخذه معها إلى غياهب الغيبوبة وفقدان الحس والإحساس بالدنيا وما فيها من بشر وحيوان وجماد. عندما استيقظت عند الفجر، كان القوم والذين صلوا منهم - على وجه الخصوص - صلاة العشاء الفائتة، قد لبسوا في نعالهم خطاب الإمام والدليل ومشوا به في «أكبار» بطولها وعرضها، فلم يكن من حديث ونحن نعد أنفسنا لصلاة الصبح وبعدها للرحيل، إلا ما قيل البارحة وما فرّخه الخوف في نفوس البعض من أن يتيهوا في الصحراء أو يمرض بعضهم فيُترك في الفلاة أو يموت بعضنا عطشا، وما هو إلا وقت قصير حتى تفرق أعوان الدليل والمحسوبون عليه لتهدئة الخواطر ودعوة القوم إلى أن يتبعوا نصائح الدليل وإرشاداته ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتبصيرهم بأن ما قيل إنما هو من باب الإخبار بما يجب علينا عمله وما لا يجب علينا اقترافه، وهذه ليست الرحلة الأولى للدليل ولا لأعوانه، فقد قاد عشرات الرحلات وفي ظروف أسو من الآن، إنما نوصيكم - يقول الدليل على لسان الأعوان - باتباع الأوامر والطاعة وعدم اتخاذ أي فعل بدون إذن واستئذان وعدم الخروج عما أجمع القوم عليه عقب صلاة العشاء، وبه وجب الإعلام والسلام. كأنهم حفظوا ما قالوا أو كأن هذا الأمر قد سبق أن وقع من قبل.

خرجنا بعد صلاة الصبح بقليل ونسمات الصباح تنعش أنفسنا بهواء نقي يملأ الصدر بالصحة والعافية، سرنا مسافة بضعة أميال أخذت تغيب معها وراء ظهورنا معالم الخضرة وقامات النخيل السامقة، ولم يعد حولنا من كل جانب إلا كون من الرمال. لم يكن لي سابق عهد بهذا المنظر، وكلما توغلنا نحو الجنوب باتجاه مقصدنا، كلما تراءى لي بأن الله ما خلق الصحراء عبثا وتسلية، وإنما لأمر عظيم، أطلب منه تعالى أن يكشفه لي. كنا نسير على خط القوافل التجارية التي تعبر الصحراء نحو بلاد السودان وتَنْبَكْتُو[111] وغيرها من بلاد إفريقيا، فهذا الطريق هو أكثر الطرق التجارية أمنا وسلاما، وقد عبره كل الرحالة الذين عبروا الصحراء كابن بطوطة الطنجي والحسن الوزان وهو كذلك طريق السلطان أحمد المنصور الذهبي والمولى إسماعيل، وطريق الذهب والملح، وهو طريق

111- هكذا جاءت في المخطوطة كتابة وشكلا، بينما يكتبها السودانيون والصحراويون «تنبكت» ويزيدون أحيانا الياء بعد التاء الأولى «تينبكت» (هامش 14 – الحسن الوزان. م.س. ص 165 . ج. 2) تكتب اليوم وتنطق «تومبكتو».

على سبيلين، أولهما من سجلماسة إلى تيغزة مرورا بصحراء شبه خلاء تتباعد فيها منابع الماء. والسبيل الثاني: الوصول إلى تيغزة عبر التوات وتامنتيت ثم التوجه إلى «تنبكتو»، وهو الطريق الذي اختاره الدليل. مررنا بقرى متناثرة، جميع من بها من البرابر، قليلة النبات، كثيرة الحجارة، طريقها وعر وصلب، وبعض أرضها رمال سباخ[112]، وثمرها دون ثمر سجلماسة جودة وطعما، لكن أهلها يفضلونه على غيره، وليس بها زرع ولا زيت، وإنما كل ما يحتاجه أهلها يأتيهم من بلاد المغرب. باع تجار القافلة بعضا مما عندهم، وغرموا[113] أثوابا وسواها لأحد كبراء البرابر، وهم عامة لا يغيرون على القوافل ولا يعترضونها إلا أيام الجوائح والمجاعات والحروب، ومن توات إلى تامنتيت كنا نلقى الترحاب من أهل الصحراء، وكنا أحيانا نسير خمسة عشر يوما في برية لا عمار بها ولا منبع ماء ولا نبتة، وقد اشتد علينا الأمر عند توغلنا أكثر في الصحراء، حيث الرمال الساخنة والكثبان المتحركة كالأطياف والأشباح، لا يؤتمن لها موقع ولا مكان، فقد تغفو ثم تُصبح فلا تجد الكثيب الذي بجانبه أنخت ناقتك وأقمت خيمتك، جفاف ووعورة وصهد بالنهار، وقر قارس بالليل. كنا نسير جنوبا إلى أرض السودان عند مملكة تنبكتو، فلا نجد ماء على مسافة مائة ميل وأحيانا أخرى على مائتي ميل، ومرات عديدة لا نصادف إلا آبارا مالحة وعلى غور عميق، ناهيك عن الوحوش والحيات. غير أن المكان الذي تشهدت فيه على روحي وأقمت عزائي، وأعتقد أن الجميع فعل مثل صنيعي، بل منهم من أعلن ذلك جهارا صُراحا، هو الفلاة الوعرة الموحشة التي لم نسلكها إلا بمشقة كبيرة كأنها برزخ النجاة يوم القيامة، وهي الفاصلة بين تاودني وعروان، بين بئر ماؤه أجاج وبئر ماؤه عذب شروب، والتي يُقدر طول مسافتها بأكثر من مائتي ميل، يموت فيها خلق كثير بسبب الحر والعطش، وأما تغزة[114] التي توقعت أن أجد فيها ملاذا

112- سباخ: ج سبخة: أرض ملح.

113- الغرامة: التعويض، ما يُلزم أداؤه من المال وغيره عن كُره، والذعيرة تدفع من قبل الأفراد والجماعة.

114- «تغزة مكان مأهول، فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام. يستخرج من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج الملح، وليسوا من سكان البلدة، بل هم من أصل أجنبي، يأتون مع القوافل ويقيمون هنا كمنجميين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتريه منهم. ومن هنا يحمل إلى تمبكتو التي يعوزها الملح كثيرا، يحمل

بعد طول عناء، وهي واسطة العقد في الرحلة من سجلماسة إلى تنبكتو، فإذا هي قرية لا حياة ولا خير فيها، بيوتها ومسجدها من ألواح الملح المنحوتة، لا شجر ولا نبات، ماؤها زُعاق[115]، ومن قسوة الصحراء علينا وسخطها أن الماء يُرفع من هنا لدخول المفازة التي بعدها، وهي مسيرة طويلة[116] لا ماء فيها إلا في النادر من الأحوال، كأن تجد غدرانا أبقاها مطر أو رعدة عابرة. ومن شدة الأمر علينا، تقدم أمام القافلة بعضنا، فإن وجدوا مكانا للرعي رعوا دوابهم، واستمروا على ذلك الحال حتى ضاع منهم رجل في الصحراء فكفوا عن ذلك. وتأخر يوما رجل عن الرفقة ـ ربما لقضاء حاجة ـ فضلّ، فلما نزل القوم للبحث عنه، لم يظهر له أثر ولم يسمع عنه بعد ذلك خبر. وقد وجدنا في طريقنا رجلا ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل، انقطع ربما عن قافلة كانت أمامنا، والعجيب في الأمر أن الماء كان قريبا منه على نحو ميل واحد فقط، حيث نزلنا بأرض سحاء[117] تحط بها القوافل رِحالها فأقمنا بها ثلاثة أيام، استرحنا وغسلنا ثيابنا وملأنا قِرابنا بالماء، وفي فجر اليومِ الرابع توكلنا على الله. ومما رأيت في القافلة من أَمور، أمر «التكشيف» وهو إسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة ليتقدم أمامها عندما تُصبح على مسيرة بضعة أيام من قرية أو عمارة، ليكتري الدور، فيخرج أهلها للقائهم بالماء، وربما هلك «التكشيف» في هذه الصحراء، فلا يعلم به أحد من القافلة، فيهلك اهلها او الكثير منهم. وهده الصحراء كثيرة الشياطين

كل جمل أربع قطع من الملح. وليس للعاملين في ملح تغزة قوت إلا ما يحمل إليهم من تمبكتو ودرعة، وكلاهما على مسيرة عشرين يوما من تغزة. وقد يموت أحيانا بعضهم جوعا في أكواخهم لفقد القوت بسبب عدم مجيء القافلة. بالإضافة إلى الريح الشرقية التي تهب في الصيف فتفسد أعينهم، ويفقد الكثير منهم أبصارهم. أقمت مرة في تغزة ثلاثة أيام ريثما يحمل الملح، واضطرت أثناء ذلك إلى شرب الماء المالح من بعض الآبار القريبة من المنجم». (الحسن الوزان: م.س – ص 108 ج 2.)

115- الزُعاق: الماء المر لا يُطاق شربه، وأَزعَق القدر: كثَّر ملحها.

116- لوحة زيتية للرسام الاستشراقي (1824 – 1904) Jean-Léon Gérome بعنوان «مسيرة في الصحراء (42.2 x cm56) لندن، يبرز فيها بشكل مقطعي أفقي دليل القافلة وبعض أعوانه المقربين وعلى مقربة منهم وأمامهم بقليل يسير أعوان آخرون على أقدامهم وقد أشهروا أسلحتهم، وفي عمق اللوحة أهل القافلة على جمالهم وقد ارتدوا ألبسة بيضاء، ويشكل ضوء اللوحة شمسا حارقة،

(Les Orientalistes : op.cite.p. 113).

117- سحاء: دائمة الصب.

كما حكى لي البعض ممن سلكها من قبل، إذا كان «التكشيف» منفردا، استهوته ولعبت به حتى يضل عن قصده فيهلك في الصحراء التي لا طريق بها يظهر ولا أثر يدوم، إن هي إلا رمال تسفيها الرياح، فترى الجبال من الرمل تتنقل من مكان إلى آخر في غمضة عين.

تذكير واستدراك..

عندما دخلنا المفازة الشديدة الحر بعد خروجنا بأيام قليلة من تامنتيت، كنا نقوم للرحيل بعد صلاة العصر، ونسري الليل كله وننزل عند الصباح.

رجع..

الحر والجفاف وندرة الماء وسواد البشرة وقلة الخضرة ليست وحدها علامات الصحراء، فإنها إذا أمطرت يوما فأينعت وأربت واخضرت جاءتها أسراب الجراد كثيفة كالسحاب تحجب السماء، ما مرت على بقعة خضراء إلا وتركتها صعيدا جرزا[118]، لا يلبث أن يفقص جرادا قصيرا بدون أجنحة يعتلي الأغصان والأشجار فيجرّدها من قشورها ويتسبب بذلك في المجاعة. وانتقاما من الجراد، فإنهم يعتبرونه نعمة تنزل عليهم من السماء فيأكلونه مشويا أو مجفّفا بالشمس ويدخرون منه لأيام أخَر.

118- الجُرز: الأرض التي لا تنبت أو أُكل نباتها، اقتباسا من قوله تعالى «إنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا» سورة الكهف. الآية 7.

كتاب الذهب

بعد كل هذا العناء منّ الله علينا بالوصول سالمين ناجين إلى «تنبكتو»، وهي مدينة وحاضرة[119]، بناها الملك منسا سليمان عام ستمائة وعشر للهجرة[120]، على مسافة قريبة من نهر النيجر لا تتعدى أربعة فراسخ[121]. دور تنبكتو أكواخ مبنية بأعمدة مطلية بالطين ومسقوفة بالتبن، في وسط ساحتها مسجد مبني بالحجر والطين والجير وقصر كبير فخم يسكنه ملك تنبكتو، ودكاكين كثيرة للصناع والتجار والنساجين. نساء المدينة محتجبات، وبها عدة آبار، ماؤها عذب، كما يأتيها الماء أيضا من وادي النيجر عبر قنوات وخاصة عند فيضانه. للأهالي اشتغال بالحبوب والمواشي، لكن الملح قليل جدا، يأتيها من تغزة في قلب الصحراء والبعيدة بمئات الأميال عنها. هذه هي تنبكتو حاضرة الذهب وقبلة التجار والصاغة والسماسرة والأفاقين الوافدين من كل حدب وصوب والحالمين والطامعين من أهل المغرب خاصة حتى صارت مثلا سارت به الركبان وحدثت به الجدّات «الجْرَب دْواه القطرانْ، والجوع دْواه السودان»، من هؤلاء من استقر وأقام في البلاد للتجارة في الصادر والوارد، وقد أصبحت لهم مكانة في القصر وحظوة عند الملك بسبب غنائمهم وثرواتهم من المعدن النفيس وتجارتهم مع أوربا وبلاد المغرب. وقد رُوي لي أن بعض ملوك تنبكتو قديما قد زوج اثنتين من بناته لأخوين تاجرين غنيين من أهل المغرب. منذ اليوم

119- عاصمة.

120- الموافق للسنة الميلادية 1213.

121- الفرسخ (كلمة فارسية) يعادل نحو أربع كيلومترات.

الأول أحببت هذه المدينة، فهي بقدر ما هي غارقة في الذهب، غارقة أيضا في البساطة وسذاجة الحياة والفطرة الأولى، فكأن ملكها لا يملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية. أهل تنبكتو أهل مرح وفرح، تعوّدوا على التجوال والسهر إلى وقت متأخر من الليل، يعزفون ويرقصون. لكن الشريفة حرمتني من الاستمتاع بهذه المدينة، بعد أن وجدت بها مكان رزق، لأشتغل وأجمع نقودا تهيئ لي سفرا مُريحا للحج، فحيثما وُجد الذهب والمال، وُجد العمل الذي يُكسب الربح الواسع إذا كنت حاذقا ذكيا. بعد أسبوع فقط، وكنت قد اكتريت دارا صغيرة للإقامة، وأقمت علاقات بصفتي فقيها وواعظا وحكيما[122]، خاصة بعد أن علمت تقدير الملك للفقهاء والمتعلمين[123]، فقد قالت لي بعد أن جاءني مرسالها: سترى أحسن من هذا وأكبر وأفخم، هنا ستجد من ينافسك ويكيد لك ويُغرض في الكلام عنك إفكا وبهتانا، أما هناك في «جيني» فلن تجد عدوا ولا حسودا، وأنا هناك قادرة ـ بعون الله ـ على حمايتك وإسنادك، فتوكل على الله، وهلم معي إلى «جيني» حيث مناجم الذهب، أما هنا فسيقاومك التجار والفقهاء والأوباش، لا يغرنك مظهر المدينة فباطنها جحيم تمور بالدسائس والمكائد، وإياك أن تجمع يوما بين الذهب والسلطان[124]، فبينهما تجري وديان الدم.

انصعت للنصيحة، ماذا أخسر؟! أنا سائح في بلاد الله، وأرض الله واسعة، أينما طاب الهواء أو طاب الهوى أستقر، ومتى ما فسد أرحل، فلأجرب حظي مع هذه المرأة الداهية ولأتبعها إلى آخر الطريق، أنا مذ خرجت من أسفي اعتبرت نفسي مفقودا، ولن أوجد حقيقة وعيانا إلا عندما أعود إليها وإلى مرسى سيدي بوذهب، وحانوتي بالمدينة القديمة وأهلي بها وصخرتي بِسِيدْ البودالة. أكثر من مائتي ميل قطعناها في قافلة مؤلفة من التجار الكبار والوجهاء وأولياء الأمور بهذه الناحية وعسكر وخدم. سافرت معنا فرقة من الفرسان الخيّالة، فهم هنا

122- حكيم: طبيب.

123- على عهد زيارة الحسن الوزان لها يقول «وفي تنبكتو عدد كبير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك لهم جميعا مرتبا حسنا، ويعظم الأدباء كثيرا، وتباع أيضا مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحا تفوق سائر البضائع» (الحسن الوزان. م.س ص176 ج2).

124- يقصد بالسلطان السياسة أو النظام السياسي.

يعقلون[125] إبلهم ويمتطون الجياد إذا خرجوا للقتال سواء مع أعدائهم الذين يرفضون الخضوع لنفوذ الملك أو مع الممتنعين عن أداء الخراج، ولملك تنبكتو جيش يُعد بالآلاف، ولا غرو أن تجارة الذهب المزدهرة بهذه المملكة مع بلاد المغرب والأجناس الأخرى وخاصة ملك البرتكيز الذي أحكم قبضته على عدد من المراسي الساحلية، عن طريقها يخرج الذهب إلى بلاد البرتكيز، وقد كانت مدينة أسفي من هذه المراسي قبل أن يطرد البرتكيز منها[126]. كانت الرحلة من تنبكتو إلى جيني يسيرة ميّسرة: أمنا ونظاما وطعاما وشرابا ونوما. وصلتني مراسيل من الشريفة تحذرني من مغبة الحديث الطويل مع الحرس والتجار دون أن تشرح لي السبب، خمّنت أنهم يسيئون الظن بي، لكنني لم ألحظ منهم إلا الاحترام والتقدير، أؤمهم في الصلاة وأقدم لبعضهم ترياقا للشقيقة أو ضربة الشمس أو تغير الأمعاء أو مغص المعدة. قدموا مقابل ذلك هدايا من الثياب القطنية المنسوجة هنا و ثياب أورباوية جاء بها تجار من المغرب أو نقودا على شكل قطع صغيرة من الذهب الخالص، وقد زادني احتراس الشريفة كامرأة حويطة[127] أن آخذ بنصيحتها، وأن أجيب كل من سألني عن سبب المجيء إلى جيني بالحاجة إلى العمل لجمع قدر من المال يمكنني من مواصلة السفر إلى مكة والمدينة. نزلت بدار صغيرة على مقربة من وادي النيجر الكبير حيث واحات النخيل الوارفة والهواء طيب والنسيم عليل يلطف من شدة الحر، ولا أدري ما العلاقة بين إسم هذه البلدة جيني والجنة مرة والجن مرة ثانية، حيث تتجاور مناجم الذهب والخضرة والتمور والهواء الرطب. لم أبحث عن كراء دار ولم أدفع عربونا، بل جاءني خادم الشريفة فقادني إلى الدار، أطلعني على

125- يعقلون: من العقل: القيد.

126- احتلال أسفي من طرف البرتغال (من 1488 إلى 1541)م خلال هذه الفترة وصلت إلى البرتغال كميات من الذهب (إضافة إلى العبيد الأسرى) كالتالي:

433 >------ 1504 – 1507 كيلوغرام.

413 >------ 1511 – 1513 كيلوغرام.

443 >------ 1517 – 1519 كيلوغرام.

411 >------ 1519 – 1522 كيلوغرام.

(مذكرات من التراث المغربي. م.س ص 211 ج 4)

127- شديدة الاحتياط.

كل كبيرة وصغيرة وسلمني المفتاح ثم مضى واعدا بالزيارة بعد أن أستريح. رتبت لوازمي وغسلت ثيابي المتسخة، توضأت وصليت وهيأت لنفسي طعاما مما معي من زاد. أعددت مكانا لأوراقي ومخطوطاتي ولأدوات الكتابة ثم استلقيت على الفراش وغُصت في جوف النوم الثقيل، لو ضربت الطبنجية حولي ما استيقظت ولا وعيت. حين أفقت كانت شمس الظهيرة تحرق الوجوه بشواظ من نار، خدعني المناخ ساعة وصولنا مساء البارحة فظننت المكان رطبا. أغلقت الباب ورائي واتجهت نحو وسط البلدة أبحث عن مسجد، هناك يمكنني أن ألتقي بالفقهاء وحملة القرآن وعلية القوم وكبار التجار، وكذلك كان، فقد جذب إلي لباسي المغربي المميّز كل من مر بجانبي، كنت أحيي الجميع بدون تمييز وأرد السلام. بعد الصلاة اقترب مني أحدهم وقدم لي نفسه ثم دعاني لمشاركته طعام الغداء، كان من عادته - كما سأعرف فيما بعد - أن يدعو أصدقاءه وكل غريب عن البلدة للطعام، وخاصة إذا كان من بلاد المغرب. بداره الكبيرة، العالية الأسقف، المبنية على طراز دور فاس على أيدي امْعَلمين[128] أندلسيين. كان الطعام وفيرا ومتنوعا ولذيذا بطعمه المغربي الأصيل ونكهته السودانية، فقد كانت منطقة «جيني» من أغنى المناطق وأوفرها ماء، تحيط بها الأراضي الفلاحية الخصبة التي تدر محصولا جيدا من القمح والذرة والشعير، ويكسب الفلاحون الأنعام وتكثر الزبدة والألبان. مع صينية الشاي والفواكه اليابسة تشعبت الأحاديث ودارت حول مسائل متعددة، طغت على الكثير منها أمور الأسواق بمختلف أنواعها وموادها، من سوق الذهب إلى تجارة الملح والتمور والأثواب الأورباوية والسلاح والخيول والعبيد. كانوا يتكلمون أمامي - فلم أكن الضيف الوحيد، بل كنا ثلّة - كأنني لست موجودا بينهم، أو أنني واحد منهم لا يرتابون منه ولا يحذرون. وما لفت انتباهي أنهم لا يعيرون بالا إن كانت لبلاد المغرب يد في حكم السودان أم لا؟ وهذا ما لم أكن أنتظره وما لم أحسب له حسابا وما لم يكن لي به علم. فقد انتهت سطوة المغرب على هذه البلاد فلم تعد تابعة ولا خاضعة لمراكش أو فاس، وإن كان شيء من التبعية والطاعة

128- امْعَلم هي الكلمة المناسبة للبنّاء الحرفي، في الوقت الذي نجد رحالة مثل الحسن الوزان ومارمول كَرْبال يستعملان لفظة «مهندس»، وهي أبعد ما يكون عن كلمة «امْعَلم» الدقيقة.

فللأولياء والزوايا والدين، رغم أن طريق التجار لازال قائما، وإن قل حتى كاد يزول بسبب بابور[129] البحر وقوافل الشمال. وإنما الخطر الداهم الآتي كالوباء، هو القادم مع الأجناس الأورباوية، فها هي مملكة تلمسان بيد الفرنساوية وتطاون وصحراء صنهاجة الغربية بيد الصبنيول، وأغلب التجار، والكبار منهم خاصة، أصبحوا محميين بأجناس النجليز والمريكان والفرنسيس وغيرهم... بعض منهم تغدوا معي عند الحاج الطاهر التلمساني الذي استضافني هذا اليوم ثم أصبحت ملازما لمائدته وسهراته وقعداته إلى اليوم الذي رحلت فيه عن جيني.

.

تذكير

كان بودي لو كنت أقدر ـ أو يكون بالإمكان ـ أن أكتب عن كل يوم وما وقع لي فيه من حوادث، وما سار معي من أمور الدنيا والدين، ولكنني أحيانا أعجز عن ذلك، بداعي التعب أو الانشغال بالأمور الجارية أو موجودا عند أناس لا أستطيع مفارقتهم، فلا أستطيع أن أكتب حرفا أو حرفين، كما أنني لا يمكنني أن أحمل ورقا وقلما وأجلس وسطهم لأكتب، وكل مرة أرفع عيني إلى أحدهم لأتمعنه ثم أعاود الكتابة. لو فعلت هذا لجلدوني وعلّقوني على باب البلدة. لكل هذا فأنا أكتب مرة يوم وقوع ما أكتب عنه، ومرة بعد يوم أو يومين، ومرات عدة بعد أيام تكون خلالها قد غابت عني بعض التفاصيل والدقائق وضاعت بعض الملامح، لكن لب الثمرة يظل في رأسي، وربما هذا يناسبني، فلست من كتاب الحوليات والتراجم والسير ولا من مؤرخي السلاطين المولعين بتقويم السنوات والشهور والأيام.

رجع..

من أوجب الواجبات التي كان علي البدء بها التأكد من التقويم السنوي وضبط وتضحيح اليوم والشهر، فقد تشوش فكري بسبب تشابه الأيام في الصحراء وتهاونت في تقييد الخاطرات وتدوين التاريخ والتوقيت، فضاع

129- بابور البحر: الباخرة.

مني الحساب وحل الظن والتقريب والتخمين. قصدت مسجد البلدة، وكانت صلاة الظهر جماعة قد فاتتني، دخلت المسجد وكان لايزال مفتوحا على مصراعيه للصلاة نهارا وللمبيت ليلا للغرباء الذين لا يجدون مأوى لهم وغالبا ما يُكرمون بطعام من المسلمين على عادتنا نحن المغاربة. صليت واسترحت قليلا مُسندا ظهري إلى عمود ضِخم، أرتب في ذهني ما يجب علي القيام به من أمور، فما رحلت لأتسكع وأفوّت الأيام هذرا، خرجت أمام باب المسجد وسألت أحد المارة عن بيت الإمام، دلّني بإشارة من يده على باب واطئ ملاصق للجهة الجنوبية لجدار المسجد، طرقت الباب، فنادى صوت من الداخل: من بالباب؟ قلت: ضيف الله، قال: مرحبا بضيف الله، ثم فُتح الباب عن وجه مغربي بشوش فاتحا ذراعيه لمعانقتي أهلا وسهلا ومرحبا، لازلت على وصول، رائحة البلاد في جسمك وثيابك، أما نحن - هنا - فقد ضاعت منا كل الروائح العطرة الطيبة ولم يبقَ في أجسامنا إلا العرق والصْنان أو عطر «تاسرغينت»[130]، أدخل وشاركنا ما قسّم الله، ثم بصوت أعلى: «ديروا الطريق»، بسملت وباركت المكان وأهله ثم ولجت إلى وسط الدار منحنيا بقامتي الطويلة حتى لا تصطدم برتاج الباب الواطئ، فإذا بي وسط باحة كبيرة يُنزل إليها بدرج، الهواء في الداخل رطب، فالجدران ضخمة عريضة، ولا نافذة مفتوحة على الطريق، لا تدخل الشمس البيت إلا من شباك صغير بالسقف. شكرت للإمام بيته، فاستلطفني بابتسامته الودودة ودعاني للدخول إلى غرفة الضيوف، جلست وأنا أقول: ما دخلت لأجلس وأستضاف، ولكن قصدتك لأعرف بعض الأمور... قاطعني: ولو لم تقصدني، وكنت التقيتك فقط، لكنت عزمتك، أنا من دكالة، وأنت؟..

130- «يقبل أهل هذه البلاد على نبات طيب الرائحة، يأتي من بلاد البربر وليبيا ونوميديا ويسمى «تاسرغينت»، وأشير إلى أن حمولة جمل من هذا النبات تباع في موطنها بدرهم واحد، ولكن ثمنها يُصبح مائة درهم أو أكثر في بلاد السودان، وتفوح رائحته الطيبة دون أن يحتاج المرء إلى وضعه في النار» مارمول. م.س ص 197 – ج 3.
«تاسرغينت جذر عطريّ يوجد في ساحل المحيط إلى جهة الغرب، يحمله تجار موريطانيا إلى بلاد السودان حيث يُستعمل كعطر رفيع. ولا حاجة إلى حرقه أو تسخينه، لأنه إذا حُفظ في حجرة نشر فيها نفس الرائحة» الوزان. م.س ص 283 – ج2.
تاسرغينت صيغة تأنيث بربرية، والإسم العربي سرغينة.

من عبدة. صاح: يا سبحان الله، أتعرف حكاية البير[131]؟ قلت ضاحكا: ومن لا يعرفها في الناحية، دكالة الحمراء ودكالة البيضاء، لا فرق، لكن ما الذي جاء بك إلى هنا وكيف؟ قال متنهدا: القصة طويلة يا أخي العبدي وسأحكي لك عنها فيما بعد. أنا هنا إمام وخطيب وعدل، الحمد لله، نحمده ونشكره على نعمته، تزوجت وأنجبت، لم يعد لي في بلاد المغرب أهل ولا بيت، أنا هنا من عشرين سنة، بعد أن طوفت في بلاد المغرب طولا وعرضا إلى أن سرت مع قافلة الحجيج من مراكش دون أن أعرف إلى أين المسير، كنت أول الأمر أقصد الحج، لكنني كنت مستعدا أن أستقر في أي مكان يطيب لي العيش فيه. مكثت مدة في تنبكتو، وعندما عرضوا علي المجيء إلى هنا، لم يخطر على البال أنني سأمكث كل هذه المدة، عشرون سنة، أنا الآن ناهزت الستين، فماذا بقي في المغرب لينتظرني كل هذا الزمن، لا أحد ولا شيء، لذلك عندما سمعت صوتك ورأيت وجهك، قلت إن الله كافأني على صبري وغربتي واحتمالي، قلت: لكن هنا كثير من أهل المغرب؟ قال: أصبحوا من أهل هذه البلاد، وبعضهم لا من هؤلاء ولا من أولئك، سماسرة وتجار ووسطاء، لا لون ولا جنس ولا وطن لهم. استسلمت لمشيئة مُضيفي بعد أن علمت أنني مُرحّب بي في بيته. حكيت له أطرافا من قصتي إلا ما يتعلق بالشريفة، ونحن على مائدة الغداء، ثم أخذت منه معلومات عن التقويم والبلدة. علمت أن خمسة شهور قد مرت على خروجي من مدينة فاس، كأنها دهر من الأيام والشهور والأعوام، اليوم هو الثلاثون من جمادى الأولى. عندما رأى حيرتي وأنا أدون في تذكرتي التواريخ وأضع أمام كل خانة بضع كلمات تلخص حوادث أو أحاديث أو بلدانا، قال: إذا كنت لا تزال على سفر، فإن الصيف على الأبواب ولا أحد يقوى على الرحيل في مثل هذا الوقت، حتى لو كان من أهل الصحراء، القبائل الرحل أوت إلى مراتع التصييف ولن تتحرك إلا مع الشتاء. طويت أوراق التذكرة مُرجئا العمل فيها إلى حين العودة إلى داري، ثم قلت له: لم أحسبها جيدا، فلم يخطر لي أنا أيضا على بال أن السفر سيأخذ مني كل هذا الوقت، ضحك وقال: الزمن هنا - أيها العبدي - لا يتحكم فيه الإنسان، الصحراء هي التي تتحكم في الزمن والإنسان معا، اخلع جلباب فاس والبس لباس الصحراء الطوارقي الأزرق. تأملته وقلت:

131- حكاية شعبية حول بئر ماء متنازع عليها بين قبيلتي عبدة ودكالة.

أنت على حق، سأترك أمر كل شيء للمقادير، فليفعل الله ما يشاء. توضأت عنده وخرجنا معا لصلاة العصر، ودعته بعدها وقصدت وسط البلدة وحوانيت التجارة والصاغة. تجولت حتى كلّت قدماي من المشي دون أن أعثر على أحد أكلمه، رغم أنني صادفت وجوها مغربية، الكل هنا منشغل بنفسه ومصلحته. عدت إلى الدار لأجد خادم الشريفة بداخلها قائما على ترتيب الأثاث والتنظيف والكنس ونفض الغبار الذي لا تعرف من أين يأتي. بادرني بالتحية والسلام، أشار إلى طعام جاء به، ثم قال لي هامسا، وليس في البيت سوانا، فتعجبت من أمره، ألهذا الحد هو حريص؟! إن الشريفة في انتظارك الليلة بدارها، سآتي لآخذك إليها.. خرج فأغلقت الباب وراءه كأنني خائف من أن يدخل غيره بخبر مُزلزل. ما كدت أخلع جلبابي حتى سمعت طرقا على الباب، فتحت الباب في وجهه مذعورا، قال: تقول لك الشريفة، ستدخل في الظلام وتخرج في الظلام، قلت في نفسي وربما ألج في الظلام يا وجه الظلام. قبل أن أغلق الباب كله، أدخل رأسه في الفجوة المحشورة بين دفة الباب والرتاج وقال: لا تأكل شيئا، العشاء في بيت الشريفة. هذا الحرطاني يثير مخاوفي وظنوني، فلا أعلم إن كان سليم الطوية أو سيء الخُلق، فهو يعلم عني كل شيء، ومن اليسير أن يدس لي سما أو ينقل عني وشاية أو يحرض علي أحدا. اطمأن قلبي عندما تخايلت الشريفة أمام ناظري، فإن كانت هي تثق به، لِمَ أنا أشك فيه وأضع نفسي موضع الفريسة تنهشها وحوش الوسائس والشكوك، ومع كل هذا الحذر لا تدري نفس بأي أرض تموت. لقد أقمت قبل الخروج من فاس ليلة العزاء، ولو كنت متزوجا لطلقت امرأتي، ولو كانت لي دار أو أرض أو تجارة لكنت بعت كل شيء وصفيت التركة، فالذاهب مفقود والآيب مولود. توضأت وصليت ما بذمتي من فرائض، ثم أخذت زينتي للذهاب إلى بيت الشريفة والحرطاني لم يأت بعد. أخرجت الأوراق ودواة اللكّ[132] والأقلام، دوّنت التقويم الذي ضبطته، ثم شرعت في تسجيل ما شاهدته من مناظر ومآثر وطبيعة وحيوان، وما خطر ببالي من أفكار وعواطف. بعض الأشياء غابت، والكثير منها حضر، ولعل ما غاب لم يكن مهما

132- اللَكّ: صبغ أحمر تصبغ به الجلود ونحوها، وأيضا نبات يُتخذ منه الصمغ، ويطلق اللك على الكاغد أو الورق.

فلم تحتفظ به الذاكرة أو أن مثله لا يحكى مادام من المعروف المعلوم المكرر عند كل الناس[133]. قطع الصمت طرق على الباب، خمنت أنه الحرطاني المنتظر، انتعلت بلغتي الفاسية ـ للمرة الأولى أنتعلها ـ الصفراء الزاهيّة ثم وضعت قطرات من قارورة عطر مخبأة لمثل هذا اليوم العظيم، في راحتيّ ثم مسحت على وجهي ومررت على صدري فانتشر العطر فوّاحا. فتحت الباب خارجا وأغلقته ورائي، سار الحرطاني أمامي، جذبته وقلت له: من الأحسن أن تسير بجواري، تبسم ـ ولعلها المرة الأولى التي أرى فيها بسمته ـ وقال: لا يصح هذا، قلت: يصح، نحن في بلاد السودان، في ضيافة إخواننا المسلمين، انفرجت أساريره ولاح الامتنان على وجهه، فبدا خَلقا جديدا. عندما حاذاني جنبا لجنب أخذ في الحديث عن مدينة «جيني» وسكانها وتجارها ومبانيها، وقال إنه يعرف كل كبيرة وصغيرة هنا، فقد ولد ونشأ فيها، ثم رمقني بحنو وقال: إنه على استعداد لتقديم العون والخدمة متى أطلبها وكيفما كان شكلها ثم أردف متابعا كلامه، أنت رجل طيب مبارك، وقد توسمت فيك الخير. تذكرت ما قالته الشريفة لي ذات يوم من أيام الرحلة، هل كان يسترق السمع؟ غير ممكن مع امرأة مثل الشريفة، وحتى لو كان قادرا على ذلك، أن يكون في صفي خير لي من أن يكون عدوا أو في صف خصومي، هؤلاء القوم يقدرون ويُكبرون حملة القرآن والحاملين له في صدورهم، وذلك هو الفتح المُبين إلى قلوبهم وعقولهم، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وشرعت في ترتيل آيات من الذكر الحكيم، تجويدا متمهلا يُعطي للحروف والسكنات والحركات مدا وإدغاما وشدة وتفخيما ورخاوة، وصلا ووقفا، كل العناية والاهتمام. ختمت بدعاء وابتهال، وعندما أشركته فيه، رأيته يرتمي على يدي تقبيلا، ويكاد ينحني على رجليّ، فمنعته من ذلك. كنا قد بلغنا حي وجهاء البلدة وأشياخ القوم وتجارها الكبار، دور كبيرة محوّطة بأسوار عالية تظهر في أعلاها أغذاق النخيل بثمارها اليانعة، أشار بيده إلى دار فخمة وجيهة وقال: هذا منزل الحاج محمد المدني الفاسي الغرناطي، قلت في نفسي: لعله لازال يحتفظ بمفتاح منزل أجداده بغرناطة. تبسمت وأنا أردد في خاطري،

133- في هذه اللحظة العبدي لا يكتب مذكراته أو مشاهداته بقدر ما يفكر في الكتابة وآليات الاشتغال عليها، حيث يقدم بعض أفكاره في هذا الموضوع.

لعل أمر العودة إلى غرناطة وراء اشتغاله بتجارة الذهب. كان خادم الشريفة يطرق الباب، الذي فُتح لنا تواً ـ كأن في طرقاته كلاما لا يفهمه إلا أهل الدار ـ من طرف زنجي ضخم الجثة، طويل القامة مديد الأيدي والأرجل كأنه خارج من حكايات ألف ليلة وليلة وما ترويه عن البلاد العجيبة والمخلوقات الغريبة التي رآها السندباد، سرعان ما فسح لنا الطريق فبدا في غاية اللطف والظرف، التفت إلى الخادم وسألته عن اسمه، قال: مسعود، نظر إلي بتودد وكأنه يقول لي: ما اسمك أنت؟ قلت بدون تردد: العبدي أو الفقيه، كما تشاء، علت البهجة وجهه، ثم رمى الحارس الزنجي بنظرة اعتزاز وأنفة.

دخلنا فناء واسعا تحف جنباته أصص الأزهار واللبلاب وقامات النخيل السامقة، ارتقينا درجات نحو باب واسع من الخشب النفيس الغالي، لعله عود الشوك[134]. ما أن اجتزناه حتى انقطعت بنا الحياة عما ألفناه، دخلنا دنيا أخرى غير تلك التي تركناها وراءنا، القصر البديع، وأبدع منه، فسيفساء وزخرفة على الحيطان وحوافها، وعلى الأعمدة تشبيك هندسي[135] وتزويق[136] في شكل أكاليل من الزهور، نقش على خشب الأسقف، أواني وأباريق وكؤوس من كل صنف ولون. كدت أعود إلى الطريق التي جئت منها، فهذا المكان لا يشبهني ولا يحبني، أبدو داخله كبعرة أو قذارة، ربما أخطأ صاحبي المكان، لكنني فوجئت بسيد البيت قادما نحوي مهللا مرحبا، فاتحا ذراعيه لمعانقتي، تلفت يمنة ويسرة وخلفا، لعله يتجه نحو أحد غيري، لم يكن هناك أحد، إلا أنا. انسل الخادم من جواري دون أن أحس به. أنت الفقيه المبجّل الذي اعتنى بزوجتي وأشفاها من الوسواس، أهلا وسهلا وماية مرحبا، اصطنعت مثل ما استقبلني به من ترحاب، لكن علامات الدهشة والانبهار لازالت تتملكني، أعجبك القصر؟ عشر سنوات وأنا أشتغل في بنائه، كل شيء تراه جلبته من المغرب والصبنيول والطاليان، البناءون مغاربة وسودانيون، ولَمْعَلمين الزلايجية والنَّقاشة من فاس، الرخام من

134- عود الشوك: (باللهجة العامية المغربية) أو ما يعرف بالأكاجو Acajou، شجر صلب يميل خشبه إلى الاحمرار، قابل للصقل ليظهر لمعانه.

135- المقصود ما يعرف عند الحرفيين التقليديين بالتسطير.

136- ما يعرف بالتوريق.

الطاليان والزليج فاسي، وتصميم القصر أندلسي، لم تَنْس الأندلس إذن؟ قلت مداعبا، قال بلهجة أسف وضيم: وكيف أنساها ومفتاح قصر أجدادي بغرناطة لازال في حوزة العائلة، يرثه الخلف عن السلف، لقد بنيت هذا القصر على طراز قصر العائلة بغرناطة، وإن لم أره أبدا، وصفه المهاجرون الأولون وتركوا لنا خطة دقيقة وكاملة مستوفية لكل كبيرة وصغيرة في بنائه وزخرفته ونقشه. لم يخبَ ظنّي الأول قبل أن أدخل الدار، فهذا الأندلسي لازال يحلم بالأندلس وغرناطة، وها هو قد شيّدها في قلب جيني ببلاد السودان حيث مناجم الذهب، قلت له: أنت لم تشيّد قصر أجدادك فقط، ولكنك استوحيت قصر الحمراء وجنّة العريف أو قل الأندلس كلّها، صاح بفرح، والله لقد أصبت، قالوا لي عنك إنك أريب فَطِن، وها أنت تلامس أوتار قلبي وتقرأ كوامني منذ الوهلة الأولى، من رشحك لَلخدمة عندنا لم يُخطئ. ومن هو؟ قال: الشريفة، اختارتك لأمانة المال، مول الشكارة، وللسهر على الصادرات والواردات في تجارتنا مع بلاد المغرب وبلاد النصارى، ابتسمت شاكرا وقلت: دون أن تأخذوا موافقتي؟ وهل سترفض ما عرضت عليك؟ قالت الشريفة وهي قادمة على خطوتين منا، التفتت وتراجعتُ خطوة نحو الخلف حتى أتمكن من استقبالها وتحيتها كما يجب في حضرة زوجها. قلت: أنا لا أرد لك ولا للحاج أمرا، ولكنني ما قصدت هذا المكان لذاته ونفسه، إن هي إلا ليلة أو ليلتان ثم أواصل سفري وترحالي نحو ما نويت إن شاء الله. أخذني الحاج من يدي اليسرى والشريفة على جانبه الأيسر نحو الخوان المنضود بركن مفروش على أبهى صورة وهو يردد باسما: افعل ما في نفسك، ستجدُنيَّ إن شاء الله من الموافقين، رأيته إنسانا كريما لطيفا، فأجبته ضاحكا، ليفعل الله أمرا كان مفعولا. تهلل وجه الشريفة في المرآة التي كانت تستقبلنا بالركن المفروش الذي ما كدنا نأخذ به مجلسا حتى اصطف الخدم والمنشدون صفا صفا، وجيء بكل طعام لذيذ ولون غريب وفاكهة ناضجة ولحم نَديّ ودجاج شَهيّ وسمك طريّ وشراب رائق وماء دافق، وصدح المكان بدندنة الآلات وأصوات القيان والمغنين بقصائد الغزل والموشحات، وكلما أوغلنا في لذة الأكل ومتعة الشراب، كلما بَعُدنا عن بلاد السودان ودخلنا مملكة الفردوس المفقود، جنة العريف وقصر الحمراء ومسجد قرطبة وأسواقها والوادي الكبير، كنت أحلّق هناك بجناحي الحاج محمد بن المدني الفاسي الغرناطي. ونحن في

قمة الانتشاء مازحت الشريفة فمازحتني، ربتت مرات على يدي، سقتني طيلة السمر، وما اعترض الحاج، كنت خجلا مُحرجا من ورطة وجودي هناك، انحنى نحوي الحاج وهو يقول: الشريفة تعزك كثيرا، وأنا كذلك، بعدما رأيتَ منك من مخايل الفطنة والكياسة. تبا للفطنة والكياسة، أنا في دار رجل في مقدوره أن يقتلني دفاعا عن شرفه وعرضه، وهناك العشرات من أتباعه وخدمه ممن سيشهدون علي بارتكاب الجُرم، فهل أصدق كلامه؟!

قطع..

علمت بعد هذه الحادثة بأيام قلائل أن النساء في هذه البلدة وفي عموم البلاد يكون لهن أصدقاء وأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره، فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك[137].

رجع..

كانت الشريفة تسامرنا وتشاركنا كل ما نفعل، أكلا وشرابا ودمدمة مع الغناء وتمايلا راقصا مع القيان، وهي سافرة على رأسها وشاح مطرز بخيوط ذهبية زادها ألقا ونورا، وعلى جسمها ثياب من أشهر الأنواع وأفخمها، وفي معصميها وأصابعها وعنقها وحول خصرها ذهب كثير من الخواتم والدمالج والأسورة والقلائد الرقيقة والسميكة وحزام المضمة[138]. كان الذهب يشع فوق بياضها فيزداد ضياء كأنك أوقدت عشرات الشموع مجتمعة وأضفت إليها عشرات

137- «ودخلت يوما على أبي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صُحبته، فوجدته قاعدا على بساط، وفي وسط داره سرير مظلل، عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان، فقلت له: من هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي. فقلت: والرجل الذي معها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت له : أترضى بهذا؟ وأنت قد سكنت بلادنا، وعرفت أمور الشرع ، فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وأحسن طريقة، لا تهمة فيها، وليس كنساء بلادكم، فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه» (رحلة ابن بطوطة – ص 610 –مصر –بدون تاريخ).

138- حزام من ذهب يعتبر في المجتمع المغربي (التقليدي) من علامات الجاه والغنى.

القناديل. آن الأوان لأرى هذا الوجه الجميل عن قرب، ولأستمتع بهذا الجسد البض المترتر[139]. قلت وقد أخذني الهوى إلى البعيد السحيق وعينيَّ في عينيها مسمرتان وهي أمامي امرأة من ذهب، كم كان بودي أن أشرب ولو كأسا واحدة، ضحكت بدلع الغانيات وكأنها ترمي لي طوق نجاة في بحر هائج وقالت: ومن منعك من ذلك؟ لن يطاردك هنا أحد من الحراس أو الفقهاء المتشددين أو تلحظك عيون السلطان، قلت ولكنني لم أشرب من قبل، ضحكت مرة ثانية نفس الضحكة المستهترة السافلة ورمقتني بنظرة كأنها ترمي بشرر وقالت: اشرب الآن إذن، قلت: لم أتعود ذلك من قبل. قالت: من الآن ستعتاد على ذلك. قَلت: اليوم خمر وغد أمر، هاتها من يديك واسقنيها حتى ترينني أحسب الديك حمارا [140].

بعد ثلاثة أيام من الضيافة التي أقامها الحاج محمد بن المدني ببيته، تسلمت مقاليد أمانة الأمناء[141] لتجارته في الذهب وتشمل شعبة المنجم المكلفة بالحفر والتنقيب والاستخراج والتصفية، وشعبة التحويل، وشعبة الصياغة والوزن، وشعبة تجارة الصادر ومحلات البيع والشراء بجيني وتنبكتو.

وهكذا بين عشية وضحاها أصبحت من الكتبة النافذين كأمثالي من طلبة القرويين الفاسيين ومن أسعفتهم الولاءات والوساطات والعوائل في الحصول على حظوة الخدمة المخزنية، أما أمثالي من الغرباء والأعراب والذين لا مجير لهم ولا مُعين، فأمامهم البادية وأسواقها وجوامعها وكتاتيبها لتعليم الصبيان. أخذني العمل أخذ عزيز مقتدر، فقد شرعت في إعداد مكان لائق للبنيقة[142] التي سأعمل منها على متابعة المهام المنوطة بي، وألحقت معي أمينين كانا قبلي في

139- المترتر: من ترتر بمعنى استرخى في بدنه وكلامه.

140- بياض أو أوراق ضائعة من المخطوطة حيث انقطع الحديث المسترسل فجأة، وضاع ما جرى بين العبدي والشريفة.

141- أمين الأمناء: مول الشكارة، وزير المالية. «موظف سام مهمته الإشراف على الإدارة المالية للدولة وعلى أموالها». (نعيمة التوزاني: الأمناء بالمغرب، ص 365، ط 1979 – المغرب).

142- المكان الذي يباشر فيه بعض موظفي المخزن في القرن التاسع عشر أعمالهم مثل الوزير والأمين والمحتسب وهي بمثابة مكتب أو ديوان (عمر افا. م.س. ص 395).

رفقة الحاج محمد بن المدني، وكلفت كل واحد منهما بأعمال محددة مقصورة عليه، إذ أنطت «بسليمان كوليبالي» الشاب المهذب التقيّ مهمة أمانة الصائر[143] وعقود البيع والشراء، وكلفت «يوسوف تراوري» وهو رجل ورع في عقده الرابع، بشوش، على وجهه علامات القبول بمهمة أمانة الرواتب وأحوال المنجميين.

«وعذره أنه جديد في الصناعة» هكذا يقول القدماء عن كل مبتدئ في حرفة أو صناعة من الصنايع بما فيها صناعة الأدب، لهذا أعطيتها كل وقتي وفكري، فلم أعد أعلم من الأيام إلا صباحاتها ولياليها، وبالكاد أتذكر تواريخ الأيام والشهور لما لها من ارتباط بالتقييدات والسجلات وعقود البيع والشراء، ورغم ذلك، فقد أبليت البلاء الحسن في الشهور الأولى بشهادة الحاج محمد بن المدني الذي كان يعرف حق المعرفة والعلم كيف تسيّر البنيقات المخزنية بمراكش وفاس، لم يكن لي نصيب في العمل هناك والترقي في مدارج المخزن لأصبح علما مرموقا، فهذا يحتاج إلى أشياء أخرى غير العلم وجودة الخط[144]، يحتاج أن تكون مسنودا بعائلة أو محتسب أو قاض أو قائد من القواد الكبار أو من الصدر الأعظم ومن هو أعظم منه[145]، ولا ينفع أن أكون من طلبة القرويين فقط. هذه الأخبار كانت تأتينا من أصحابنا الطلبة الفاسيين والتطوانيين الذين كانوا يأتون للسهر والسمر معنا في بيوت المجاورين بجوار الجامع، كانوا يحكون عما

143- أمين الصائر: أو الصَّايْر في العزف المغربي هو النفقة عموما، وفي الدوائر المخزنية يعني المال ىالذي ينفق في وجه من الوجوه، مثل صوائر الدار العالية، ويتكلف الأمناء بتصييرها. (عمر أفا: م.س – ص407).

144- «وكان المتخرجون من هذا التعليم يجدون مناصب في تعليم الكتاتيب، إذا كان كل ما حصلوه هو حفظ القرآن. وإذا ألموا بمبادئ اللغة والمعارف العامة، اشتغلوا كتابا لبعض رجال المخزن، سيما إذا كان لأحدهم خط جيد مميّز عن غيره من الكتاب. وكان حذاق الطلبة يتطلعون إلى مناصب أرقى، ولا سيما إذا كانت لهم مع رجال الدواوين قرابات أو صلات من نوع ما...» (مصطفى الشابي. م.س ص96).

145- أنظر الهامش رقم 17 من فصل كتاب الخروج.

يدور في دار المخزن والبنيقات من معاملات ومكاتبات ومخالطات بين رجال المخزن، كما أطلعوني من خلال ما يحكون كيف تُسوّى الأمور وتُساس في كافة المجالات بين أصحاب السياسة العقلية وأنصار السياسة الشرعية[146].

بعد عام بالتمام والكمال أصبحت البنيقة التي كلفني بها الحاج محمد بن المدني بمثابة القلب في بدن الإنسان، كل شأن في مناجم الذهب والأسواق والمحلات والداخل والخارج إلا وله أثر ومرجع وسند بالبنيقة، وأصبح بمقدور الحاج أن يطلع على الأوراق - وهو جالس يشرب الشاي ويدخن تبغه المفضل - ليعرف كل كبيرة وصغيرة، وإذا أراد أن يعرف ما سلف ومضى، فما عليه إلا أن يعود إلى السجلات، فهي مرتبة بالتقويم الهجري كالظهائر والرسائل الصادرة عن دار المخزن، حذوك النعل بالنعل. في هذه الزوبعة الهوجاء التي كنت أتمناها يوم التحقت بالقرويين، أي أن أتخرج كاتبا مخزنيا مرهوب الجانب لأسلك مسالك التدرج حتى أصل إلى القضاء أو الإمامة والفتوى أو الحسبة أو التدريس بالقرويين، اليوم أكاد أحققها في صحراء «جيني» وفي تجارة الحاج محمد بن المدني حيث لا قضاء ولا إمامة. في هذه البلدة الصحراوية الغنية بالمعدن النفيس وجدت عملا لو أردته بمراكش أو فاس لكان علي أن أستخير جميع أولياء وصلحاء المغرب ليشفعوا لي عند أهل الحل والعقد. ولهذا أخلصت النيّة والطويّة وعملت بوفاء وإخلاص فارتفع الناتج وتحسنت الإجادة وزادت الغلة مثنى وثُلاث ورُباع، أضعافا مضاعفة، فأغدق عليّ الحاج بالمدني وتشبث بي أكثر، معتبرا إياي علامة من علامات السعد واليُمن عليه وعلى تجارته، وأنا أيضا من جهتي كنت أختبر نفسي عن أهليتي للنجاح في التجارة لعلمي أنها من فنون الرياسة والسياسة ومعرفة أحوال المعاش وتدبير الأقوات، فأعطيت كل جهدي وعزيمتي لأتقن هذا الأمر على أحسن وجه وأقومه متبعا قواعد الشرع والعرف ومجتهدا فيما تقتضيه المصلحة الوقتية.

146- يقصد الصراع بين دعاة الحداثة ومواكبة المستجدات الأوربية في مواجهة رجال الدين والمحافظين داخل النخبة المخزنية.

تذكير..

خلال هذا العام الذي قضيته بجيني غارقا في شؤون التجارة وأمانة البنيقة، كدت أنسى ما خرجت وراءه من المغرب. لم تكن الشريفة لتتركني لنفسي أو لعملي، فقد كانت تبعث ورائي دائما رقاصها للدعوة إلى عشاء أو حفل أو مسامرة أو دعوة بدون مناسبة، وما كان عليّ أن أرفض وأنا في بيتها وأمين ثروتها، كنت ألبي أحيانا كل الدعوات، وحيناً اعتذر بدعوى المرض أو بدعوة ـ لا يمكن تأجيلها ـ عند القاضي أو الإمام. كانت الشريفة تنتظر مولودها، وكذلك كان الحاج محمد بن المدني، كتبت لها عدة رقى وتعاويذ لصد العين والحسد وصنعت لها مجموعة أنواع من الشراب المقطّر من طبخة الأعشاب الطبية المنصوح بتناولها في كتب الطب للتداوي وتقوية البدن والجنين. وكنت أحيانا إلى جانب امرأة زنجية ضخمة الجثة، طلقة الأسارير، يعتمد عليها أهل جيني كقابلة مشهود لها بالصنعة والخبرة وطول المِراس، أقوم بقياس بطنها للتأكد من نمو الجنين، وكنت آخذ هذا على رأس كل شهر وأدونه في تذكرة مخصوصة، وكان يُعطي نتيجة مُرضية كل مرة قمت فيها بذلك. لم تعد الشريفة هي التي ترسل في طلبي، بل أصبح الحاج بلمدني هو من يبعث رقاصه، وأحيانا في عز الليل عندما يشتد عليها المغص وآلام الوجع، فيظنون أنه المخاض وأن ساعة الولادة قد حانت وقرُبت، فيسرعون في طلبي، لكن لا شيء يحدث من ذلك، وقد أظل ساعات طِوال حتى الصبح بدون جدوى، ومرات يذهب الوجع عنها بمجرد دخولي إلى البيت، فأعود من حيث أتيت أو أبيت هناك ساعة أو ساعتين هما المتبقيتان على انبلاج نور الصباح، ثم أذهب من هناك إلى البنيقة.

رجـع..

كنا نتحدث عن البنيقة وأعمال الحاج بلمدني في التجارة والمال وهما عصب الحياة، وقد كان الحاج فيما أوحى إليّ به من إشارات، وإن لم يُفصح عن ذلك جهارا، ربما خشية العجلة في التقدير أو أنه لم يستوثق بعد من خالص نيتي وصدقي، فأراد أن يأخذ فسحة من الوقت لامتحاني ومعرفة قراري، أقول إنه كان يهيئ نفسه لدخول المغرب بأمواله وتجارته الواسعة في بلاد السودان وروابطه

ومخالطاته[147] مع تجار البرتكيز والصبنيول الذين كان يشحن لهم من جيني نحو بواخرهم الراسية بمرسى كاشو[148] على ساحل البحر الكبير[149]، وربما يخفي أنه من المحميين براية البرتكيز أو الصبنيول، إذ أن الاحترام والتقدير اللذين يُعامل بهما في كل مكان، ربما لحماية الأجناس شأن فيه.

أخذ العمل في مناجم استخراج الذهب يقل ناتجه وترتفع تكاليفه ومطالبه، وقد كلّف انهيار منجم على عدة أنفار من الزنجيين توقف شهر ودفع أموال لترضية عوائلهم وعوضا لباقي الأنفار ليعودوا إلى العمل. قلّت كميات الذهب وأصبحنا ملزمين بالحفر غورا إلى أبعد ما يكون، فكثرت الانهيارات وتضاءلت الكميات، بل إن الكثير من الأنفار هربوا مذعورين بعد أن شاهدوا - على رأيهم - شياطين وأشباحا بجوف الأرض ووجدوا رفاتا وعظاما رميما لمخلوقات آدمية وحيوانية ضخمة، وكان على الحاج أن يغلق المناجم التي أصبحت مكلّفة بلا طائل وشديدة الغور. في هذا الوقت الضنك الذي لم يبق فيه قائما إلا منجم واحد صغير، لكنه لايزال يدر ذهبا عالي الجودة، جاءني الخبر ذات يوم، وكان المساء قد حلّ، والسماء قد دجنت[150]، أن ألتحق بدار الحاج بلمدني فورا، حسبتها في رأسي، فوجدتها قد جاوزت السبعة أشهر بأيام قليلة، فقلت هو يوم عسير على امرأة طال عُقمها، فليكن الله في عونها وعوننا جميعا. دخلت الدار مهرولا، ولست أعلم لم كنت متحمسا نشيطا حتى أن الحاج لما رآني أكبر فيّ الاهتمام والحماسة وشدة التحفز، فربّت على كتفي داعيا لي بالتوفيق للمساعدة، أخرجتهن جميعهن إلا وصيفتها فقد أبقيتها إلى جانبي وطلبت من الأخريات أن يكن مستعدات، فلربما نحتاج عونهن، قلت للقابلة: ما الأمر أيتها الحكيمة؟ قالت: استعصى الأمر عليّ، فالجنين مقلوب، رأسه غائر وقد استعرض الباب بدبره، قلت: وهل صادفت يوما وضعا كهذا؟ قالت: نعم... ثم سكتت، قلت: وبعد، قالت: في الغالب الأعم لا أحد ينجو، الأم والولد في يد الله، قلت: وما العمل الآن، قالت: نترك أمرنا

147- المخالطة: الشراكة أو عقد شركة.

148- كاشو : مدينة ساحلية بغينيا بيساو أو غينيا البرتغالية التي احتلت سنة 1450م من طرف البرتغال.

149- المحيط الأطلسي.

150- دجنت: أظلمت.

للوقت، ربما يسعفنا الله من عنده، ثم إن الأمر متوقف كله على الشريفة، فعليك أن تدعوها لبذل كل الجهد والعزم حتى لا تخور قواها. كانت ليلة يشيب لها الولدان، والحق أن القابلة الزنجية قد بذلت من الجهد لإنقاذ الشريفة والجنين ما لا يقوى عليه أمهر الحكماء في دار الإسلام أو دار الحرب[151]، وكذلك الشريفة، فلم أر امرأة أقوى منها ولا أكثر تحملا منها في هذا المقام، وما فعلته لكي يخرج الجنين حيّا يكاد يكون من المعجزات والخوارق التي ينبغي أن تحكى للناس في كل زمان ومكان. لقد كنت أساعد من بعيد، من وراء حجاب، تستشيرني القابلة وتصف لي الوضع فأرد عليها وأنصحها بما يجب عمله، وأدعو الشريفة للتحمل والصبر إلى أن قالت لي القابلة: جاء الجنين، ولد أيها الفقيه، لكنه ميت... كانت الشريفة قد دخلت في غيبوبة بعد كل الجهد الذي بذلت، فلم تسمع صرخات النسوة ولا بكاءهن، ولا رأت حزن الحاج بلمدني وتعاسته، قلت للقابلة: أكملي عملك.. خرجت إلى فناء الدار لأجد الحاج مستندا جدار المدخل شاردا متفردا بكآبته وسط هذه الجنّة الغنّاء، عزّيته في الفقيد وأوصيته على العناية بالشريفة، فقد يرزقهما الله بخلف إن شاء الله يعوض ما فات. جذبني إليه أو انجذبنا إلى بعضينا، لا أدري، وجدنا نفسينا متعانقين كأخوين، ثم تركته وانصرفت إلى بيتي.

تلت تلك الليلة أيام وليالي، طويلة كئيبة، قضيتها وحدي أتصرف في أعمال الحاج بلمدني شراء وبيعا وعقدا للصكوك، سلفا وإبراء للذمة من الديون، كنت أزوره ليلا في داره فأطلعه على الأمور الجارية وكيف سيّرنا دفتها في غيابه، كان يبتسم لي مشجعا محفزّا ويقول: ماذا كان سيقع لي لو لم تأت إلى جيني، أنت رسول من السماء جاء لينقذني. كنا ندخل أنا وإياه إلى مخدع الشريفة لزيارتها وعيادتها، فكانت تتلقاني بوجه تكابر كثيرا لكي تجعله بشوشا، لكن الحزن لم يفارقها لشهور طويلة، نحفت وهزلت خلالها حتى يئس منها كل من رآها، والحق يقال، كان الحاج بلمدني أتعس الناس من جراء ما وقع، ولهذا السبب أكبرته وبجّلته وعملت ما استطعت من أجل أن أحافظ على ماله وتجارته من الضياع والتلف والإفلاس.

151- البلاد الإسلامية والبلدان الأوربية.

فصل فيما جرت به المقادير بشأن هريرة..

هذا حادث وحديث نسيت أن أذكره في حينه، وليس مما أنسانيّه الشيطان، ولكني أجّلته لأفرد له مكانا خاصا في هذه التذكرة، وتفصيل ذلك أنني عدت يوما إلى داري، وكان ذلك بعد أربعة شهور من قيامي بمهمة الأمين على أعمال الحاج بلمدني، والشريفة قد ظهر حملها صُراحا، فوجدت أمة من نساء الحاج قائمة على التنظيف وترتيب الأثاث والفراش وغسل الثياب والأواني وطبخ الطعام. راجعت نفسي عند الباب، هل دخلت دارا غير داري، لكن جلبابي المعلق في وتد على الحائط يؤكد أنها الدار التي أقطنها، سلمت وسألتها، فقالت إنها مبعوثة لي من لدن الحاج والشريفة لتكون في خدمتي وتحت إمرتي وملك يميني كأمة جارية. عندما رأيتها مُقبلة نحوي لتسلمني كتابا بذلك من الحاج بلمدني، ثم وهي مُدبرة، تذكرت البيت الشعري الذي طالما ألهب عواطفنا ونحن طلبة بالقرويين تكاد تقتلنا لعنة التفاحة[152]، وهو القائل[153]:

هيفاء مقبلة، عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

كانت سمراء بلون فاتح بهيّ، رَبْعة القوام ممشوقة القد، خصر كاشح وعينان متنمرتان، فأسميتها من ذلك الحين "هُريرة"، قُطَيْطة مشاكسة تصلح للفراش والهراش، تموء حين تلعلع شهوتها، وتشب على أظافرها حين تستثار، انكحوا من السُمر القصار ومن البيض الطوال كما جاء في مأثور الأقوال، وقد كانت حقا مجدولة[154]، غانية[155]، معطالا[156]، زجاء[157]، دعجاء[158]، رقراقة الوجه كان الماء يجري فوق صفحته، أنوف[159]، فرعاء[160]، حييّة، رخيمة

152- تفاحة آدم وحواء وغواية الشيطان والخروج من الجنة.

153- قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير

154- مجدولة : منزلة بين السمينة والمشوقة، حتى قالوا: «أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب».

155- غانية : من استغنت بجمالها عن الزينة.

156- معطال : لا تبالي أن تلبس ثوبا حسنا ولا قلادة فاخرة.

157- زجاء : دقيقة الحاجبين كأنهما خُطا بقلم.

158- دعجاء : شديدة سواد العينين مع سعة المقلة.

159- أنوف : طيبة رائحة البدن.

160- فرعاء : تامة الشعر.

الصوت، رشوف[161]. جاءت في وقتها قبل أن أرتكب أم الكبائر، بعد ليلتين كنت قد أحببتها وولهت بها، كانت أول امرأة أدخل بها حلالا مطيّبا، كأن الحاج بلمدني قرأ خاطري وجال بنفسي فعرف خباياها بفراسته النفاذة وحدسه وطول معاشرته للخَلق من كل جنس. بعد شهر بالتمام والكمال فاتحتها في أمري وما جئت من أجله إلى هذه البلاد وما أنا سائر إليه فيما يقبل من الأيام بحول الله وقوته، وما عزمت عليه ولن أحيد عنه. أطرقت برأسها الصغير إلى الأرض دون أن تنبس ببنت شفة، عاجلتها بالقول: بعد أن يكتب الله الرحيل ويحين وقته، سأطلقك لتكوني في حل من أمري وسأعتقك لتكوني حرة، تفعلين بنفسك ما تريدين، وإن شئت أعتقتك اليوم أو غدا، قالت بتوسل، ليس اليوم، حتى يحين يوم رحيلك، أريد أن أبقى في ذمتك إلى آخر يوم تقضيه هنا، وبعده، ليفعل الله أمرا كان مفعولا. عاهدتها على ذلك، وعشنا أياما سعيدة طيبة، لم يعكر صفوها إلا حمل الشريفة ووضعها ومرضها، ولكننا لم نحرم أنفسنا من لذة الحياة ومتعة العيش.

رجع إلى ما كنا فيه مما جرى للحاج بلمدني..

بعد ما يقارب الستة أشهر منذ سقوط الجنين وتعافي الشريفة، أخذ الحاج بلمدني يُلمّح لي بإشارات حول عزمه مغادرة بلاد السودان، فمرة يقول: إن الذهب أو شك على النفاد، ومرة ثانية يدعي أن كلفة استخراجه وأجور الأنفار أعلى مما كان سابقا، وأن الغلّة لم تعد تعطي ما كانت تهبه في الماضي من منافع وأموال، بل إن ما يأخذه الآن حاكم البلاد وولاة الشرطة والعسس على طر يق التجارة أضحى مُكلّفا، يأكل من رأس المال وما اذخر من قبل. قلت له: ربما جئتكم في عام نحس أو أنني فأل شؤم، قال بعجلة: لا، أيها الأخ الكريم، حاشا لله، أنت قدم السعد علينا، حتى وإن ضاع منا المولود، لقد ابتهجنا كثيرا عندما عرفنا بأنني ولود، وكذلك الشريفة. الله أعطى والله أخذ. سيرزقنا سبحانه وتعالى في المستقبل بذرية حسنة، أدع معنا ربك يفرّجها علينا، رفعت كفيّ إلى السماء وتمتمت بدعاء ثم مسحت على وجهي وفمي. الأمور بدأت قبل مجيئك بأعوام

161- رشوف : طيبة الفم.

القهقرى إلى الوراء، والغلة تتراجع يوما بعد يوم، ومآل كل شيء أضحى وشيك الزوال، إن لم ينفد الذهب اليوم سينفد غدا، وأنا تاجر أعمل للتقلبات حسابها، والمغرب كما تعلم في اضطراب والقلاقل تعم الجبال والسهول، والعدو الكافر على السواحل وفي الجوار بمملكة تلمسان، وحرب تطاوين دوخت العقول وأربكت كل حساب، والبقاء هنا ـ وأقولها صُراحا ـ لم يعد مضمونا، والمكان لم يعد آمنا كما كان من ذي قبل عندما كانت الأوامر السلطانية تأتي من فاس ومراكش ومكناس، وعندما كانت الزكاة والعشور وأحمال الذهب تذهب كل عام إلى بلاد المغرب. في يوم أراه قريبا وقد يراه غيري بعيدا، ولكنني أدرى بهذه البلاد وأهلها، ستدخل جيوش النصارى وسيستقبلها الأهالي بالترحاب وسيُطرد كل مغربي أو يُقتل أو تصادر أمواله ويسجن... قلت متلهفا: وما العمل؟ أن يأخذ المرء حذره، والحويط من يهرب من النار قبل أن تندلع في بيته، ما الفائدة عندما تجدك النار نائما، أنا راحل يا ابن عمي عما قريب، ويُسعدني أن تعود معي إلى بلاد المغرب، فقد تعلقنا بك ـ أنا والشريفة ـ وستكون شريكا لي في كل معاملاتي وأعمالي ومخالطاتي. قلت بصدق: رافقتكما السلامة، أنت تعرف طريقي، وما أنا ممن يهرب من قدره، كم بقي لكم على السفر؟ قال: لا أدري، ولكن قبل أن تحل علينا السنة المقبلة إن شاء الله.

فصل في الكلام عن الإمام الدكالي..

حكايته غريبة، كلما تذكرته وأنا أدون مشاهداتي ووقائع رحلتي، لا أدري كيف يهرب من ذكره القلم وينفر الورق، وكأن بين تذكرتي وبينه خصام وشنآن. وها أنا الآن أفرد له فصلا كاملا ليمرح فيه كما يشاء ويذهب إلى أهله يتمطى فرحا وسرورا. كنت على الدوام، أي طيلة مدة مُكثي بجيني، حريصا على زيارة الدكالي، واسمه بوشعيب. عندما استلطفني واستلطفته أخذت أناديه "اشعيبة" وهو يناديني "لَعْبيدي". الغريب أيضا في صاحبي الدكالي أنه لم يسألني يوما عن اسمي، فقد اكتفى بالعبدي أو لعبيدي، ولا أعلم لحد الساعة ما الذي منعه من ذلك. حرصت دوما على أداء صلاتي الصبح والعشاء وراءه لألتقيه ثم أجالسه إن سمح الوقت لنا بذلك، ومع توالي الصباحات والمساءات أخذت

صداقتنا تربو وتكبر، وقلبانا ينفتحان على بعضيهما بوحا وعزاء وحزنا واشتكاء من الأيام وصروفها. حدثني بوشعيب الدكالي عن مولده ومسقط رأسه ببادية دكالة المتاخمة لإقليم عبدة ببلدة تسمى سيدي بنور على إسم الولي الصالح أبي النور. أرضها خصبة من نوع التيرس، تعطي غلة جيدة من القمح والشعير والذرة، ومن الخضر والفواكه الموسمية، درس بها القرآن وحفظه وأخرج السَلْكَة[162] مرتين ثم انتقل إلى أزمور ليتعلم قواعد اللغة العربية وأصولها وأساليب القول والخطبة ثم الفقه ودروس الوعظ والإرشاد، سألني إن كنت زرت يوما سيدي بنور، فأجبته بالنفي، لكن لي -قلت له- أحبابا هناك يسألون عني وأستعلم دوما عن أخبارهم. أما من طرفه، فقد زار أسفي وحضر دروسا بالجامع الكبير وأمضى عدة أيام بمدرسة الطلبة القرآنية حيث يقيم المجاورون من الطلبة الغرباء عن المدينة. كشفت له ذات يوم عن مكنوناتي، استمع إلي بصبر وأناة، حكيت له من أول معرفتي بالشريفة حتى وصولي إلى جيني واستضافتهم لي وخدمتي عندهم، وكنت كلما ألتقيه في الآتي من الأيام بعد ذلك، أحكي له طرفا مما وقع أو أشتكي لديه من العمل وثقله. لم يكن لي أحد غيره في جيني، لذا كنت أفتح له خزنة قلبي فأطلعه على كل شيء. عندما أوشكت إمارة الحاج بلمدني الذهبية على الأفول أسررت للدكالي بذلك. قال لي مبتسما: الكل في جيني يعرف ذلك، فعصر الذهب مقبل على السقوط والانقراض، وأعيان الوقت[163] هنا وفي تنبكتو يدبرون أمورهم لما ستأتي به الأيام المقبلات، ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد. قلت له: لم يكن في نيّتي ولا في خطتي المقام هنا إلى الأبد، فقد كنت سأرحل ذات يوم، وُجد الذهب أم نفد، قال: كنت أعلم هذا منذ اليوم الأول، فعلى وجهك أمارات الرحالة وهوس الرحيل، وفي عينيك جنون المخاطر الجوّال شداد الآفاق وراعي النجوم، هنا في الصحراء، وفي الصحراء وحدها يمكنك أن تقرأ خواطر الناس وهواجسهم ومخاوفهم وأمانيهم دون أن يتكلموا أو ينبسوا بحرف واحد، لن تحتاج في الصحراء عندما تتعلم لغتها وتصدقها الود وتبادلها الحب أن تسأل عن شيء أو تستفسر أحدا، الصحراء كتاب مفتوح يقرأه أبناؤها

162- السلكة: عند الطَلْبة حفظ القرآن والقدرة على استظهاره.

163- أعيان الوقت: المقصود الطبقة السائدة والمتنفذة في مرحلة معينة.

ومحبوها وكل من لاذ بها صادقا مسالما، لكنها نار وجحيم ومقبرة لمن دخل غير مُسَلِّم[164]، ولهذا عزّت وامتنعت عن الغزاة منذ قدم التاريخ، قلت له: أنا من أمة الصحراء، تجري في عروقي حبات الرمل، وفي أنفاسي صهد الصحراء، حتى لو سكنت بلاد الثلج التي يحكون عنها في بلاد الفرنصيص والنكليز. ما أخافه يا أخي هو قيد المكان، المال والمرأة وترف الحياة وارتخاء البطن والشره والطمع. قال: لن يُقعدك عما خرجت من أجله مانع إلا ما أراد الله، أنت غير أنا، منذ اليوم الأول قنعت بما وصلت إليه، ولم أبحث عن غيره، ولن أبحث عنه. أما أنت فقدرك الرحيل وحياتك على ظهر مطيّة تجوب بك الآفاق. قلت: وما قولك في هذه المرأة التي تسريت بها وأود زواجها على سنة الله ورسوله، قال: ليست مما يعيقك أو يمنعك، فهي لا تعدو أن تكون محطة في طريق طويل. كل واحد سيجد له طريقا للخروج من هنا، وسيأتي آخرون، مسلمون أو نصارى أو يهود، الأجناس من مختلف الأشكال والألوان تبحث لها عن موطئ قدم في بلاد العرب والمسلمين، والأخبار القادمة مع القوافل لا تبشر بالخير. الكل سيهاجر بعد أن ينفد الذهب أو يوشك على النفاد، فلم يأت أحد منهم حبا في سواد عيون جيني، إلا أنا، لن أترك هذا المسجد بدون إمام، ولن أموت -إذا قدّرني الله على ذلك- إلا بعد أن أترك إماما يخلفني، يوقد فتيلة الصومعة ويرفع الأذان ويؤم الناس ويعظهم بالتي هي أحسن ويحمي حمى الدين في هذه البقعة من الأرض. أما أنت أيها العبدي فأمامك طريق طويل وشاق لتجد ما تبحث عنه، أنا وجدت نفسي هنا وما وجب علي القيام به. قلت: عندما سألتك المشورة فيما يقع لي من أمور القلب والهوى بين الشريفة من جهة وجاريتي من جهة ثانية، لم أر منك فتوى تُريحني وتخمِد نار حيرتي. قال: صار بالبال[165] ما حكيت، ثم تابع كلامه بعد صمت قصير، الأمة مما جاز لك التسري بها شرعا، وعتقها أحب إلى الله ورسوله، فقد حظي بمنزلة الكفارة عن الذنوب والآثام، وأما أمر الشريفة

164- من التسليم، وقد درج المغاربة عند دخول المدن والقرى والأماكن المقدسة إلى الدعاء بالتسليم للمكان وأهله خوفا من أن تصيبهم لعنته (التسليم أرجال لبْلاد، أنا في عاركم أمّالين لمْكان..)

165- صار بالبال: من تعابير القرن التاسع عشر المخزنية ومعناها تقريبا (علمنا أمره – أحطنا به علما...) أنظر ظهائر ومراسلات هذه الفترة.

فما ابتلاك به الله ليمتحن صبرك وتقواك وجهادك أمام النفس الأمارة بالسوء، فكان أن استعصمت كما استعصم قبلك نبي الله يوسف عليه السلام أمام امرأة العزيز، وها أنت في نفس الموضع أمام امرأة فرعون جديد، الحاج بلمدني فرعون الذهب ببلاد السودان، هذه أمارة من الأمارات العُلوية التي وهبها الله إليك لتنير طريقك نحو ما تسعى إليه، قلت له: وأنت ألا تجيش نفسك بأشواق الرحيل إلى الينابيع الأولى لتكتشف الدين القيّم وتعرف أسباب تأخرنا نحن العرب والمسلمين؟! قال متنهدا متحسرا، بلى كم أريد ذلك، ولكن كما قلت لك سلفا، أنا هنا لمهمة لا تقل شأنا وشأوا عما قلت، فنحن معا على طريق واحد وإن سار كل واحد منا على جادة، لا يضر إن سرت أنت يمينا وسرت أنا يسارا، ما دمنا نسير على نفس الطريق. قلت بلهفة المحب: لن أنساك أبدا، أطرقت قليلا برأسي نحو الأرض وأنا أردد متلعثما ـ كعادتي في مثل هذا الحال ـ أنت أيضا علامة من علامات الطريق، بل أكثر العلامات جلاء ووضوحا.

فصل فيما جرى بيني وبين الشريفة..

لم تنقطع الصلة بيني وبين الشريفة خلال الخدمة مع زوجها في أعمال الأمانة والتجارة في الذهب واستخراجه، وما يلحق بذلك من مشاغل البيع والشراء والمستفاد[166] والمخالطة مع أشياخ القوم وأعيان بلاد السودان وحاكمها الكبير. كنت أحيانا أستدعى لبيت الحاج بلمدني أو يطلبني للمخابرة والاستعلام عن أمور التجارة، خاصة عندما يغيب عن بنيقة المحاسبة أو بمناسبة مأدبة ضيافة على شرف وجوه أصحابه الأعيان والقاضي وخلطائه في التجارة. عند ذاك ألتقي الشريفة وأجالسها بحضور زوجها أو في غيابه عندما ينصرف لعمل أو لقاء أحد على انفراد. وفي أحيان كثيرة أستدعى وأستقبل من لدن الشريفة ولا ثالث معنا. في كل هذه الأوقات والأماكن التي كنا نلتقي فيها، كانت الشريفة لا تُقصّر في الاحتفاء وإظهار البهجة والحبور. إن امرأة جاوزت الأربعين بقليل لازالت في ريعان الشباب والغضارة إذا كانت مُترفة تقوم على خدمتها إماء طيّعات ويأتيها

166- المستفاد: الرسوم والضرائب.

رزقها إلى سريرها، لا تشقى ولا تتعب ولا تُصوّح[167] شمس الصحراء الحارقة أو ريحها الجافة بشرتها فتكسوها بالتجاعيد أو تطليها بدكنة السواد[168]. كنت أخاف شيطانها أن يغويّني، أما شيطاني فقد كنت أصرعه بالقرآن والذكر والصلاة والصيام، وما خرجت من أجله، فهجرتي لله ورسوله، لا لامرأة أنكحها.

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام[169]

فكما عنى بالملوم نفسه، فنزهها عن اللوم والعتاب، وكذلك فعله، إذ سما بها فوق كلام القائلين، كذلك هذا العبد الضعيف كاتب هذه السطور. كنت أحس بأنني ما خُلقت لهذا، ليس تكبرا وغطرسة، وإنما جِبلة وفطرة وهاجسا خفيا وغادة خارقة الجمال لازلت أطارد طيفها. كانت تراني يوسف، وكنت أراها امرأة الفرعون، بجاهه وماله وذهبه وطول باعه وذيوع صيته في البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وما أنا قدامه إلا حصى أو نوى تمر يسحقه كل آن بنعله غير آبه ولا مكترث، لكن ليس ذلك ما يمنعني منها، إنما الذي منعني كان أكبر وأعظم وأجلّ، ما فطرت عليه وما ألهمته وما نفح الله به في صدري فعصمني منها ومن شبيهاتها، وإن كنت على غير صورة يوسف، فلا أملك جماله ووسامته وما خُلق عليه من آية حسنة، لكن الله يضع سره في أصغر خلقه، وليس كل فتّان للنساء بوسيم، ولا جميل كيوسف عليه لسلام. بكثير من الصبر والحيلة وقليل من الإدعاء والغطرسة تمكنت أن أتجنب كيد النساء وعنادهن المرير

167- تصوّح: تشقق، تجفف، صوّحته الشمس أو الريح: جففته.

168- اهتم الفنانون الاستشراقيون خلال القرن التاسع عشر بموضوع المرأة في العالم العربي والإسلامي، وخاصة موضوع «الحريم» : John Frederick Lewis يرسم لوحة سيدة ثرية «أروستقراطية» تقوم على خدمتها وصيفتها بينما الخدم على أهبة تلبية الطلبيات في قصر أندلسي الطراز والمعمار.

- نساء على السطح، منظر من المناظر النادرة للرسام

Rudolph Ernst (1854 -1932).

(سيدة مسترخية على فراشها بينما وصيفتها تعزف على العود)

Les Orientalistes . op.cité.p 73 et 227

169- البيت لأبي الطيب المتنبي من قصيدة قالها خلال مرض ألم به بمصر ومطلعها مَلُوكُما يَجّل عن المَلام ووقعُ فَعالهِ فوق الكلام (الديوان – ص 482 – ط 2005 – دار الجيل – مصر).

في أن يظفرن بما يُردن، مالا كان أو إنسانا، فالمرأة لا تعرف المُحال ولا ترضى بالفشل، كنت أساير هواها وأداعب خيالها وألاطفها وأراوغها بصنعة ولطافة، وأجعلها تعتقد أنني ملك طوعها متى أرادت وشاءت، فلا مبرر للعجلة، فأمامنا وقت طويل، وهو الأمر الذي جعلته مناط خطتي، إذ جعلت الكل يعتقد أنني مقيم هنا إلى الأبد، بينما كان أمر رحيلي ساعة أو يوما. ولا أخفي شيئا إن قلت إن هريرة خدمتني كثيرا، فقد أروت عطشي وشكمت نفسي وأعطتني من الحب والسعادة ما قوّى عزيمتي وإرادتي، فأصبحت الشريفة أبعد ما تكون عن هذا الذي هو بيني وبين هريرة، فقد كان تعلقا وتعالقا بين طرفين انجذبا إلى بعضيهما بقوة اللدون[170]، لا يفترقان إلا من أجل أن يتصلا ثانية، ولا يكادان يشبعان من بعضيهما البعض، ندان متساويان لا سيد ولا مسود[171]. أضحت الشريفة معلمة من معالم الطريق، أو صلتني إلى ما أنا فيه وعليه الآن، إنها المقدرات المقدورة الواجب خوض غمارها كما كُتب في اللوح المحفوظ، الحمد لله الذي ألهمني صواب الرأي وسداد الحكمة فأخرجني من الظلمات إلى النور ووضعني على الطريق الصحيح، لقد كانت لي راعية، بمالها تقوّيت وبتجارتها اغتنيت وبجاهها وصلت وبجمالها حلمت وببعلها تعلمت من أمور الدنيا وأحابيلها مالا أجده في مدرسة أو زاوية، فكيف تكون امرأتي وأكون رجلها بعد كل الذي كان، وقد كانت الهجرة مكتوبة والرحال مشدودة والطريق مرسومة والغربة محتومة، اللهم اسق عبادك وبهيمتك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميْت، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

170- اللدون: جاذب حديد مُمغنط.

171- ربما كان العبدي يرفض العلاقة / العاطفية – الجنسية مع الشريفة لشعوره الحاد بما تضمره من علاقة السيد / السيدة والعبد.

كتاب الجاهلية الأولى

ودِعْ هُريرة إن الركب[172] مُرتحل   وهل تُطيق وداعا أيها الرجلُ

والله ما أنا بِطائق للوداع ولا قادر على الصبر والتحمل، ولا سبق لي علم بالأمر عندما أسميتها «هريرة»، فلم يكن ببالي آنذاك إلا القُطيطة الأليفة المشاكسة، فإذا بها تطلع لي من بطون الشعر الجاهلي ومعلقاته، وقد حالت بيني وبينها صحراء وقفار وأميال من الرمال، أستظهر ما أحفظه من الشعر القديم، أسلّي به النفس وأروّح عنها، مسلما لناقتي زمام السير خببا وحذاء، كما أسلمت لي سنامها، وكأن المدة الطويلة التي فارقتني فيها لم تكن إلا ليلة واحدة أو ليلتين، هذه الألفة التي لا تنسى ولا تبلى عُراها، كيف تكون وكيف تنشأ بين الإنسان والحيوان؟ جاء ذكر هريرة شعرا ثم صار بالبال ما كان بيننا وسارت به الركائب حولي، فحكيت لها سرا مما أذكره ومما لست أذكره حتى اغرورقت عيناي بدمع البين والفراق. كانت تشق طريقها نحو «كَاو» بعد خروجنا من «تنبكتو» في السادس من شوال الخير لسنة ثمان وسبعين ومائتين وألف[173] بعد أن قضيت بها شهر رمضان المبارك، وقد كان خروجي من «جيني» قبل هذا التاريخ بحوالي شهرين وبضعة أيام، ولم تكن هناك قوافل معدّة للسفر بسبب اقتراب حلول شهر رمضان وشدة الحر وانحباس المطر، فانتظرت مع المنتظرين حتى جاء الوقت المعلوم، فتحركنا على بركة لله. كانت القافلة تسير قريبا من وادي النيجر، بل كانت أحيانا تسير بمحاذاته، الأمر الذي جعل من الرحلة نزهة في بلاد

172- الركب: القافلة، والركب لا يستعمل إلا للإبل، والبيت الشعري مطلع معلقة الأعشى المصنفة ضمن القصائد العشر بشرح التبريزي.

173- الموافق للسنة الميلادية 1861.

السودان، فلم نكن في خصاصة من الماء والطعام. كنا ننزل بين الفينة والأخرى أماكن معمورة آهلة، نتسوق ما نحتاجه، ويبيع بعض تجار القافلة ما عندهم، فضلا عن أن جلّ الرحل القادمين من «تنبكتو» يحملون معهم كميات من الذهب والتبر[174] يختلف مقدارها ونوعها من نفر إلى آخر، لكنهم كانوا يقتصدون ويكتنزون حتى الوصول إلى «كَاو». نزلنا أول الأمر في «كَبْرَة» وهي مدينة صغيرة على نهر النيجر تبعد عن «تنبكتو» زهاء أربعة فراسخ، بها مرسى للسفن المحمّلة بالبضائع والسلع القادمة من داخل السودان ومنها تنقل إلى غينيا ومملكة مالي، وهنا أيضا تلتقي أجناس مختلفة من السود للتجارة أو الذهاب نحو السودان الغربي. ومن هذا المكان الذي نزلنا به يتفرع نهر النيجر الكبير إلى مجريين قبل أن يصب في البحر الكبير. بيوت كبيرة كبيوت «تنبكتو»، لا يوجد بينها بناء من حجر. تغلب على الهواء هنا الرطوبة الخانقة بسبب مياه النهر والحرارة الشديدة، يأكل أهلها اللحم والسمك والزبد واللبن ممزوجا بعضها ببعض في طعام واحد، لذلك أصابتهم أمراض عديدة كالجذام والسل والحُمّى والتي تسببها أيضا كثرة البعوض. ولقربها من «تنبكتو» لم نمكث بها إلا يوما واحدا، لحق فيه بالقافلة مسافرون جدد، منهم من يقصد الحج، ومنهم من يقصد بلدة على الطريق أو الذهاب إلى «كَاو». كان معي من المال ما لم أحلم به أبدا، ذهب مسكوك ودر وصرر من التبر النقي، لم يُقصر الحاج بلمدني ولا الشريفة معي في شيء، أعطياني فوق أجرتي الكثير من الهبات، ومَنّا علي بعطايا جمّة من اللباس والمركوب[175]، كان يقول لي عندما يرى تمنعي وقناعتي بما عندي: أنت أهل لكل خير، وليس خسارة فيك ما أعطيك، لقد كنت أمينا تقيا ومحل ثقة، لذا تستحق أكثر مما منحتك. هل كان يلمح إلى عدم طمعي في الشريفة وعصمة النفس التي قابلت بها إغواءها حتى لا أقول طيشها؟ ربما.. الله أعلم بذات الصدور. بعد عشرة أيام من مغادرتنا «تنبكتو» حللنا بمدينة «كَاو»[176]، قطعنا ما بين أربعمائة وأربعمائة وخمسين ميلا، تفاجأت عند دخولها لما رأيتها غير مسورة

174- الذهب: الذهب المسكوك – التبر: مسحوق الذهب.

175- الأحذية والنعال.

176- سماها الوزان: كاغو وممتلكاتها (و.س – ص -169 ج 2).

ولا محصنة بأبراج ولا أسوار ولا قلعة، رغم أن بها قصر الملك وقصورا أخرى للحاشية ووجهاء البلدة، وهي قصور مبنية على الطراز العربي الإسلامي الأندلسي. أعيان الوقت من سكانها، تجار أغنياء يجولون المنطقة عارضين سلعهم، كما يأتيها أقوام لا تعد ولا تحصى من السود ومعهم كميات من الذهب ليشتروا ما يستورد من بلاد المغرب والبلاد الأورباوية. مدينة كبيرة وأرض خصبة ومراع خضراء وماشية وأنعام، البطيخ والبصل واليقطين وكثير من الخضروات التي نعرفها ببلاد المغرب، غير أن التمر يأتيها من واحات الصحراء. بالمدينة آبار وساحة كبرى للتسوق، يباع فيها العبيد أيضا. وللملك حرس من الفرسان والمشاة والرماة. وأما باقي السكان فمن الفلاحين وأهل البادية، يعيشون حياة الهمج والأغفال كالحيوان لما هم فيه من الجهل والغفلة، يكتسون شتاء جلود الحيوانات، ويعيشون صيفا حفاة عراة، نساء ورجالا، لا يستر العورة إلا خرقة ثوب صغيرة، إذا رأيتهم حسبتهم في عداد البهائم، أهل جهالة، لا قريحة لهم، كل من له إلمام بالكتابة والقراءة يظهر أمامهم كأنه وليّ مقدس، إذ قلّما يوجد فيهم من يكتب أو يقرأ، إن لم يكن معدوما، لهذا لم يجد الفقهاء العرب صعوبة تذكر في حملهم على اعتناق الإسلام. ولو أنهم أضحوا لا يعرفون شيئا عن دينهم، اللهم قول الشهادة. بعد أيام قليلة من وصولي إلى «كَاو»، وما أن نفضت غبار الرحلة وزال عني تعب الطريق وسرت العافية في جثتي، حتى ضاقت بي الحال في هذا المكان، وثقل علي الوقت الذي أقضيه بلا شغل ولا مشغلة[177]، فالقافلة التي أوصلتني توقف جل مسافريها في «كَاو»، وآخرون تابعوا طريقهم نحو الجنوب، ولم يكن أحد سواي راغبا في الذهاب إلى الحج، حتى الذين كنت أظن أنهم مسافرون من أجله، خيّبوا ظني ويمموا وجوههم نحو جهات لا أعلم إلى أين تؤدي. ربما خُدعت، فلكي يكون السفر إلى الحج ممكنا، لابد من وجود قافلة من نوع «أركَال» قادرة على عبور الصحراء والفيافي والقفار، ولا يبدو أن قافلة على هذا النحو ستكون على أهبة الاستعداد والانطلاق فيما يقدم من الأيام، بسبب ما يُشاع من غزو الجيوش الأورباوية للبلاد العربية والإسلامية، وما يقع من قتل وسبي ونهب وفرار إلى المناطق الصحراوية الآمنة

177- المشغلة والأشغولة: ما يشغلك.

التي لا يستطيع العدو الكافر التوغل فيها لما حباها الله به من منعة الطبيعة وشدة الحر، وقديما هزمت الفرس والروم وذو القرنين[178]. وبالمختصر المفيد قضيت هنا أياما، كان كل يوم فيها يمر عليّ، أدعو الله العلي القدير أن يكون آخر يوم لي في هذا المكان المنحوس. تعددت المرات التي أقوم فيها بحساب وعد ما بقي في حوزتي من مال ومتاع خوفا من النفاد، ولا مُعيل ولا سند لي في هذه القفار، وإذا نفد المال فمن أين لي بصوائر الرحيل. إن كل يوم أقضيه هنا، يُبعدني بمسيرة عام عن مقصدي ومبتغاي، حتى الغادة التي سرحت بي منذ خروجي من أسفي وقادت خطواتي لم يعد لها وجود ولا ظهور، وكأنها حلم لاح ثم اختفى، أو شبح من دخان سرعان ما بددته الرياح في الآفاق. لم أستسلم ولم أذعن، أستيقظ باكرا لصلاة الفجر، وبعده آخذ في السؤال والبحث بين التجار وأصحاب المراكب العابرة لنهر النيجر ورجال الحاكم وكل شخص أشتم فيه علاقة بالأسفار والقوافل أو من يرشدني إلى أحد من هؤلاء. عندما يئست من الخروج من «كَاو»، قررت الانتقال إلى مدينة اقرب مسافة من «أكَدز» أو في الطريق إليها. أشار علي العارفون بالسير محاذاة نهر النيجر حتى «أنسونكو» ومنها إلى «ميناكا»، وهي حقيقة الطريق المؤدية إلى «أكَدز» ببلاد النيجر. عندما دخلت «ميناكا» ندمت على خروجي من «كَاو»، فهي بلدة صغيرة على تخوم الجنوب، لا يخرج منها أحد مسافرا إلا إذا جاءته قافلة من «كَاو»، لكنني رغم ذلك استبشرت خيرا عندما زارتني في المنام الغادة المتخفية بالأسرار والطلاسم، كانت قريبة من رأسي، لم تتكلم، نظرت إليّ ثم اختفت. بعد أيام قليلة، وقد قارب مقامي العام منذ خروجي من «تنبكتو»، إلتمت قافلة صغيرة من عشرين بعيرا، يقودها دليل في الأربعين من عمره، قال لي ناصح من التجار بأنه مخالط لقطاع الطرق، يشاركونه أو يتركونه وشأنه، قلت له: لا يؤتمن جانبه. قال لي: وما يخيفك فيه، أنت فقيه فقير، لن يطمع فيك أحد، وربما يخشونك لأنك من حفظة القرآن وحَمَلته، وهم يخافون من غضب الله والأولياء لادعائهم بأنهم يأخذون من الأغنياء والمتجبرين ليعطوا إلى الفقراء. قلت: إذن على بركة الله، خرجت بنا

178- الإسكندر المقدوني المدفون بصحراء سبوة بمصر.

القافلة[179] في الحادي عشر من ذي القعدة لسنة تسع وسبعين ومائتين وألف[180]. بعد صلاة الفجر التي أممت فيها جماعة المسافرين مختتما بدعاء مؤثر بليغ ليحفظ الله قافلتنا من كل سوء ومكروه وأن يُنجينا من الآفات والمصائب وأن يرزق دليل قافلتنا القوة والعزيمة والشجاعة وأن يكتب له هذا العمل في صحائف حسناته ويوم نلقى الله، في يوم لا ينفع فيه المرء إلا عمله الصالح وما أنفقه في سبيل الله من مال وصحة وعمل، عندما أنهيت الدعاء ساد صمت مطبق لفترة غير قصيرة، كان كل نفر خلالها يقرأ أو يتمتم بما يخالج نفسه من هواجس أثارها الدعاء بمناسبة السفر والرحيل وما يقع للإنسان من بعد وفراق أو ما يصادفه من أهوال ومخاطر. نظر إليّ الدليل طويلا، نظرات لم أتبين في الحين مقاصدها، لكنه بعدها عاملني باحترام وتوقير. لم أفلت من يدي هذا السلاح، إذ كنت كلما قرب وقت الصلاة، بادرت بالأذان، فيقوم الناس للوضوء أو التيمم ثم الصلاة. كنت طوال الرحلة، فوق الراحلة أو راجلا أو قاعدا أو متكئا جُنُبا لا أنفك أردد الأذكار والأوراد وأرتل القرآن ترتيلا وتجويدا، استأنس القوم بذكر الله وطابت أنفسهم لمحبته وكلامه "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله". أحبني الطيبون وخافني الخبيثون، لكن الدليل لم يظهر خبثا ولا سفاهة أو دناءة، ظل صامتا يقوم بعمله الموكول إليه مع أربعة من معاونيه على خير وجه وأتمه. بعد ثلاثة أيام من المسير في طريق نعمنا فيها بآبار ماؤها عذب دخلنا بلدة على محدة[181] مملكة النيجر لنصعد مُشرّقين جنوبا صوب وجهة القبلة، متجنبين الطريق الذاهبة إلى "كاتسينا" و"كانو" والتي سار فيها الرحالة السابقون، ليعودوا بعد ذلك إلى الصعود شمالا نحو "أكدز"، وهي الطريق التي تسلكها قوافل التجارة الصحراوية. أما قافلتنا نحن فلم تكن قافلة

179- الرسام Horace Vernet (1789-1863) يقدم في لوحته «رحلة في الصحراء» (1843) ومقاسها 48x58cm صورة حيّة لمقدمة القافلة، حيث يتقدم الدليل وخلفه معاونوه وأمامه راجلا الكشاف الذي يستطلع وهو يشير بيده اليمنى إلى شيء ما لا يظهر في اللوحة. انتباه الدليل كله مع الكشاف.

(Les orientalistes. Op. cite. P44)

180- الموافق للسنة الميلادية 1862

181- المحدة: الحدود.

تجار كبار لهم وزن وعيار ثقيل يقود "أركَال" ومعهم عسس وحرس وإمام وعدول، وإنما كنا جماعة من صغار التجار والمسافرين. أوعز إلينا الدليل باختصار الطريق والالتفاف كسبا للوقت والماء والميرة[182]، ولم يكن أمامنا من سبيل إلا الرضوخ وشق الطريق وسط واد مقفرة لا ماء ولا زرع ولا سحابة تظللنا إلا من أشواك وطلح وبعض شجيرات الرتم هنا وهناك، كنا نستظل بالصخور، فنمد فوق رؤوسنا عباءة أو ثوب لحاف نقبع تحته، ويوما بعد يوم أخذ الماء يقل ويُنذر بأن الأسوأ آت في مقبل الأيام. كنا نتحرك ليلا، نسري تحت ضوء القمر أو النجوم، وحتى في غيابهما، فقد كان الليل صافيا، تعودت فيه عيوننا على الرؤية والإبصار، ومع الفجر نتوقف للصلاة والفطور والنوم. بعد عشرة أيام على خروجنا من "ميناكا"، سبعة منها سلخناها بهذا القفر الوعر، أخذ الإعياء والمرض والحمى وتشقق الجلد وتفسخه في الظهور لتلحق بها الأورام المنتفخة بالصديد والشقيقة وصداع الرأس، كل ساعة تصيب نفرا منا. وكم مرة كاد الدليل فيها أن يتخلص من أحدنا في الخلاء بسبب عجزه عن المسير أو لتفاقم مرضه، وخلال هذه المدة مات ثلاثة من الأنفار بالحمى والصهد. لم أدخر جهدا، فقد حضّرت أعشابي الطبية وما أمتلكه من عينات موصوفة عند الحكماء، كما كنت أتنقل بين الأحراش فأنتقي النباتات الصحراوية كشجر الطلح والداد وهو نبات سام لكنه يستعمل بكمية مقبولة ومقدرة تقديرا لتسكين الآلام والتخفيف من حدتها، ونباتات أخرى لم يكن لي بها علم سابق، فأخذت منها عينات لأجربها وأختبر فائدتها. توليت إسعاف من أصيب بما أقدر عليه، تعافى بعضهم لقبول أبدانهم الدواء، ومات آخرون لضعف أجسامهم وحاجاتها إلى عقاقير ليست بأيدينا. استاء الدليل منا واستشاط غضبا، رمى القوم بالضعف والفقر، ولام نفسه عند ما قبِل أن يترأس علينا ويقود قافلتنا، ولو كان يعرف ما سيقع لما أقدم على ذلك، ومما كان يقول: فلوسكم قليلة، وتعبكم كثير، وطعامكم ناشف، لا مرق ولا حلاوة ولا طعم. أنهكنا التعب وأضنانا المرض والحر والدليل الجَلْف. نمنا ذات ليلة تحت أحراش شعب بواد ذي حجر كبير، ربطنا دوابنا وجمعنا حوائجنا وسط الساحة، استيقظ أولّنا عندما حطت جرادة

182- الميرة: المؤونة.

على رجله المنتفخة ورما، صاح صيحة اهتز لها الوادي فأعادها الصدى مضاعفة، قمنا فزعين نبحث عن أمتعتنا ودوابنا، كان المكان قاعا صفصفا، شردنا نحملق في بعضنا البعض، تفرقنا على جنبات الوادي، شيعنا كل الطرقات والبراري المحيطة بنا، لا أثر ولا وقع، الرمال تحمي كل شيء، تذكرت التاجر الذكي الذي قرأ من الآية "ويل للمصلين..." وتوقف. لم يكن في أمتعتي شيء نفيس أو غال، فلم يأخذوا منها نقيرا، لكن الناقة سلبوها، أما مالي وذهبي ففي حزام السرة وفوقه أثواب ذات مسد. بعد يومين عصيبين قضيتهما في مداواة الجرحى عزمت على الرحيل فجر اليوم الثالث. كان أليما وثقيلا على قلبي ترك هؤلاء بهذه الصحراء المُقفرة الغبراء، لكنني لو مكثت بينهم فحتما سأنتهي نهايتهم. إنهم في يد الرحمن علام الغيوب، وقد تدركهم رحمته، إن كان مقدرا لهم ذلك، أخذت معي ما خفّ علي حمله في جراب كبير وضعته معلقا في منسأة على كتفي حتى يخف قليلا ثم توكلت على الله وضربت في الفيافي. وجدت نفسي وجها لوجه أما الشمس والرمال والحر والخوف، وحيدا بلا عون ولا سند ولا رفيق ولا سابق تجربة أمام هذا الخواء الفارغ الذي يطن فيه الصوت كالضرب على الطبل الأجوف، لكنه ممتلئ حتى الحواف بآلاف الأصوات غير المسموعة والكائنات اللامرئية. تركتهم عند الفجر وخرجت، كان هذا يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام لسنة تسع وسبعين ومائتين وألف، بعدها لم أعد قادرا على ضبط الأيام وتواريخها. كان الليل والنهار سيّان عندي، والكتابة، لم أكن مقدورا عليها، ولم يبق في ذهني إلا القرآن المحفوظ أردده وأتمتم بآياته وأتعوذ بها وبعض أبيات من الشعر من هنا وهناك تلوح ثم تغيب، والله لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري والمريخ الناري فوق رأسي والبحر أمامي والصحراء خلفي على أن أعود دون لقاء الغادة الساحرة الغامضة، ما فعلت ذلك ولا تركته. سوف أواصل الرحيل لوحدي حتى لو امتلأت الأرض بالشياطين والأبالسة والجن الأحمر. مرت عليّ أيام وليال طويلة، ما كنت أعدها ولا أنا بقادر على ذلك. نسيت الزمان ومواقيت الصلاة، نفد الزاد والماء وما كان معي من قوت، لم أعد قادرا حتى على حمل متاعي، فأخذت بالتخلي عنه شيئا فشيئا، لم يبق معي إلا ما خف حمله وبخس ثمنه، جلابة صوف، قميص اسوَّد بعد بياض، نعل لا ينتسب إلى شجرة الأحذية،

جراب فارغ إلا من أوراق وحبر وأقلام قصب وحبال وسكين وأشياء أخرى لم أعد أذكرها. آه من قلة الزاد وطول المسافة ووحشة الطريق، نسيت لون الطعام الشهي ومذاقه، وعذوبة الماء وزلاله، وحلاوة الفاكهة وطراوتها، ومنظر الخبز الطازج قمحا كان أو شعيرا أو ذرة. واحرقلباه عندما تراودني ذكرى ما مر بي وتنثال على فكري صور ما عشته وأنا أجري وراء الثعابين والضب[183] والجراد والورل[184] لأصطادها ثم أشويها، رُفع عني رعب الثعابين والأفاعي، بل صرت أطاردها وأصطادها وأفتش عنها في جحورها وشقوق الجبال وفجاجها، أضحيت عدوها وصائدها، فلم تعد تقربني أو تمر بطريقي أو تزور فراشي ومضجعي، أنا وحدي أبحث عنها، كان طعامها لذيذا وشهيا، أجز الرأس وأدفنه، وأسلخ جلدها، نشرت بعضه، فصنعت منه حزاما وغطاء للرأس، كل ذلك، ولم أخرج عن نطاق الشرع، فأكل الثعابين والأفاعي غير محرم لا بنص القرآن ولا برواية الحديث ولا برأي أهل السنة والجماعة. كان لكل نوع مذاقه الخاص المميّز الذي صنعته له بتخيلي طعوم المأكولات التي أحبها أو تذوقتها أيام العز والهناء، كنت ألتهم الثعبان بينما تتصاعد منه رائحة الخروف والشواء أيام عيد الأضحى، وللضب والورل طعم ورائحة الأرانب. تجرعت البول بينما لساني يتذكر مشروب الحليب بالقرفة، نقبت عن عيون الماء ومواطن الآبار مستهديا بما تجمع لدي من مرويات وأخبار وقصص قبل رحيلي، كل ذلك لم ينفع أمام هذه الأرض الموات التي كنت أتعارك فيها مع ثلاثة أعداء كما يقول أهل الصحراء، الذئاب والأفاعي وريح القبلي، أما الماء والحر فهذا شأن آخر، التمر هو الكنز الذي لا يفنى، فسبحان من سخره لأهل الصحراء، أحياني وأبعد عني الموت،حتى مص النوى يُشبع ويُطفىء الغلّة. تعلمت تحويل الجوع إلى فكرة أو خاطرة لأخلص إلى أن الشبع هو الفكرة التي ينبغي علي ملء رأسي بها حتى أشبع . تيمّنا بالغيب وما يخفيه ويضمره من خير، لم أتخل عن الزمزمية[185] ولا

183- الضب: يعيش في القفار، طوله ذراع رجل، وعرضه أربعة أصابع .

184- الورل: حيوان يشبه الضب إلا أنه أكبر منه، سُمّه في رأسه وذنبه، لونه قبيح وشكله كريه (الوزان: م س ص 274ج2).

185- الزمزمية : الإناء أو القارورة التي يحفظ فيها الماء خلال الرحلات أو في الصيد وعند الجنود.

عن المخلاة[186]. لا أثر لحياة سوى رمال صفراء مترامية الأطراف تفُح صهدا لاهبا يحرق الرأس ويلسع العقل ويُشيّط[187] القلب، مررت بأطلال وخرائب وآثار قوم سكنوا أو مروا من هنا، لكنني لَم أكن كامرئ القيس لأقف وأستوقف الصحب وأستنطق الآثار، وأبكي وأستبكي من معي، فلا أهل لي ولا أحبة هنا وليس معي أحد، إنسانا كان أم حيوانا، وحيدا في القفر والفلاة، لكن ما أرعبني قبر بهذا الخلاء الفسيح، ومن سيواري جثتي الثرى ويقوم بغسلي وتكفيني والصلاة عليّ، أرعبني ذكر الموت عندما رأيت قبورا تكاد تندثر بهذه القفار، هؤلاء محظوظون، وجدوا من يتكفل بهم، لو مُت ستذروني الرياح وتطمرني الرمال، قبور متوحدة وحيدة[188]، ضاعت شواهدها كما ضاع أصحابها. لا حد لمرآى البصر، رمال فوق رمال وراء رمال، لا ماء ولا شجر ولا ظل إلا ظل الله، أسري[189] ليلا بلا دليل ولا هاد متتبعا حركة النجوم وما تعلمته من دروس الفلك والتقويم ومواقيت الصلاة ومواقع البروج، وبالنهار أرصد حركة الشمس شروقا وظهرا وغروبا وأجتهد في تحديد درجات وجهة القبلة، ولا أعلم إن كنت على صواب أو خطأ، فلم أخرج بعد من هذه الفلاة لأعلم علم اليقين، وما عليّ إلا مواصلة السير. ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، أخذت أتحول إلى شيء آخر، فاجأني ذلك أول الأمر، ولكنه أصبح مألوفا، فقد خطر لي أن أقلد نباح الكلاب وأن أستنبح في الليل، لعل كلابا قريبة مني تستجيب لنباحي، دليل قوم تحرسهم كلابهم وتمنع عنهم وعن أموالهم وماشيتهم اللصوص والسباع والذئاب. وقد كنت ممن يلتمس القِرى[190] فلم أر بالليل نارا، نبحت وعويت آملا أن لا يقع لي ما هجاه الشاعر بقولِه[191]:

186- المخلاة: ما يوضع على الكتف كجراب أو في عنق البهائم للعلف.

187- من الشيّاط بمعنى الحريق.

188- جسد هذه اللحظة الرسام الفرنسي Narcisse Berchère(1819-1891) في لوحته قبور في الصحراء«1859 20x24cm)) شاعرية المكان حين تحول إلى مزار ومحطة توقفٍ واستراحة للرحل. Les Orientalistes Op cite P95

189- سرى، السرى، السراة: السير والسفر ليلا.

190- الضيافة والإقامة.

191- الجاحظ: الحيوان ص 384 ج 1 تحقيق عبد السلام هارون، بدون تاريخ، مصر.

قوم إذا ما استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهِّمْ بولي على النّار

لست أعلم كم عدد الأيام التي تخليت فيها عن لساني العربي واكتفيت بالنباح حتى كدت أفقد إنسانيتي وأتحول إلى حيوان، وقد اخترت الكلب[192]، فقد كان رفيقا لي ببادية عبدة واحمر. وكان يوما عصيبا، ذاك اليوم الذي لن يُنس، ولن ينمحي من الفكر، اسود نهاره بالعواصف الرملية والأتربة والحصى والأعشاب اليابسة وسعف النخيل المتطاير، من أين جاء هذا كله؟ رميت عليّ جلبابي واستندت صخرة عظيمة، وضعت رأسي بين رجلي وقرفصت مختبئا في جوف صغير من الصخرة، لكن ظهري كان سندانا لمطارق العاصفة الهوجاء وللرياح التي تجلدني بدون هوادة، ريح زفزاف[193] لا تكل ولا تمل من الهبوب عليّ من كل حدب وصوب وكأنني كنت في عين الإعصار. وكان حتما أن تأتي ساعة نفاد قوتي وضعف حيلتي، كنت حينها أرنو إلى قمة جبل على مرأى البصر، شارفت على الوصول إليه، لكن عزمي خار وعظمي ثقل، حينها بدأت أنزل السلالم إلى غياهب الظلمات رويدا رويدا، وتغيب المعالم والرسوم عن ناظري، وجاءت لتحضنني إما بالحياة وإما بالموت:

وزائرتي كأن بها حياء   فليس تزور إلا في الظلام[194]

هي الحمى القاتلة في هذا القفر القاتل الموحش، رأيت نفسي أستحضر المتنبي دون غيره، كم كان حبيبا صدوقا ناصحا ومعلما مرشدا:

ذراني والفلاة بلا دليل   ووجهي والهجير بلا لثام

على دربه سرت، فعانقتها وبادلتها الوصال وأوسعت لها في الفراش:

بذلت لها المطارف والحشايا   فعافتها وباتت في عظامي

192- للمزيد من الإطلاع حول موضوع التحول من الإنسان إلى الحيوان أنظر: عبد الفتاح كليطو «الكتابة والتناسخ» ص 114 وما بعدها. ط 1985 – 1 – المركز الثقافي العربي، المغرب.

193 - الزفزاف: الريح الشديدة الهبوب في دوام. (هل اختار محمد زفزاف هذا اللقب لهذا المعنى، إن فعل ذلك فقد أصاب فعلا).

194- ديوان المتنبي ص 482 م س.

استحليت الغيبوبة الهادئة وهي تقودني إلى العوالم الأخرى، وكان الشعر كتابي والمتنبي رفيقي وحادي روحي إلى الملكوت. بهتت الصور وتلاشت وفارقت الحياة الدنيا. استفقت على لسع صفعات خفيفة على وجهي ويد تخضني برفق ولين، وصوت ناطق بلغة عربية يستنهضني يطلب بإلحاح شديد أن أستفيق، وما أنا بقادر، كنت أفتح عيني ثم أغلقهما، أكاد أفيق لكن الهاوية تجذبني إلى الأعماق، ومع الإصرار والتشديد علي بالإفاقة، فتحت عيني وقاومت كثيرا لتظلا مفتوحتين، رأيت وجها يبتسم ويدا تمسد جبهتي وأخرى تقدم لي مغرفة صغيرة من الماء. جاءني الصوت يقول: تروَّ في شرب الماء، ثم بخرقة مبللة مسح على وجهي المعفّر بالرمال والأتربة والغبار والعرق، كنت أخرج لساني كلما اقتربت الخرقة من فمي فألحسها وأمص الماء، كان يضحك في شكل ابتسام ثم يسقيني مغرفة أخرى ويعصر الخرقة ثم يمر بها على وجهي مرة ثانية، فأخرج لساني لألعق القطرات المتسربة على وجهي، وأطلب السُقيا. كان الصوت يطمئنني ناصحا: تروّ في شرب الماء وإلا ستموت، لن تتحمل شرب الماء دفعة واحدة، سأسقيك مغارف الماء على فترات، مغرفة، مغرفتان، ثلاث، أربع ... وهكذا دواليك. المغارف على قلتها أعادت إلي شيئا من الحياة، لكن الصوت جاءني مرة أخرى: ما تحتاجه الآن شاي ساخن، ثم قرب مني مغرفة، الشاي أفضل لك من الماء البارد، وجاءني بثوب طويل مبلل بالماء، لف به رأسي، فهدأ الصهد الذي يسكن جثتي. قال الصوت برقة وحنان: عليك الآن أن تنام قليلا وبعد أن تفيق بمقدورك أن تتناول الطعام. لم أكن أرى إلا الصوت، كنت أسمعه وأراه، أما صاحبه فغير منظور، أتصور خِلقته، أصابعه الرقيقة الناعمة، لا خشونة ولا تشقق فوق أنامله، صوته هادئ، صاحبه يفكر قبل أن ينبس ببنت شفة، كلمات قليلة لكنها مُعبّرة مُبلّغة، موفية بالمعنى، لعله مثلي، غريب الدار والوجه واليد واللسان[195]، خلت نفسي حينها أنني في حضرة ملاك أو جنيّ، لا جسم ولا شكل له. لكن النوم غلبني وأنا أنافح لأرى الجسد

195- إشارة إلى البيت الشعري لأبي الطيب المتني: ولكن الفتى العربيّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان (الديوان. م . س ص 541)

الذي يتكلم ذاك الصوت. لا أعلم متى استيقظت، لكني أتذكر أني أفقت جائعا ظمآنا، كنت داخل كهف أو مغارة، فتحة صغيرة لعلها الباب كان ضوء خافت يدخل منها، سرعان ما ظهرت قامة طويلة حولت الضوء ظلاما بعد أن سدت الفتحة الصغيرة، كلما اقترب مني تسرب شعاع من الضوء ينير المكان ويظهر هيكلا آدميا ذي بشرة بيضاء لوّحتها الشمس فاسمرّت[196] قليلا. كان يلبس جلبابا خفيفا بُنيا داكنا لعله من وبر الإبل، أثار فضولي قُبُّه الصغير، اقترب مني مبتسما متهللا وقال بنفس الصوت الذي كنت أسمعه وأراه، سأعد لك حساء يعيد لك قواك وصحتك. ارتكن جانبا وأخذ يُوَرّي الزند[197] حتى خرجت ناره، فاستعان بخرقة دسها تحت كومة الحطب، اشتعلت النار حتى عظمت فوضع فوقها قدرا صغيرا بغطاء، علا غليانها وبخارها، رفع الغطاء ونظر داخلها بعينين تحاولان تجنب البخار، ابتسم قائلا: استوى الحساء، طلبت ماء، فقال: الحساء أولا، لم أرد، لأنني لم أقدر على الكلام، لعله كان يعلم ذلك، فقد ابتسم مرة أخرى وهو يقول: جسمك لا يتحمل الماء البارد بعد طول عطش، تحتاج إلى قوة وغذاء قبل شرب الماء. استرد بدني بعض عافيته مع مغارف الحساء، كانت حسوة[198] الشعير هذه ألذ ما استطعمت في حياتي من أصناف الحساء والحريرة. طالت رقدتي أياما، كنت أتناول خلالها طعاما كله أشربة مطبوخة بالشعير أو القمح أو القطاني كالعدس والحمص واللوبيا البيضاء. لم أكن أخالط الرجل الذي استضافني في كهف إلا وقت الطعام أو حلول الليل. كنت راقدا عاجزا عن المشي، فلم أحط علما بمكان خروجه ولا أين يمضي كل هذا الوقت، لكنني بحمد الله وقوته تعافيت واستعدت صحتي، فقمت واقفا أول الأمر، ثم مشيت قليلا داخل الكهف، ثم خرجت لأقضي حاجتي هذه المرة بعيدا عنه. حملقت في الخلاء الشاسع، هاهي الصحراء التي توهتني ودوختني وكادت تقتلني تبدو لي خلابة وجميلة، تظهر بلا محدة كأنها الكون، والكل فيها يبدوا صغيرا، حتى أهلها العارفون والمُخبرون سرها يتيهون ويضلون وقد يموتون عطشا أو

196- يقصد تحولت إلى السمرة.

197- ورّى وأورى الزند: أخرج ناره، والزند العود الذي تُقدح به النار.

198- تقرأ «حُسوة» أو «حْسَوَّة»، كما تنطق باللهجة الدارجة المغربية، ولعلها المقصودة عند العبدي.

بفعل الصهد والحر، لا أحد يتعالى على الصحراء وجبروتها، ولا أعلم لماذا خلق الله الصحراء ثم خلق العرب وجعلهم أكثر سكانها، وماذا خلق فيها من الأرزاق غير النخيل والرمال وبعض الواحات، لكنها لازالت تحمل أسرارا وتخفي أكثر مما تُعلن. قبيل الغروب، والذي يأتي متأخرا في الصحراء، وقد كنت قاعدا بالوصيد[199]، رأيت صاحب الكهف قادما يشق الرمل بقوة ورجلاه تكادان تغوصان في الرمل، واضعا على رأسه قبعة غريبة الشكل، مستديرة حول رأسه كالصحن المدور وعالية من وسطها، لا هي بالطربوش ولا هي بالطاقية، كانت مما يسمونه بالبرنيطة[200]. عندما اقترب مني تبينت ملامحه، كان نصرانيا من بلاد الروم[201] وفي الحال ورد علي صوته بلكنته العُجمية وضعف اصاتته حرف العين، لما وقف أمامي على بعد خطوة واحدة، هش وبش فرحا وسرورا بخروجي إلى الهواء والشمس، وقفت محييا وشاكرا فضله ومسعاه، مشددا على يده وحانيا رأسي بالتقدير والتبجيل، فقد أنقذ حياتي وأنا مدين له بهذا الفضل بعد الله سبحانه وتعالى، ولو شاء ربك لقدّر رجلا مسلما مؤمنا، ولكن شاء صدفة هذا اللقاء، فله الحمد والشكر.

استدراك..

قبل أن ألتقيه كنت قد تجولت في الكهف، وكانت المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك. رأيت به عتادا مما يستعمله البناؤون للحفر وإزالة الأتربة وكسر الحجر، لكنه كان دقيقا وعجيبا في صنعته، ووجدت قبعة افرنجية مما كنت أرى لباسه عند الأعاجم بمرسى أسفي، فهل جازوا المراسي والسواحل ومدنها فتوغلوا في الصحاري؟ وعم يبحثون؟ الذهب بدون شك؟ وهذه الآلات الكثيرة لا يقدر عليها نفر واحد.

199- الوصيد: باب الكهف «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» سورة الكهف الآية 17.

200- البرنيطة: من الإيطالية berretta وتعني في اللهجة العامية المغربية كل أصناف القبعات التي يضعها الأوروبيون فوق رؤوسهم على اختلاف أنواعها (رحلة الصفار: م س هامش 13 ص 182).

201- يقصد بها أوربا المسيحية، والنصارى تطلق على جميع الأوربيين (رحلة الصفار: هامش 21 ص 97).

رجع إلى ما كنا فيه..

نزع قبعته وجلس بجواري على صخرة نابية كالمصطبة أمام الكهف، وقال: لعلك مستغربا وجودي هنا، وماذا أصنع في هذا الخلاء الفسيح؟ ابتسمت ترحيبا بابتداره الكلام، وقلت: كن كيف ما شئت، أما عني أنا، فإنني أشكر الله أن وضعك في طريقي لتنقذ حياتي، ولا تفسير لي لوجودك إلا ما قلتُ، أما ما جئت من أجله، فهذا يخصك وحدك. قال واثقا: أنا لم أفعل إلا ما يجب علي فعله رغم اختلاف الدين والجنس واللون، قم بنا الآن إلى الداخل، هذه أمور سيحين وقت الجدال فيها عندما تصح وتبرأ. دخلت الكهف وقلبي لا يطاوعني ولساني يكاد ينفلت من عقاله ليتحدث أو يصرخ، هل أنا في دار الكفر أم في دار الإسلام؟ أم في أرض خلاء لا راعي فيها، واستحضرت في ذهني ما قاله تقاة المسلمين عن الحرص في استيفاء الشروط التي تستوجب السفر إلى بلدان غير مسلمة، فلا تشد الرحال إلا إلى الأماكن التي تقيم بها الجماعة المسلمة دون غيرها، والهجرة في الهروب عن دار الكفر واللجوء إلى دار الإسلام. وها أنذا في كهف النصراني كمن هاجر ودخل وسكن دار الكفر، ولكنني دخلت إليه محمولا على كتفيه، مغمى عليّ، غير واع بين الحياة والموت، إن لم أكن في الرمق الأخير. وما صنيعه معي، من عناية ورعاية وطبيخ وطبابة إلا من أفعال المؤمنين بالله، وإن لم يكن على دين الإسلام. ثم قلت لنفسي: نحن في الصحراء، ولسنا ببلاد الروم، وهو الذي دخل دار الإسلام، فكأنني أغلقت بالترباس بابا في وجه الريح الهوجاء. وضع جرابه على الأرض وأخرج منه قمحا وذرة وتمرا وجرة ماء وأشياء أخرى لا أذكرها، عندما رأى علامات التعجب على وجهي، قال: قريبا منا على مسافة ميلين قبيلة إفريقية، أذهب كل يوم لتطبيب رجالها ونسائها وأطفالها ومساعدتهم على تنظيم معاشهم الفلاحي والتنقيب عن الماء وحسن توزيعه وأمور أخرى، قلت صائحا: هل هناك ماء بهذه الناحية؟ ضحك وقال: قبل أن يغمى عليك، كنت على ميل واحد من بئر ماؤه عذب، وعلى بعد ميلين من عين جارية بالقبيلة الإفريقية المذكورة، فقلت سبحان الله، أراد لي ما أراد لتنقذني ونلتقي معا، قال: لعل في هذا حكمة لا يعلمها إلا الرب؟ قلت: أتؤمن بالله؟ قال: ربنا واحد، وكل منا يعبده بطريقته، قلت: وأيهما أفضل؟ قال: لا مفاضلة بين الأديان،

أعلم أن الإسلام ذكر المسيح بخير واعترف بنبوته وبالإنجيل كتابا للمسيحيين، بل بكل الأنبياء، قلت صحيح، ومن علمك ذلك؟ قال: أنا رحالة جوال، جوّاب قفار وصاحب أسفار، واجب علي أن أحترم وأوقر أديان الآخرين وأتعامل معهم بالحسنى، أوليس هذا ما يقوله دينكم؟ قلت: بلى، قال: أتريد أن تشاركني إعداد الطعام؟ قمنا معا، خرجت لأحتطب ما يكفينا، رمى إلي بفأس صغيرة وشاقول من نفس الحجم، فقلت متسائلا: ماذا تصنع بهذه الأدوات والآلات؟ نظر إلي بارتياب وقال: أكنت تفتش متاعي؟ قلت: لا، ولكن متاعك معروض أمام كل من يدخل الكهف، فما بالك أنني قضيت أكثر من أسبوع، قال: عشرة أيام، قلت: ها أنت تقولها، ما أظن أنني اقترفت جرما، وإلا كان عليك أن تضع عصابة على عيني قبل أن تخرج، ضحك حتى بدت نواجذه وقال: ما كنت أعرف أنك لماح سريع البديهة، أسبق لك التعليم والتدريس، رأيت معك أوراقا وأقلاما وحبرا.. قلت مبتسما: أنت أيضا فتشت متاعي، قال بسرعة: لا أنا حملتك وحملته معك إلى الكهف، قلت: أين هو؟ لم أره منذ أغمي عليّ، ظننت أنني ضيعته في الصحراء، قال مواسيا: لا، هو في الحفظ والصون، آتنا بالحطب قبل أن تحل الظلمة.

بعد العشاء، تمددت على فراشي مسندا ظهري على حائط الكهف، كان يكتب في أوراقه بقلم دقيق، في رأسه شوكة حديدية صغيرة دقيقة كرأس الرمح، يغمسها في دواة حبر أسود لها مغلاق[202] من الخشب، تركته لنفسه وأوراقه، وقمت أبحث عن أشيائي الضائعة، الحمد لله، لم يضع مني شيء. أخرجت أوراقي ونفضت عنها الغبار ورتبتها، وكذلك فعلت بباقي ما في الجراب. وجدت قراطيس الشمع وكمية من الملح وبعض الأعشاب الطبية اليابسة وأشياء أخرى كالحبال والوقيد، وضعت كل ذلك في مكان بارز ليكون في خدمتنا نحن الاثنين معا. أشعلت شمعتين مما أخرجت، فأنارتا الكهف، قرّبت واحدة من مُضيفي، تبسم لي دون أن يتكلم، لكنه عاد ثانية فرفع رأسه شاكرا. توقف عن الكِتابة ثم قال: إسمي دانْيال[203]، وأنت؟ قلت: العبدي، ردد بعدي: أبدي، قلت: نعم أبْدِي. قام ـ بعد أن طوى أوراقه وخبأها في زق جلدي كبير كالشْكارة عندنا ـ إلى مدخل

202- المِغلق والمغلاق والمُغْلوق: ما يغلق به، جمع مغاليق.

203- لعله يقصد «دانييل» Danniel

الكهف فأغلق الوصيد بلوح خشبي مركب من عيدان وسعف وجذوع نخيل، ثم دعمه بعمود ضخم مغروس في حفرة، لا يقدر أحد من الخارج زحزحته لارتكازه على قوة الأرض وصلابتها، شملني أمان واطمئنان، لعله قرأ ذلك في وجهي فقال: هكذا أحسن حتى لا نؤخذ على غفلة، بيننا كلام كثير لم يُقل، غدا سآخذك معي لترى القبيلة الإفريقية إذا أحببت؟ قلت: أود ذلك، فتابع كلامه: وبعد هذا يمكننا أن نتحدث كما نشاء، تُصبح على خير، قلت: وأنت كذلك. سرقني النوم بسرعة، لكنه قبل أن يُدخلني في غياهبه المُدلجة أمهلني حتى رأيتها هابطة من السماء، نور على نور، الغادة الساحرة تتنزل درجة درجة حتى وقفت على رأسي ومرت بأناملها على جبهتي واقتربت أكثر حتى خلتها تريد تقبيلي، عندما مددت يدي لألمسها أو أجذبها، طارت وسمت وهي تنظر إلي بحنو ورقة.

في الصباح الباكر استيقظنا معا كأننا توأمان، بادرني بتحية الصباح والسؤال عن صحتي وهل نمت جيدا؟ كان أول ما خمنت فيه، السؤال عن تاريخ اليوم الذي نحن فيه، قال بسرعة اثنان وستون وثمانمائة وألف، ذهلت مما يذكر، كان يقرأ من ورقة أخرجها من جيب في قميصه، أفردها أمامي من كناش صغير، قلت: ما هذا؟ قال: التقويم السنوي عندنا ويقابله تقويم المسلمين، كل يوم يمر أضع علامة أمامه، تعجبت من تنظيمه ونظامه ودقة حركاته، فكل شيء عنده بحساب وتخمين سابق، قلت محرجا: وما يقابله في التقويم الهجري، نظر ثانية للجداول المرسومة وتتبع بأصبعه خطوطا حتى وقف عند خط وقال: التاسع والعشرون جمادى الثانية،تسع وسبعون ومائتان وألف، سجلت التاريخ في تذكرتي ثم حملت جرابي وخرجنا معا بعد أن أغلقنا باب الكهف ورمينا عليه حشائش وأعوادا. سألته خلال الطريق عن اسم القبيلة، قال: إنهم جماعة من المنبوذين والمطرودين والمسخوط عليهم من لدن قبائلهم، تجمعوا هنا في هذا الوادي، ولا يعلم أحد كيف جاؤوا ولا كيف وصلوا؟ يعيشون حياة الخليقة الأولى. كان هؤلاء الزنوج يلبسون جلود النعاج، يشتغلون نهارا في الزراعة والصيد ولقط ما يسقط عن الأشجار ذات الثمار، وفي الليل يأتون إلى أكواخ مشيدة من أغصان الأشجار، يختلط الرجال بالنساء دون أن تكون بينهم رابطة زواج أو عقد نكاح. لا يحاربون أحدا ولا يُشهر الحرب عليهم أحد. كانت لهم آلهة عدة، فمنهم من كان يعبد الشمس، ومنهم عابد البار، ومنهم عبدة الأشجار والأصنام

والأحجار، ومنهم من كان يعبد أول شيء يصادفه صباحا في طريقه، وعلى ذلك فقد كانوا يعيشون كالوحوش الأليفة والحيوانات غير العاقلة[204]. قلت في نفسي، نحن في الجاهلية الأولى، وكما جاء في الأثر، إذا نزلت ببلد يعبد العجل، فحُشْ وارم له، هؤلاء لا يعبدون العجل وحده، بل يعبدون أي شيء صادفوه، اللهم نجنا منهم ولا تجعلنا من أصحابهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

كانت عيناي قد كلّتا من مرآى العُري والمسخ الآدمي، وقد أيقنت أن هؤلاء القوم قد خلقهم الله ليكونوا عبرة لعباد الله الذين يستنكفون نعمة العقل فيتبعون الجهالة، وقد خمنت أن صاحبي «دانيال» كان يعتقد ما كنت أعتقد. عندما شاهدوا «دانيال» هشوا وبشوا وأخرجوا من أفواههم أصواتا كالولولة أو العويل، خلتها لغتهم وألفاظهم التي بها يتخاطبون ويتحاورون، وما عجبت له أشد العجب أن «دانيال» يفهم هذه الإشارات العجماء، إذ أخذ يترجم لي معانيها، وأسررت في نفسي السؤال عن فائدة وجدوى نزوله بهذا المكان وتعلم هذه الإشارات التي لا تُنطق ولا تكتب ولا تفيد في شيء، ومع ذلك حزّ في نفسي ولعه وشغفه بالتعلم وطلبه وسعيه للبحث عنه حتى في أضعف خلق الله.

أول الأمر باعدوا بيني وما بينهم فلم يقربوني إلا بالنظر والتمعن في لباسي وهيئتي، وربما كانوا يقارنون بيني وبين «دانيال» الذي أخذ على الفور في الاشتغال معهم على تنقية مجرى العين وتغيير مسراه ليدخل إلى المكان الذي تنتشر حوله خيامهم ومواشيهم، سألته: أتريد أن تشيّد دوارا؟ قال مبتسما: قرية صغيرة، ربما تكبر فيما بعد لتصبح بلدة. هذا النصراني داهية............[205]

قلت في سريرتي هؤلاء القوم لازالوا على الجبِّلة الأولى التي فطر الله عليها الإنسان، ولن ينفع معهم تلقينهم ما أنزل الله على نَبيه (ص) من أحكام العبادات والمعاملات وفضائل الأخلاق، ثم قلت مخاطبا نفسي، إِرْضِهم ما دُمت في

204- شبيه بهذا ما يحكيه مارمول عن إقليم «برونو» الذي يقع غرب النيجر وجنوب صحراء برقة: «ليس لشعوب «برونو» تشريع خاص وليس لهم دين وليس فيهم يهودي أو مسيحي أو مسلم، يعيشون على شاكلة الحيوان، نساؤهم مشتركة بينهم، والأطفال ينسبون إلى الجميع، ليست لأهل برونو أسماء شخصية، وإنما يتعرف بعضهم على بعض بعلامات خاصة، ويلقبون ألقابا كالطويل والأعرج والأصدف وغير ذلك». (مارمول– م س –ص 210– ج 3).

205- تشطيب ومحو في المخطوطة يقارب السطرين.

أرضهم، ودارِهم ما دُمت في بلادهم، وسايرهم ما دمت أسيرهم، وجارِهم مادمت جارَهم، ولعل هذا ما يسوس به «دانيال» هؤلاء الزنوج حتى يتمكن ثم يتحكم فيفعل بهم ما يشاء. لم يكن هذا كل شغله، فقد رأيته يمر على أكواخهم، يتفقد المرضى من النساء والرجال والأطفال، يغير الضمادات والعصابات المربوطة على الأيدي والأرجل والجباه بأخرى نظيفة سكب عليها محاليل طبية مقطرة في قوارير، رأيت بعضها بالكهف وكذلك أواني تحضيرها. حزّ في نفسي مرة أخرى ما يصنع وحده في هذا الركن من المعمور، وما يفعله مع هؤلاء القوم الهمج من أمور الإنسانية والشفقة والرحمة التي نحن المسلمين أولى بنشرها. عدنا مع المساء إلى الكهف محمّلين بخضر وفواكه، رافقنا ثلاثة منهم يحملون قِربا كبيرة من الماء. على الفور اشتغلت في ترتيب بضاعتي من الأدوية والأعشابَ الطبية وإبر الوخز وكُلاّب قلع الأضراس وأدوات الحجامة، وأعددت مكانا لأقلام القصب ودواة الصمغ ومحبرة اللك والأوراق البيضاء. عندما رآني «دانيال» منشغلا بما بين يدي، أدرك ببديهته السريعة قصدي، فقال ـ وعلى شفتيه نفس الابتسامة المعهودة التي لا تفارق محيّاه ـ تريد أن تعمل شيئا من أجل هؤلاء الناس؟ حسنا، اتبعني ثلاثة أيام أولا حتى يستأنسوا بك، ثم افعل بعد ذلك ما بدا لك، كان حكيما، رغم أنه كان نصرانيا، فقد مهد لي الطريق وروّض هؤلاء الزنوج حتى صاروا تحت إمرتي ورهن إشارتي خُدما طيّعين. بعد أن تعشينا، جاذبته أطراف الحديث، إذ سألته: أكنت طبيبا في بلدك؟ ضحكة صغيرة صدرت عنه، كأنه يقول لي كنت أنتظر منك هذا السؤال يوما؟ ثم أخذ يحكي قصته: أنا فرنساوي من بلاد فْرانسا، قرأت الطب وتعلمته وزاولته سنوات ببلادي، توفيت زوجتي وابنتي فدخلت العسكرية لأنسى وسافرت إلى الجزائر، ومنها خرجت لأجوب الآفاق وأجير الرفاق وأعمل عملا صالحا، والله ما فقهت شيئا من كلامه حينذاك، ما الذي يجعل هذا النصراني الأورباوي الفرنساوي يخرج من بلاده العامرة الزاهرة كما يحكي عنها من زارها من التجار والباشادورات فيسكن هذه الفيافي القاحلة ويعاشر هؤلاء الزنوج ويسعفهم بالدواء والتطبيب والمعاونة كل يوم، لو كان مسلما لقلت إنه يريد الثواب والفوز بالجنة، لكنه نصراني من دار الكفر، والله إن لفي ذلك أمرا يحيّر الأذهان وسرا يطير بالألباب. سألته وأنا في حيرة واضطراب خاطر: هل هناك غيرك من الأورباويين يقوم بما تقوم به في

هذه الصحراء، أم أنت الوحيد الذي أقدم على هذه المخاطرة؟ قال على التو، وكأنه علم السؤال قبل إلقائه: كثيرون مثلي وهبوا أنفسهم لخدمة الإنسانية طوعا وحبا في ذلك، وكأنه تعجل الجواب، فزاد مستدركا على ما فات، لكنهم الآن قلة قليلة. تجولت بعيني في أرجاء الكهف متمعنا في محتوياته من فراش وأمتعة وآلات، وقلت في خاطري: هذا كثير على نفر واحد كـ«دانيال»، لاشك أن معه آخرون، وقد تفرقوا في القبائل الإفريقية، وحضرني على التو ما كنت أسمعه وأنا طالب بالقرويين من حكايات عن دخول الأطباء الأورباويين إلى بلاد المغرب ومزاولتهم للطبابة ومداواة العباد، الأمر الذي أثار حنق العلماء والفقهاء فأفتوا بتحريم دوائهم وعقاقيرهم وكل ما يقدمونه للمسلمين[206] من مفاسد متأتية من التطبيب على يد الكفار، ولاسيما إن كان المسلم المريض كبيرا في دينه أو علمه أو هما معا أو ممن يُقتدى به، فاحتذت العامة حذو الخاصة في التداوي على أيديهم، وعظم شأنهم بالتودد إليهم وإجلاسهم على الفُرُش وتهيئة الطعام الحسن لهم وتذلل المؤمن لهم، والمؤمن لا يذل نفسه ولا سيما لكافر، وإن ظهر منه تودد بالكلام وانتفاع في المعالجة، فلا يقدر بعد ذلك على عداوتهم كما أمر سبحانه وتعالى، لقد رُوي عن الإمام الشافعي رحمة الله عليه أنه قال: «العلم علمان: علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان، وما وراء ذلك بُلغة المجالس[207]». أتخمنا عقولنا بما يحل وما يحرم، ونسينا فقه الضرورة والمصالح المُرسلة والمصلحة الوقتية، ناهيك عن حفظ الصحة وقوام الأبدان، فقد ضاع منا ونسينا حتى تراث الطب العربي الإسلامي عند أبي بكر الرازي صاحب «الكامل في الطب» والجرجاني شيخ ابن سينا ومؤلفه «زبدة الطب» وابن سينا صاحب كتابي «القانون في الطب» و«الشفاء»، ومن بلاد المغرب ابن رشد وكتابه عن السموم

206- حث الفقهاء على تجنب أدوية الأوربيين وعدم الاطمئنان إليها، مثال ذلك الفقيه جعفر الكتاني صاحب كتاب «تأليف في حكم صابون الشرق وشمع البوجي وصندوق النار المجلوب ذلك من بلاد الكفار» إذ يقول: «وأما استعمال أدوية الكفرة وأشربتهم فإن ذلك مما لا ينبغي، لما عسى أن يقع من غشهم من استعمال بعض السموم القاتلة في الأدوية، فيكون الإنسان قد تسبب في قتل نفسه وهلاكها، فيجب تجنب دوائهم والاستغناء بمن تُرضى ديانته وأمانته من المسلمين»

(د . أحمد المكاوي: الدور الاختراقي . م . س . ص 98).

207- بلغة المجلس: الشيء الذي لا قيمة له، أولا يُعتد به.

وأنواع الحمى، هذا غيض من فيض، ضاع كما ضاعت المروءة والشجاعة والعزة والأنفة، ولم يبق إلا القمل والقحط والجراد، ثلاث خُلقن للفساد. حتى لو سردت مئات الأعلام والمشاهير، فالطبيب النصراني حجة عليّ وعلى النخوة الخاوية التي أتظاهر بها. ما معه من الآلات وما يعرفه من أمور الطبابة والجس وتتبع الداء ليعلم سره ومكمنه فيبادر إلى علاجه، شيء لم أره من قبل في بلاد المغرب، وأجزم صادقا أن لا أحد منا درسه أو زاوله[208]. قرّ قراري أن أتعلم على يديه بعضا من معارف الطبابة عندهم، أو لم يأت في الحديث الشريف «اطلبوا العلم حتى لو كان في الصين»، فإن كانت الصين على الوثنية، فأهل الذمة والكتاب أولى بأن يؤخذ عنهم ما ينفع المسلمين ولا يضر بدينهم وعقيدتهم. بعد أن تعشينا وشربنا شايا مما بقي عندي من زاد، قلت وأنا أملأ كوب الفخار الذي أمامه للمرة الثانية، أريد أن أتعلم مما عندك لو تفضلت وتكرمت عليّ؟ قال مندهشا: وماذا عندي؟ قلت: علم الطب وحفظ الصحة حسب المخترعات الوقتية. قال بفرح كبير - كنت أخاله سيمتنع عن تعليمي - بكل سرور، أنا لا أعلم الكثير، ولكني سألقنك ما عندي، سأعلمك ما تعلمته بفْرانسا وما حصّلته هنا ببلاد إفريقيا عن طريق التجربة والاختبار. شكرته على صنيعه، نمت تلك الليلة أعدو وراء الغادة الفاتنة المتوارية الغامضة الساحرة، ولا ألحق بها، تجري وتختفي عندما أطاردها، وتظهر مقتربة مني عندما أقف أو أقعد. عندما كشفت له خلال الأيام والشهور اللاحقة عن معارفي في الطبابة والتداوي، لم يسخر ولم يرفض ما عندي، بل قال كالحكيم بيدبا في كتاب «كليلة ودمنة»، كل ما يوصل إلى الشفاء ويبلغ له دون أن يضر بالمريض فهو الدواء الناجع، لديك أشياء نافعة وخاصة عندما لا يوجد غيرها أو عندما يكون الداء بسيطا أو خارجيا كالقروح والجروح والكسور وما شابه ذلك، لكن في الأمراض الباطنية فلا ينفع إلا العلاج

208- «إن أهم مركز تعليمي في المغرب وهو جامعة القرويين، انقطع عن منح إجازات في الطب اعتبارا من 1832، ويعتقد أن آخر من حصل على إجازة طبية من هذه الجامعة في السنة المذكورة هو الطبيب محمد بن أحمد الحكاك، وقد أشّر على هذه الإجازة فضلا عن الذين جربوا خدماته الطبية من العلماء والشرفاء والتجار، المعَلمين الحجامة، لأن أخذ الدم بالفصد والحجامة كان يعتبر عملا طبيا».

(د. أحمد المكاوي: م س – ص 40).

الوقتي[209] بالأدوية والعقاقير أو الجراحة والاستئصال. اطمأن قلبي، فليس ما معي بضاعة فاسدة خاسرة، فلأضم هذا على ذاك الذي عنده، وسأكون من الفائزين بالحُسنيين إن شاء الله. علّمني شيخنا النصراني كيف أجس الدم وأقدر قوته أو ضعفه، وكيف أعرف من شدة حرارة الجسم أو برودته ومن الإسهال والقيء ومن النظر في البُراز ومن كثرة التبول والتصبب عرقا، أن أستخلص وأستنبط علامات المرض الدالة عليه وكأنني أستنبط قاعدة فقهية أو نحوية من شوارد وشواهد يجمعها حكم واحد، فمن ذلك أستدل على أو جاع المعدة وانتفاخ المصارين واضطراب الكبد وتورم البواسير أو الشقيقة وأنواع الحمى تبعا لتقلبات المناخ شتاءا وصيفا. أضفت إلى كل ذلك ما عندي من علم ودراية بإعداد السوائل الطبية المُزيلة للحموضة والقيء وتحضير الأعشاب الشافية من الحمى والشقيقة والمذيبة للحصى المعروفة ب«هراسة لَحْجر»، والكثير مما أخذته عن تذكرة «الأرجوزة الشقرونية» لصاحبها عبد القادر بن شقرون في علم الحمية وحفظ الصحة ووسائل العلاج، والتي كنا نحفظها عن ظهر قلب بالقرويين، وقد حان الوقت الذي علي فيه أن أمحكها وأجربها، وإن كنت بفاس وقبلها بأسفي قد زاولت بعضا من العلاجات مثلي كمثل كل الفقهاء والطلبة والمتطببين من كوائين وجبارين ومولدات قابلات. وقد صادقت العشابين والعطارين فأخذت عنهم معرفة النباتات الطبية والعقاقير السحرية، كما أنه مشهود للفقهاء والطلبة أيضا بالخبرة وطول الباع في علاج أمراض خاصة كالعقم والصرع والرمد وما شابه ذلك. بهذا العزم نافست الحكيم النصراني، غلبته في أمور، وهزمني في أخرى، فمما غلبته فيه، الاستطباب بالنباتات والتعِويذ بالتمائم والتعزيم لإخراج الأرواح الشريرة، وقد انتفعت بالجذبة والكَناوي والخلوة والحروز في علاج المصابين أكثر من علاجات «دانيال» بالحبوب والعقاقير، فقد كانوا يرفضونها ويقذفون بها من أفواههم لعدم استساغتهم مذاقها. لكن النصراني تفوق علي في علاج أمراض البطن والمصران والكبد والمثانة، أما علاج البواسير فقد كنت فيه بارعا لاعتمادي الأعشاب الميّسرة للإسهال، ولاطلاعي على تذكرة الأنطاكي وتآليف العلمي[210].

209- الحديث أو المعاصر.

210- لعله يقصد عبد السلام العلمي مؤلف كتاب «البدر المنير في علاج البواسير»، فضلا عن شرحه لتذكرة الأنطاكي.
(د. أحمد المكاوي. م . س ص 44 وص 55).

طال بي المقام بين هؤلاء القوم حتى كدت أن أصبح مثلهم دون أن أزحزحهم عن النصراني أو عن وثنيتهم قيد أنملة، فلم يطاوعني إلا الشيوخ والعجزة من النساء والمصابين بالعُته والجنون والعاقرات، أما طب النصراني وعلاجاته فقد شقت طريقها كما يشق بابور البحر الأمواج العاتية. وذات يوم عدت إلى الكهف مبكرا تاركا الشيخ النصراني في عمل متواصل وجهد مستمر وقد أذعن له القوم فأسلموه أبدانهم وأرواحهم دون خشية من الأدوية التي يمنحها لهم، بل أصبحوا يتهافتون عليها تهافت الذباب على الضوء. راجعت نفسي خلال مقامي بهذا المكان، فأيقنت أن دار الكفر قد بعثت جواسيسها وعيونها ليمهدوا لها طريق الغزو والاستحواذ على البلاد بعد أن نزلوا بأرض الجزائر، فالطبيب النصراني «دانيال» تنكر بالزي المحلي - ولا أحد يعلم إن كان طبيبا حقا أم منتحلا صفته - وأخذ يجوب المناطق والديار في غفلة عن عيون الحكام والرقباء.

هذا عهد ما بيني وبينك أيها الشيخ النصراني، أنقذت حياتي من الهلاك ولن أنس لك هذا الجميل، لكنني لن أقيم بأرض أراك تُوطئها للغزو والاحتلال والتنصير، لا أراك صادقا في ما تزعم أنه بوازع الإنسانية والتحضر والرقي بهذه الأقوام إلى مرتبة الأمم الناهضة، وحتى لو كنت طبيبا حقا ولست منتحل صفة، فإنك خادم الساسة وملك فْرنسا. لن تجدني مرة ثانية، حتى لو اقتفيت أثري وتعقبتني. تركت ورقة خططت عليها كلمات شكر وامتنان وعزم على الرحيل ولم أذكر سببا لذلك.

فصل في الموت والتأسي بزيارة القبور..

انشغلت بسرد مرويات الطبيب النصراني عن ذكر مشاهداتي ببلاد الزنوج، وهم الذين كانوا يعيشون على المشاع، لا يملكون ولا يتملكون، ولا يقيمون زواجا شرعيا برباط موثق أو شهود مما عندنا، فالرجل عندهم يصاحب أية امرأة إذا رغبت فيه ورغب فيها، وقد يولد لهما من هذا القران مولود، ترضعه الأم حتى يشب على قدميه، في سنواته الأولى يلحق بالأعمال التي توكل لمن هم في سنه كالسقي والري والغرس والتحطيب، عندما يتم بلوغه وهذا يكون عندهم بحفل وطقس وألعاب وامتحان قوة وصلابة عود، ويكون حسب علمي في

متم الثلاث عشرة سنة، ولا أعلم كيف يحسبون ذلك؟ عند ذاك يحق للأولاد السكن والإقامة بخيام لوحدهم. ويستطيع الرجل أو المرأة أن ينفصل أحدهما عن الآخر متى شاء، ولا تعد علاقة رجل بامرأة زنا أو فاحشة، وأكاد أقول إنهم يرتكبون زنا المحارم وهم لا يشعرون، فلا أنساب تجمعهم ولا عائلة ينحدر منها أفراد معينون، ولا وجود في لغتهم لكلمات الأب والأم والأخ والأخت والجد والجدة، فذلك من الملك المشاع حسب شريعة القبيلة[211]، ولا لوم ولا تثريب عليهم في ذلك يحسونه ما دام شرع الله لم ينزل عليهم. ومن غرائبهم أنهم كانوا ينسبون الأبناء إلى أمهاتهم لا إلى أبائهم، ولهذا كان يحرم عليهم الزواج بين الإخوة والأخوات الأخياف[212]، لذلك كان للمرأة شأن عظيم بينهم. تحركهم النوازع والفطرة، يسوقهم أقواهم لا أعقلهم، إن كان فيهم عاقل. وأما نساؤهم فلهن نصيب من الجمال الزنجي وخاصة الكواعب منهن، القوام المشدود والرغبة الشبقة، وشهوة الفراش والهراش، لكنهن يفقدن بعضا من ذلك أو كله كلما تقدمن في السن، فتظهر بينهن المرأة ذات اللحية والغبب[213] والشارب، ويقولون إن اللحية لا تعرض للنساء إلا عند ارتفاع الحيض[214]. تمكّن منهم الطبيب النصراني بأدويته وعقاقيره، وبتدجينهم في الاشتغال بالأرض حرثا وزراعة، وببعده عنهم كأنه صالح أو سلطان لا يقربونه إلا إذا أمر وتواضع، فكسب احترامهم وتوقيرهم. وكان مما يثير العجب تبجيلهم للموت وتقديرهم

211- «نُسب إلى القرامطة إبطالهم التكاليف الشرعية مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج، كما نُسب إليهم أمور من مثل: الخمر حلال ولا غسل مع جنابة والمرأة مشاع، والقبلة إلى بيت المقدس واللواط مباح» (صنع الله إبراهيم، أمريكا نلي، رواية، ص 279 ط 2، 2004، دار المستقبل العربي، مصر.).
مما دفع المفكر الفلسطيني بندلي جوزي أن يطلق على دولة «الأحساء» لقب «الجمهورية العربية الاشتراكية» (صنع الله إبراهيم، م.س ص 281).

212- إخوة أخياف: أمهم واحدة والآباء شتى (القاموس المحيط. ص145 / ج3 ط 2، 1952، مصر).

213- الغبب: اللحم المتدلي تحت الحنك من الديك والبقر.

214- «وقد ذكر أهل بغداد أنه كانت لابنة من بنات محمد بن راشد الخنّاق، لحية وافرة، وأنها دخلت مع نساء متنقبات إلى بعض الأعراس لترى العُرس وجَلْوَة العروس، ففطنت لها امرأة، فصاحت: رجل والله، وأحال الخدم والنساء عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلة إلا الكشف عن فرجها، فنزعن عنها وقد كادت تموت» (الجاحظ: الحيوان ص 115 ج 1 م س).

للأموات، فقد كانوا يعتقدون بحياة أخرى بعد الموت، لا كما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فالحياة عندهم بعد الموت لا حساب ولا قيامة ولا صراط فيها، ولا جنة ولا جحيما، بل حياة آدمية أشبه بحياتهم ولكن في حلة حسنة بديعة، لا تعب فيها ولا ضنك ولا جوع ولا عطش، فلم يروها إلا حياة خالية من المتاعب والأمراض، لذلك اختاروا لموتاهم قبورا محفورة في واجهات الجبال العظيمة التي تحيط بهم، حيث تُوغل القبور المحفورة إلى داخل الجبال حتى تكاد أن تصبح بيوتا صغيرة لقبورهم وموتاهم، وكأن الموت كان شاغلهم أكثر من الحياة، فقد شيدوا طرازا من البناء على صفحة الجبل من أسفله إلى أعلى قمته، بأكثر من ألف قامة علوا عن السفح، وبعرض أربع ساعات مشيا، تطل منه القبور كالنوافذ أو الشرفات[215]، وقد زينت بالرسوم والأصباغ والألوان التي تصور حيواناتهم وأشجارهم وتعويذاتهم التي يتفاءلون بها أو تشير إلى طالع سعدهم ويُمنهم. وكانوا إلى جنب الخضر والفواكه والأطايب التي يضعونها مع الميت ورهن إشارته إذا قام من مرقده، يضعون أيضا الرماح والنبال والقوس لاعتقادهم بأن الأرواح الشريرة تطارد الموتى حتى في قبورهم وأثناء قيامهم للحياة من جديد.

215- تشتكي الكثير من المدن المغربية من ندرة الأراضي الصالحة لتكون مقابر، هاهي فكرة العبدي بتنظيم مقابر على شكل عمارات أو إنشاء عمارات طويلة لتكون مقابر المستقبل، وبالتالي يمكن أن تُغني عمارة واحدة من ناطحات السحاب عن عشرات المقابر!!

ما تحلم به تحقق منه السحرة منذ آلاف السنين، كان بمقدورهم وفي مُكنتهم تسيير السحاب وخَسْف الشمس والسير فوق الماء وتمويهه لتضليل الجيوش والغزاة وإغراقهم كآل فرعون ومن معه. لكنك اليوم وحيدا أعزل في بلد لا تعرف أصله من فصله[216]، ومطلوب منك أن تكون ساحرا عرّافا جهبذا لا يشق له غبار، يقرأ الكف ويستشف الفأل والطالع ويفك خط الرمل والزناتي، يصنع التعاويذ والتمائم والأحجبة، يستطلع النذر ويكلم الجان ويسخرهم ويفك طلاسم الكنوز. والحكاية من ألفها إلى يائها من العجائب والغرائب التي قد تقع لكل واحد منا، والأصل في ذلك، أنني لما وصلت غديرا، سأعرف بعد ذلك أنه آت من جدول يجري إلى مصب بعيد، وكان الظمأ قد سلبني كل قوتي وتحملي وصبري وآمالي في البقاء على قيد الحياة، فقد نشف عظمي وضعف قلبي وتضبع[217] عقلي. الآن عرفت أن «السفر قطعة من العذاب» كما جاء في الحديث النبوي الشريف، فلما سُئل الرسول (ص) : «لِمَ كان السفر قطعة من العذاب» أجاب على الفور: «لأن فيه فراق الأحبة»، وفي حديث عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر: «سافروا تَغْنموا» وفي رواية ثانية «تُرزقوا» والثالثة «تَصحوا»، وأنا، لَعْبيدي الضعيف، أبتليت بكل هذه المصائب، فارقت الأحبةَ والأصحاب والخلان، وآخرهم «هُريرة»، ولم أُرزق بشيء من المال أو الجاه، ولم يتبق في

216- يستعمل العبدي ضمير المخاطب بدلا عن ضمير المتكلم في مخاطبة نفسه، كما يلاحظ عدم ذكره أو وصفه لرحلة الوصول إلى هذه البلدة، ومن غير المستبعد أن تكون أوراق هذه الرحلة قد ضاعت ضمن ما تلف من أوراق المخطوطة.

217- اشتقاق من الضبع (مثال البلادة عند المغاربة).

حوزتي مما جمعته في «جيني» إلا الحَبّ[218] بعد أن ضاع الذهب، ولم أغنم أرضا ولا تجارة، تكالبت علي الأمراض والعلل، ولولا العناية الإلهية التي تقودني وتنجيني لهلكت في البراري القفر الموحشة. وقعت على وجهي في بركة الماء، ارتويت كالبهيمة، هدّني الشرب فارتميت على ظهري، صدري يعلو وينخفض كمرجل الحداد، انحبست أنفاسي واختنقت من شدة الحار والبارد وهما يلتقيان على خواء المصارين، فتعتصر وتنبعج، قلت: إنها الشربة الأخيرة، أشهد أن لا إله إلا اله، محمد رسول الله، تلك كانت حشرجة في الزور، الألطاف الإلهية أنقذتني من الهلاك. التعب، آه، جثم علي بكلكه فلم اقدر على حراك إلا بعد زمن ليس بقصير. جاءتني رائحة جسمي النتنة وقذارة الجلباب والتشامير والسروال، لم أتوضأ أو أغتسل منذ خروجي من مملكة المشاعيين، وحتى المضمضة لم أصل إليها. كان الماء بقدر الحياة والموت فكيف أضيّعه، والله ما أحلّ لنا التيمم إلا لندرة الماء. عندما استفقت من غفوتي وفتحت عينيّ على البركة الكبيرة تخيلتها بحيرة «زيما[219]» بمنطقة أحمر ذات الماء الأجاج والنباتات الدائمة الخضرة[220] وأسراب الطيور[221]. أعادني الفكر والخيال إلى الأيام الخوالي التي قضيتها هناك برباط سيدي شاكر وزاوية العلامة التهامي الأوبيري، حيث كنا نربض بجنبات الضايّة نتملى في البنات والنساء وهن يطفن بالنخلة ويتشبثن بجذعها طلبا لحسن الطالع وطردا لسوء الطالع والعكوس[222]. جاءني

218- الحبّ: ج الحبّة: كسر من كسور النقد عند المغاربة، وغالبا ما تعني الحبّة المال.

219- توجد بحيرة «زيما» بمنطقة احمر قرب مدينة الشماعية، وهي عبارة عن فضاء إيكولوجي وسياحي ممتد على مساحة (600 هكتار) تحيط به مجموعة من التلال تمده بالمياه عبر أودية موسمية (واد السدرة – واد الملاح – واد احمر – الخدود – واد زيما). ويحيط به حزام دائم الخضرة يتحمل الحرارة والجفاف (المصطفى حمزة، الأحداث المغربية21/01/2007 ع 2909).

220- يحتوي فضاء بحيرة زيما على 83 نوعا من النباتات. (م س).

221- أكدت بعض الدراسات توفر بحيرة زيما على 38 نوعا من الطيور، أهمها المستنقعيات. (م س).

222- شاعت أسطورة عن تحول بحرية «زيما» حيث يجثم قبرها أسفل نخلة ناطحت بسعفها السماء. وزركشت أغصانها بملابس داخلية لنساء وفتيات يعتقدن بأن التخلي عن هذه الألبسة هو تخل عن سوء الحظ وجلب للسعادة، تباركه الزيارة وتضمنه لالة «زيما» (المصطفى حمزة. م.س.)

من يشير علي بغسل الثياب، فقد سئمتها وجافتني، ولِمَ لا يكون الاستحمام والاغتسال. قلّبت ناظري في أرجاء المكان، شجر كثير يبهر العين ويخلب اللب، خمّنت أن أجد أعشابا طبية أو بقولا وحشائش وزواحف صالحة الأكل، أطلقت رجليّ للتنزه، وجدت الحُميضة والعسلوس ويَرْني والزعتر والشيح وتيغشت، الحمد لله، ها هي تيغشت المنظفة للثياب والصوف، لم أتردد لحظة واحدة، أخذت أقلع وأجمع، ثم قصدت حافة البحيرة أبحث عن صخرة أو مُسطح حجري، وجدت حجرا ضخما منجورا كالمصطبة أو حجر الرحى الذي يُستعمل عند أصحاب معاصر الزيتون لاستخلاص الزيت، رميت فوقها ثيابي وأنا أجوس المكان ببصري، هل يراني أحد؟ لا أحد، لكنني كنت متيقنا أن أحدا هناك ينظر إليّ، الله يرانا، نعم، ولكن لا أقصد هذا، هناك إنسي أو جني يراني ولا أراه، لم أبالي، وقفت كما خلقتني يا رب أول مرة، حافيا، عاري الجسم والعورة، أعجبني منظري، فضحكت عاليا وصرخت في الخلاء الواسع، في وجه من يراني، وإن كنت لا أراه، لعله يخرج من مكمنه فيكشف عن نفسه ويظهر، لا أحد هناك. بللت الملابس في الماء ثم رميتها على الصخرة، وفوقها شتّت تيغشت، ووقفت فوقها أدعكها وأرفسها برجلي مدة الساعة أو أكثر، كنت أُغيّر الماء وأعصرها ثم أعود لدعكها ورفسها كأن بيني وبينها ثأرا لا بد أن أدركه، حتى تأكدت من غسلها وتنظيفها، جففتها بعد ذلك ونشرتها على مرتفع صغير تحت عين الشمس الحامية، ثم ارتميت في البحيرة، سبحت طويلا ونظفت جثتي الزفرة واغتسلت من كثرة الاحتلام الذي رافقني منذ خروجي من قرية المشاعيين. من غريب ما وقع لي أنني كنت كثيرا ما أسمع هاتفا يصلني على نحو مشابه لصوت «الكَصبة[223]» أو الناي كما يسميه أهل فاس حتى خلت أن أحدا بالجوار مني يعزف، فأخرج أو أقف على علو لأتبين مصدر الصوت، فلا أجد أحدا، كان نغما رخيما حزينا مُفعما بالفواجع واللواعج والبين والفراق، بالصبابة والهيام والشوق والحنين، كان هذا الصوت لا يكاد يفارقني إلا ليأتيني من جديد، يصاحبني في كل مكان منذ خرجت من تنبكتو وكأنه حلّ محل طيف

223- الكَصبة أو القصبة: يقصد بها تلك الآلة الموسيقية عند فرق حمادشة وعيساوة والتي يشبه عزفها العويل والنحيب وغالبا ما تصاحب الجذبة والزار لإخراج الجن والأرواح الشريرة.

الغادة الساحرة المتنكرة. يأتيني ليلا فيقض مضجعي، وصباحا فيخيفني وينذرني بالعواقب القادمة، وأصيلا فيُريق دمعي وينزف جرحي، وإذا أتاني مساء كان العويل والنحيب وولولة الأرامل والثكالى أيام الحروب والمجاعات والأوبئة. لكن الصوت هذه الساعة، وفي هذا المكان، كان قويا جليا كأن أحدا يعزف بجواري. حقا خفت وارتعبت، وقعت على وجهي مهموما محزونا متفكرا فيما أصنع، أأخاطر بنفسي؟ فكرت وتأملت، كما كان يفعل الطبيب النصراني، وكان فطنا عالما مجرّبا، فقلت: أمن الحكمة أن أخرج ولم أحتط للأمر، العجلة من الشيطان، والخوف عدو الإنسان، ومن أدراني أن يكون وراء الخروج من المكمن المتواري عن الأنظار سوء أو مكروه أو مصيبة تحل بي فتقضي على كل آمالي، ومن أعلمني إن كان هذا الهاتف لجني أو جنيّة يبتغي استدراجي إلى غور سحيق، وإذا كان أهل الصحراء يهابون الذئاب والأفاعي وريح القبلي ويعتبرونها أعداءهم الخالدين، فإن تجار القوافل والعابرين للصحراء يخافون الجن وأهل الخفاء أكثر من غيرها. وأظنني دخلت مملكتهم، فليرحمني الله وليحفظني بما حفظ به الذكر الحكيم. هذه الكصبة ليست بريئة، دم يوسف عليها[224]. لملمت ثيابي وكانت، بفعل الشمس الحارقة، قد نشفت، لبستها وجمعت أغراضي وربضت في مكمني أنتظر ما ستسفر عليه الغيوم الملبدة في رأسي، إن الله لا يحب إلا المعذبين والمبتلين[225] من عباده، بل لا يبتلي إلا من أحب، وأنا ابتليت بحب الغادة النافرة مني كلما دنوت منها، معذبتي وسر غربتي الراقد في صدري، متى أراها ومتى يُفك السر؟ كان المساء يهبط ببطء شديد وثقيل، والشمس لاتزال في كبد السماء حارة حارقة، ففي الصحراء لا تكاد تفرق الشمال عن الجنوب ولا الشرق عن الغرب كالبحر الذي عشت بجواره دون أن أركبه يوما وأعبره إلى الضفاف الأخرى، رمال وكثبان ومنظر سؤوم ملول، فكيف كنت تراه بعينين خابيتين وفم يابس وأمعاء تصرصر وقدمين لا تقويان على النهوض، الحمد لله، أنا في جوار البركة، ولكن ماذا ألقم هذه البطن الخاوية غير الأعشاب

224- إشارة إلى قصة يوسف وبراءة الذئب من دمه.

225- ابتلى : اختبر، البلوى: المصيبة والاختبار، البلاء يكون بالخير وبالشر.

وجذور النباتات الشبيهة ب "إيرني[226]". مضى الليل إلا أقله وأنا أتمرغ في وحدتي وخوفي وما سيسفر عنه طلوع النهار. مع تباشير الفجر كانت عيناي مفلجتان تحدقان في الأفق البعيد، متى يتميز الخيط الأبيض عن الخيط الأسود. اقتربت من الماء، توضأت وصليت ركعتين حمدا وشكرا لله، واتبعتهما بصلاة الصبح، ثم حزمت أمري وتوكلت على الله. خرجت من مكمني شجاعا جسورا كأنني ذاهب لمبارزة أو عراك، انتفخت كالطاووس ورميت علي الجلباب والسلهام وشددت رأسي بعصابة صفراء وتوكأت على عصاي الطويلة التي تصل إلى صدري، تذكرت حينها عصا الجاحظ[227] التي نافح عنها كثيرا ولم يحملها في مقام أو أمام قوم، حملها الحكماء واستعان بها الأنبياء والرسل واتكأ عليها الخطباء في المنابر. كنت في سابق الأيام ومنذ خروجي من كهف الطبيب النصراني، أقضي بعض الوقت في تزيينها بالأحجار الملونة وقطع النحاس واللوبان وكُريات من سبحة انفرط عقدها، فلم يبق إلا القليل، رصعت به العصا والحق أنني تفننت في تزويقها وزخرفتها حتى بدت أزهى وأفخم وأجل مهابة من عصي المجذوبين والبهاليل وعكاكيز الصالحين[228]. كنت أشم رائحة إنسان، فللبشر رائحة لا يخطئها الأنف، خاصة إذا انقطعت عنه مدة طويلة، كانت الرائحة آتية من الشرق، وكذلك الشمس التي سطعت بنورها وأعلنت عن حريق مُقبل. كلما تقدمت أزكمت الرائحة أنفي، لا أعلم كيف تقوّت لدي حاسة الشم، هل كان ذلك بفعل الحيوانية التي عشت عليها هذه المدة، أم أن مناخ الصحراء وريحها الحار وراء ذلك السر؟ وفجأة ظهرت أمامي خيام وبيوت وأسوار

226- إيرني : نبات ارتبط اسمه بتاريخ المجاعات الكبرى في المغرب، حيث كان الفقراء يخرجون بفؤوسهم إلى الخلاء للبحث عنه. وكانت عروقه تسلق بالماء لإزالة مادة سامة ثم تجفف في الشمس وتطحن فتعطي دقيقا يصنع منه خبز شديد البياض. لكنه عسير الهضم ويسبب اضطرابات حادة في جسم يكون الجوع قد أضعف مقاومته مما يؤدي إلى الوفاة. (محمد الأمين البزاز. م.س ص 357).

227- يشير العبدي إلى «كتاب العصا» ص 5 ج 3 من كتاب الجاحظ «البيان والتبيين» والذي خصصه أبو عثمان الجاحظ للدفاع عن العرب واللغة العربية وعاداتهم أمام هجوم دعاة الشعوبية المناوئين (البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام محمد هارون ط / 1968- مصر).

228- «ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعصي، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه» (الجاحظ م.س ص 32).

وحيوانات وأناس كثيرون. وقبل أن أفيق من دهشة لقاء البشر، جاءتني مفاجأة أخرى عندما رأيت قوما مصطفين أمام مداخل القرية، والمتأخرون منهم يركضون من أجل الحصول على مكان في الصفوف ـ كأنهم مقبلون على أداة الصلاة بعد أن تقدمهم الإمام ـ التي بدأت تكبر وتتضخم كأنها كانت على ميعاد موقوت لاستقبالي. أخافني ما رأيت، وحشَّ الرعب والهواجس السوداء وشبح الموت رجلي، فكدت أخِر على الأرض ساقطا، وخامرني الشعور بأن أعود القهقري، ولكن أين الرُّكبَ القادرة على الركض؟ ماذا ينتظرون؟ خيرا أم شرا؟ وإن كانوا على انتظار، من ينتظرون، إن ظنّوني المنتظر، فقد يكون هذا خيرا وبركة، ولكن إن كشفوني بعد ذلك، فسيقتلونني لا محالة. زدت في مظهر الفخامة والوجاهة والنبالة الذي خرجت به صباحا، فما فاز بالطيبات إلا الفاتك الجسور، حضّرت أعشابي ونباتيّ العطريّ، شحذت السكين على الصفوان، تطيبت وتعطرت، حففت[229] اللحية وحندقتها، ضفرت بعض جدائل شعري الذي طال خلال الترحال، اعتنيت بملابسي، علّقت على صدري مسبحة من الودع الكهرماني، تزينت وكحلت عيني وأخذت وقتا كافيا للعناية بمظهري حتى أخرج عليهم في أحسن صورة وأبهاها، وكأنني لم أقطع وهادا ولا جبالا ولا وديانا، ولا أحمل غبارا ولا نقعا، ولم يمسسني لا سغب ولا ظمأ. كلما اقتربت منهم، كان الخوف يحول إلى حذر وقد يؤول إلى النكوص لولا الابتسامات التي بدأت أراها على وجوههم، والأيادي التي أخذت تعلو بالترحاب، والخطوات التي بدأ بعض رجالهم يخطونها نحوي، عندها تيقنت أنهم ينتظرون علامة في هيئة، أما ما هي فذلك ما سأعرفه فيما بعد. تقدم مني كبيرهم، يتبعه على خطوة منه عجوزان، رجل وامرأة، يحملان مجمرين من الفخار المحروق، الداكن الحُمرة، على حافتيهما رؤوس أفاع شاخصة بأبصارها في الاتجاهات الأربعة، ومن المجمرين تضوع روائح أعشاب عطرية نفاذة ويتعالى دخان رمادي، وقفا حين اقترب كبيرهم مني على مسافة خطوتين، تقدمت منه وحيّيته بتحية الإسلام، أبشر وجهه وأضاءته ابتسامة عريضة، صاح وهو يلتفت إلى قومه، بُشرى لنا، الموعود المنتظر القادم من الغرب. هلّل وكبّر ثم تقدم أكثر

229- حفّ اللحية: أخذ منها.

حتى التقت عيناه بعيني كأنه يقرأ فيهما حروفا أو يرى صورا، لعله يبحث عن شيء مازلت لم أعرف كنهه، لكن قلبي اطمأن وذهب روعه، زال عني الخوف والفزع الأكبر من أكون قربانا لصنم يعبدونه، فقد حكوا لي من قبل، عن قوم يأخذون الغريب الذي يدخل أرضهم في أوقات معلومة ليقدم قربانا وذبيحة من أجل أن يرفع عنهم الضر أو الوباء أو الجفاف، حين رأيت في عيونهم وأسارير وجوههم الضاحكة المبتهجة ما يقول بأنهم يعتقدون أن السماء هي التي أرسلتني إليهم مُنجدا وصالحا، ولست أعلم على ماذا بنوا هذا الاعتقاد؟ فتحوا لي طريقا باصطفافهم صفين متقابلين، قادني إلى براكة كبيرة مستديرة ذات سقف عال مرفوع من وسطه بعَروض كبير، كانت جدران البراكة مصنوعة من جذوع الأشجار وسيقانها، مقلّمة ومنجورة ومصفوفة بشكل بديع، عليها سوّيت دعامات استندت على العروض[230] ثم رفع فوقها سقف من جريد النخل وأغصان الشجر، فجاءت كدار الندوة أو الضيافة. عندما توقفت بالباب، طلبني كبيرهم للدخول، فدخلت، دون أن أفرّط في مظهر المهابة والتوقير والرفعة الذي تلبّسني فلبسته، دلّني على فرشة مرتفَعة عن سطح الأرض مقدار شبر، عندما افترشتها وجلس الكبير، أخذ أعيان ووجهاء القرية يأخذون أماكنهم، ولاحظت منذ اليوم الأول أن كل نفر يذهب إلى مكان مخصوص به، وكأنه ترتيب متفق عليه، حتى إذا غاب أحدهم، ظل مكانه شاغرا، ولا أدري كيف حددوا الأماكن وعيّنوها؟ أبسبب المال أم القوة أم العلم؟ لست أدري، ولكنني سأعلم يوما ما، قريبا إن شاء الله. كانوا يتكلمون لغة خليطا من لغة التيفناغ التي يتكلمها الطوارق واللغة العربية التي يتحدث بها بعضهم وشيئا من لهجات أفريقيا والسودان، نادى أحدهم على غلام وقال: آمان[231]، فكأنه كان ينتظر هذه الإشارة، جاء بطست فخاري مملوء على منتصفه بماء فاتر، وقد ألقيت فيه أعشاب عطرية من نباتات الصحراء الغربية، وضع الطست تحت قدمي وطلب مني أن أضع رجليّ فيه، كانت هذه علامة ترحابهم بالضيف العزيز. سرى في عروقي حذر خفيف أزال عني الإرهاق والتعب، فأحسست بنفسي كأنني أتخلص من كل الصهد والحر

230- العروض: الخشبة التي تتوسط الخيمة وتحملها، ولذلك سموا أوزان الشعر عروضا.

231- آمان: الماء.

والتشقق الذي آلمني طيلة الرحلة. سألني الرجل: كيف نجوت من أَبِيجي[232]؟ قلت: لم أصادفه أبدا في طريقي، التفتوا إلى بعضهم البعض، وتبسم آخرون منهم، سألني مرة ثانية بقوله: هل تبعك طائر أو رافقك في الطريق إلى هنا؟ قلت: طائر؟!، رد بسرعة: طائر، نعم طائر صحراوي صغير أبقع على بدن أسود كالبدر يبدّد ظلمة الليل، قلت: آه، نعم تذكرت، رافقني عدة مرات وحام حولي، وربما هو الذي قادني إلى الغدير، لكنني منذ قدمت عندكم لم أره، اختفى فجأة. صاح كبيرهم: مُولا[233]- مُولا، أيها المبروك المنتظر، أنت الموعود منذ آلاف السنين، مكتوب عندنا عن القادم من مغرب الشمس الذي يفك الطلسم ويفتح كنوز الأولين ويمنحنا السعادة الأبدية وإرث الأجداد، مبارك قدومك، ومبارك من سار على أثرك، ثم نظر إلى شخص قريب منه، فما هي إلا ردة طرف حتى جاء بصندوق صغير عليه نقوش وحروف وطلاسم، فتحه ثم ألقى بين رجليّ حفنة من المفاتيح وهو يقول: هذه مفاتيح كنوز الأجداد والأسلاف، لكنها لا تستجيب ولا تُطيع إلا عرافا كبيرا مبروكا منذورا لهذا الأمر. وضعوا في وسط البراكة الكبيرة أنواعا مختلفة من مأكولاتِهم وأشربتهم، ولم تكن عندهم موائد، وإنما يوضع كل شيء على حصير فوق أمْضال[234] كما يقولون، واستقدموا مغنيا يعزف على أمْزاد[235] ومعه مرافق يضرب على تهيجالت[236]. كانت مأدبة فاخرة بعد كل هذا الجوع الذي عشته، وكان القوم فرحين مستبشرين وقد أخذتهم آجولل[237] وهم يصاحبون المغني وتابعه بالترديد والصياح والتصفيق وكلمات الاستحسان وكل مرة يصيح أحدهم: أَفُوس[238]، أَفُوس.

232- أبيجي: الذئب.

233- مولا- مولا: طائر يُتفاءل به عند أهل الصحراء والطوارق منهم خاصة « فلم تضع قافلة خرج في طريقها طائر العجب، لم تفتك الذئاب بقطيع نال ركعة من البدن الأبقع، لم تحل مجاعة في نجع حامت فوقه مولا-مولا، ولم تعرف القبائل وباء ما استضافت المخلوق الوديع في ربوعها، كما لم يحدث أن تاه رسول أو عابر سبيل وفقد الطريق إلى الآبار إذا تلقّى البشارة من دليل المسافرين» «إبراهيم الكوني: السحرة – رواية، ج1 / ص48».

234 - أمضال: الأرض أو التراب.

235- أمزاد: آلة ذات وتر واحد تشبه الكمان.

236- تهيجالت: طبل محبوك من جلد البعير يستعمل خاصة في مناسبات الزفاف.

237- آجولل: حالة وجدية من أثر الغناء.

238- أفوس: التصفيق.

طوال ثلاثة أيام عشتها كأمير، طعاما وشرابا ورفاها منعما ونكاحا مُتخما، ولنا عودة إلى موضوع هذا الأخير في فصل فريد، دخل علي كبير القوم في رهط من رجاله صباح اليوم الرابع من دخولي قريتهم، هاشا باشا مرحبا، وهو يقول: اليوم أصبحت واحدا من العشيرة يطولك ويسري عليك عُرفنا وتقاليد أجدادنا. استراح في مجلسه وكذلك فعل الآخرون، وقد صنعوا دائرة كنت في محيطها مواجها السيد الكبير، طلب من خادمه الذي لا يفارقه أن يأتيه بالطروس المحرّزة. لحظة وانقضت، كان القادم بعدها قائما بين يدي سيده، وضع صندوقا مربعا طول ضلعه لا يزيد عن ذراع[239] ـ وهو غير صندوق المفاتيح ـ زُيّنت ألواحه بنقوش وزخارف زاهية بصباغات ألوان خضراء وصفراء وحمراء، وكأنها صُنعت للتو، إذ تفاجأت عندما أخبرني السيد الكبير أنها للأجداد الأولين قبل وصول دين الإسلام إلى هذا الربع، وزاد قائلا: إنهم حفظوها وحافظوا عليها حتى لا يصل إليها الغزاة والفاتحون من كل جنس أو عرق، ما دامت الإشارات لا تنطبق عليهم، ثم استطرد في الخطاب فقال: جاء في وصايا الأولين من أسلافنا أن من كتب عليه وقدر له في علم الله أن يفتح الكنز المدفون والسر المختوم بالحفظ والصون والمحرّز بآيات معجزات وجند من الجن المسخرين ليلا ونهارا وزمنا سرمدا، رجل قادم من الغرب حيث تغيب الشمس كل يوم ولا تشرق من هناك أبدا. لا أثر عليه من سفر أو ضنك أو اعتلال صحة وبدن، طويل القامة، قوي البنية، طلق الأسارير، عالم نحرير فقيه، حافظ للقرآن، يسافر وحيدا بلا رفيق، عليه سمات النبل والوجاهة والنباهة، لا متاع معه، ولا ناقة تقله، ولا حصانا يركبه، قوي الشكيمة، صلب العود، ولا يخاف ولا يهاب إنسا ولا جنا. وقد عرف عند الأولين من أسلافنا اشتهار أهل بلاد المغرب بالعرافة والسحر، حتى ساد الاعتقاد عندنا أن للمغاربة في فن التعاويذ والرقى وأسرار الأسماء والسحر اليد الطولى دون غيرهم من الأقوام.

استويت في جلستي وحبست أنفاسي، فتصاعد الدم إلى رأسي واحمرت أُذناي وتيبّس فمي فأنجدته بكوب ماء. فتح الصندوق بسبعة مفاتيح مختلفة، ثم رفع الغطاء الفوقي حتى استراح في موضعه، فاشتغل بإخراج محتوياته، وكانت

239- الذراع: نصف متر تقريبا.

أوراقا وأحجارا وحيوانات صغيرة محنّطة وأعواداً غريبة الشكل وقطع مختلفة من الثوب، وجلوداً حيوانات مدبوغة، عليها رسوم وأشكال وخطوط، وفي الصندوق أيضا أقلام من قصب وكَصبة صغيرة ورفش صغير وقلادة من الودع الأصفر الداكن، في وسطها كرة خضراء زاهية. قلت لنفسي: هذه عدة السحرة والعرافين ومن سار في دربهم، فماذا ينتظرون مني؟ عندما انتهى السيد الكبير من إفراغ الصندوق من الودائع رأيت على وجوههم علامات الدهشة والمفاجأة والحيرة، وكذلك كان كبيرهم، علمت أنهم يفتحونه لأول مرة ويطلعون على أسراره حالا، مثلي تماما، فلعلني سوء طالعهم، لولاي ما كانوا فتحوه ولا انشغلوا به ولا اهتموا ولا حزنوا كما رأيتهم الآن، الآن ستحل عليهم لعنة الأجداد عندما كشفوا المستور واطلعوا على السر وهتكوا حُرمة الكتمان ونبشوا فيما نُهوا عنه. ربما كان ذلك حديث كل واحد منهم مع نفسه، إما الحصول على الكنز وإما اللعنة الأبدية، بعد أن كشفت الأسرار وتعرت الحقائق وظهر الخفي المستور، أجنة أم جحيما؟ أنارا أم بدرا وسلاما؟ ذلك ما كان يحدث به كل واحد نفسه، وقد أصبحت واحدا منهم، وخمنت أنها ستدور وتدور ثم تقع على رأسِي، فأنا موقد نارها ومفجّر كوامنها. ساد الصمت الناطق بالاتهام والظن والشُبهة، وغاص الجميع في سكون لا نهاية له، دون أن يتجرأ أحد على خرقه، وكأنه يخشى أن يزل لسانه فتنزل عليه لعنة متسترة حول كلمة أو اسم أو حرف، وأضحى من الصعب أن ينظر أحدنا في عيني من يقابله دون أن يقول شيئا، ولكن إلى ما سينظر؟ إلى الصندوق، إلى سقف الخيمة الكبيرة، إلى الخادم الواقف بالباب وهو يغرق في عرقه، لم يكن صمتا بمعنى الصمت عن الكلام، ولكنه كان صمتا يحتوي كل الكلام الذي عرفته البشرية وما لم تعرفه. كانوا أمامي وحولي ينتظرون، وكنت أعرف أن هذه فرصتي وعليّ أن أفترصها[240] لأكون خارقا مُعجبا من صنع الأقدار، فقلت بعد أن تأكدت أنهم مستعدون لأن يموتوا صمتا على أن ينبسوا ببنت شفة، لنقرأ الفاتحة ترحما على أرواح الأجداد الذي سلمونا هذه الوديعة، عسى الله أن يلهمنا حسن التدبير وصواب الاستعمال على الوجه الأكمل. تنفسوا الصعداء وأخرجوا أصواتهم المبحوحة من أثر جفاف

240- أنتهزها.

أفواههم، تشجع السيد الكبير بعد الختم والدعاء وقد علت وجهه بشاشة وحبور وزال عنه وعن الآخرين الخوف من عاقبة من يدنس أو ينبش في ودائع وتركة الموتى، وعلى وجه الخصوص إن كانت من المقدسات المحرّزة بالتعاويذ والرقى، فقد كان الصندوق مرصعا بكتابة وخطوط مما كنت أعرف بعضه في الأحجبة والجداول التي يصنعها الفقهاء والطلْبة ببلاد المغرب، لكنني رأيت أكثر من ذلك على خشب الصندوق، فلم يترك مكان فيه دون أن يُخط عليه حرف أو رسم، وقد أفهمني السيد الكبير أنها لغة الأجداد الأولين التي لم يعد أحد يعلمها أو يتعلمها أو يقرأ بها ويكتب، وإن كان الكلام والحديث بها. بسط شيخ العشيرة ما في الصندوق من محتويات، وأخذنا في التعرف عليها بالنظر ثم اللمس ثم التفهم والفهم لما يُقصد بها، أو ما كان يبتغيه الأولون من حفظها للأجيال المتأخرة. كانت هناك تخطيطات لمسالك أماكن لم يعد لها أثر كما قال أهل العشيرة، فكيف يمكن الاهتداء إليها وقد اندثرت معالمها ودرست منازلها؟! ورسوم لبعض المجوهرات والحلي، جميلة وبهيّة، أثارت حماس القوم وألهبت عواطفهم، وربما حركت الجشع والطمع في قلوبهم، لكن المسألة زادت تعقيدا، فالكنز إن كان موجودا، فإن الطريق إليه غير سالك وطلسمه السحري بيد الجان الذين يحكمون مملكة باطن الأرض. الآن يمد العبدي رجليه قياسا على رجلي أبي حنيفة، اتكأت بجذعي على عمود ورفعت كوب الشاي إلى فمي، أرتشفه باشتهاء وتلذذ ما بعدهما من متعة وابتهاج، سيقضون وقتا طويلا في البحث عن مكان الخبيئة[241]، وسيمنحني ذلك وقتا طويلا لأرتب أمري وأتدبر أحوالي للخروج من هذه الورطة. اخترقني شيخ العشيرة بعينيه الماكرتين وهو يقول: سنعمل منذ الغد على البحث والتنقيب عن الكنز المدفون[242]، وستكون أنت أيها الغريب صاحب الشامة والعلامة، المرصود منذ القدم لهذا الأمر، قائدنا وأميرنا في هذه المأمورية، أنت وحدك أيها الشيخ المغربي، الحامل للقرآن والعالم بالخط وقراءة الطالع والماهر في صنع التعاويذ والرقى وصاحب التعازيم وفنون السحر، أنت الوحيد الذي ترهبه الأرواح وتسلم له المفتاح. كتمت غيظي حتى

241- 242- يستعمل العبدي لفظ «الخبيئة» كما يستعمله السحرة والمنقبون عن الكنوز، في حين يستعمل أهل العشيرة عبارة «الكنز المدفون».

لا يفضحني أمام القوم، وابتلعت لساني حتى لا ينبس بكلمة، ثم أطلقت أسارير وجهي وأنا أقول: أنا في خدمة العشيرة وشيخها، تهللت وجوههم واستبشر كبيرهم خيرا وفألا حسنا وهم يصطحبوني إلى الخيمة التي أعدوها لي مسكنا ومخدعا، عندما دخلتها وجدت امرأتين في خدمتي وخدمة البيت.

فصل فريد في نساء العشيرة..

لو خصصنا عدة كراريس للمرأة ببلاد السودان وعموم أفريقيا لما أوفيناها حقها من البحث والتأليف، وهي غير المرأة ببلاد المغرب ودول الإسلام، حتى ولو كانت ببلد من السودان يدين أهله بالإسلام. في هذا المكان الذي يسمونه "تاسا-تاكورات" والمشهور بوفرة المياه وقربها من سطح الأرض، ستة أذرع أو عشرة من الحفر يتفجر الماء، تقوم المرأة بأهم التكاليف والأعباء لتحصيل المعيشة وتربية الأطفال وأعمال الزرع والرعي وغرس فسائل الخضراوات والأشجار ذات الثمار، أما الرجال فقد خصصوا كل أوقاتهم إن لم أقل كل حياتهم للبحث عن الخبيئة التي تركها الأجداد والأسلاف، المدفونة تحت الأنقاض والمحروسة بملوك الجان. وقد سخر القوم كل شيء تحصلوا عليه لخدمة هذا الأمر حتى لو كلفهم ذلك هلاكهم وهلاك زوجاتهم وأولادهم. ومن عاداتهم أن يهبوا الضيف القادم عليهم امرأة تخدمه في البيت والفراش، حتى ولو قضى ليلة واحدة عندهم، ولهم في ذلك غاية، وهي أن يترك في بطن المرأة ولدا يُربى للبحث عن الخبيئة أو بنتا لتقوم بخدمة الرجال الباحثين عنها. ولا يُطلب من الضيف أن يتزوج المرأة، فإن أراد ذلك، فله ما يريد، وإن لم يقبل فلا حرج عليه.
وجدت في الخيمة التي خصصوها لي امرأتين، سيدة وخادمة، فتزوجتهما معا حتى أكون عادلا وألد لهم ذرية حسنة تسعى في سبيل البحث عن الخبيئة. ولأمر آخر أخفيته عنهم، وكنهه أن أجعل من النسوة الضعاف المقهورات والمقموعات حلفا يساندني عندما يحين الوقت المعلوم الذي قد تظهر فيه الخبيئة أولا تظهر، أما كيف؟ فهذا ما ستأتي به الأيام التالية. ولما كانت الخبيئة التي تركها الأجداد للأبناء والأحفاد تركة وإرثا مرصودا بالجن والشياطين، وكان السحر آلة فك الطلاسم والتعاويذ، فإن المرأة هي الساحرة الأولى في هذا الكون، ألم تسحر

آدم حتى أكل من الشجرة التي حرم الله أكل ثمارها ؟ ألم يتلبسها الشيطان بالإغواء والفتنة؟! زبائن السحرة في بلاد المغرب أغلبهم من النساء، فلأجعل من نسوة العشيرة زبوناتي المفضلات ولأجعل من السحر قوتهن للسيطرة على الرجال وترويضهم حتى وإن لم يفلح الساحر من حيث أتى.

رجع إلى ما كنا فيه..

كنت أعي أن هؤلاء القوم سيوقعون بي في البحث عن خبيئتهم أو كنوزهم المدفونة - كما يقولون - تحت الأرض، ولن يتنازلوا قيد أنملة عن أنني الرجل الموعود صاحب الشامة والعلامة الذي أُرسل من السماء لفك الطلاسم وإغراقهم في المجوهرات والحلي والقلائد والسبائك الذهبية، وأنهم سيصبحون أغنياء العالم وسادة الدنيا. وقد أصبحت مُلزَما بإبطاء سيرهم وعرقلة خطواتهم ونسف خططهم وتفنيد أقوالهم وتعطيلهم حتى يجعل الله لي مخرجا سالما من هذا المكان الملعون. وكانت خاطرة إغراق النساء بالسحر وإقناعهن بأنه طريقهن الوحيد للسطوة والسيطرة والسيادة وكبح الرجال ركنا رئيسا من أركان الخطة التي بدأت التفكير فيها منذ اليوم المشؤوم الذي فُتح فيه الصندوق العجيب. وعلى بركة الله بدأت العمل بقراءة الكف والطالع وضرب الفأل بالكارطة والخط على الرمل، وقد أثمر ذلك وجعل النسوة صفوفا أمام خيمتي، وتكلفت زوجتاي بالنظام والترتيب وأخذ الهبة أو العطية التي ترفعت عن حيازتها، فتركتهما تتقاسمانها، ما قوّى شهوتهما للطمع والفوز بالأكثر، فاجتهدتا وجدّتا في دعوة النساء إلى حضرتي. رتبتا للأمر ترتيبا شيطانيا بأن كانتا تسربان إلي بما تعلمانه من أسرار النساء وخباياهن، وتستعلمان وتتقصيان عن كل شاردة أو نادرة، وقد نفع كل ذلك وأثمر وأعطى ناتجا ومكنني من سرعة البديهة وحسن الإشارة حتى لا يفتضح أمري، فعظم شأني بينهن، وبدل أن أبحث للقوم عن خبيئتهم، أخذت أبحث لكل امرأة عن الخبيئة المدفونة في صدرها والتي لا تستطيع الكشف عنها مخافة الرجل وأهل العشيرة. انتقلت في عملي إلى الطبابة وعلاج الأمراض، وقد نفعني ما تعلمته من الطبيب النصراني، فجمعت بين طب النصارى وطب المسلمين، وقد أثار ذلك عجبهم وأدهشهم عند ما كنت أضع أصبعي على عرق

رسغ اليد لأجس حركة الدم أو أنصت إلى دقات القلب لأحسب عددها أو أعلم انتظامها، أو أضرب على ظهر المريض لمعرفة حالة الصدر أو أنظر في عينيه بتقليبي لجفنيه وهل فيهما صفرة أو ماء أو ظُفُر، أو أفتح فمه لأرى إن كانت هناك دمامل أو فِطر، وعندما كنت أدعوه للتبول أو التغوط وأطلب منه أن يأتيني بشيء منه لأنظر فيه، كانوا يفغرون أفواههم وتنتصب آذانهم كالأرانب وهم لا يفقهون. استعنت بمعارفي عن الأعشاب الطبية والعطرية، فكنت أنصحهم بالأدوية التي يسميها العشابون بمُفرِّحات القلب، وهي أعشاب مفرّجة وأدوية مقويّة للقلب وبُروز مُصلحة للمعدة. وعندما تعطيني المرأة ـ وقد بلغت سن اليأس ـ يدها، أتفرس[243] في خطوط باطن كفها مليا ثم أقول وأنا أشير إلى تعرجات الخطوط: سوف تعيشين طويلا إن شاء الله، فتفرح المرأة وتبتسم للحياة، وهذا ما كان ينقصها لتعمّر طويلا،. وكانت هناك نسوة عاقرات، لم تنفع معهن إلا خلطة الأعشاب للرجل والمرأة معا قصد استنهاض الغلومة واستقواء الانتصاب والجماع بعد الأيام العشر المُوالية للحيض، وزينت العلاج باختيار الليالي المقمرات ودورة منازل القمر على أن تكون منزلة سعد السعود مبتغى ومطلبا. ومن غريب الأمور أن امرأة عاقرا ولدت على يدي بعد أن عجزت عن الإنجاب منذ زواجها وهي بنت أربعة عشر عاما حتى بلغت الثلاثين يوم عالجتها وزوجها بالأعشاب المقويّة، وقد رفع ذلك من شأني وعظّمه في أعينهم حتى بدوت لهم كالمُعجزة. ولكي أهرب من هؤلاء الرجال الباحثين عن سر الخبيئة تعاطيت أيضا تطبيب ومداواة أمراض العيون كالظُفُر والبْياض وقلع الأسنان والأضراس والحجامة وفصد الدم، ولست أدري هل سيصدق أحد من الناس بالمغرب إن قلت إنني وجدت عشبة أشبه ما تكون بعشبة الكِيفْ في الأرض المجاورة للبركة المائية الواقعة خارج القرية وإن كانت قليلة، فاَستعملتها للتخدير حتى لا يحس المريض بألم أو وجع عند قلع السن، وكدت أقدم على نشرها بينهم كدخان، لكنني أشفقت عليهم من الوباء العظيم الذي سيحل بهم عندما وجدتهم يستعملونها كبخور مقدسة في طقوس ـ لعلها من رواسب جاهليتهم الوثنية ـ حفلات الزفاف وأيام الخصب وفيضان الوادي. وكم كان عجبي كبيرا عندما

243- من الفراسة: قراءة ملامح السحنة أو خطوط اليد لمعرفة قبيلة الشخص.

رأيتهم نساء ورجالا يقبلون بنهم كبير على الأدوية المقويّة والمسخنة لكثرة الجماع وشدته وقوة الانتصاب وطول النفس، ولم أر في ذلك فرقا بينهم وبين أهل فاس وباقي أهل المغرب، فقد تساوت الأقوام في تمجيد النكاح حتى كادوا يقدسونه ويعبدونه، وقد رأيت عشائر شيدت هياكل ونصبت أنصابا شبيهة بالأير والفرج تقيّم لها طقوسا وحفلات. شهورا طويلة وهم يقلّبون الأرض سافلها على عاليها علّهم يهتدون إلى موطن الخبيئة كما يعتقدون، كنت إبّان هذا الوقت أبحث عما يبعدهم عني ما داموا لم يعثروا عن أثر يدلهم إليها. ولا أدري كيف انتبهوا إلى أنه بمقدوري أن أرشدهم إليها، وأن السحرة المهرة في فنهم يمكنهم أن يقتفوا أثر العلامات الموصلات إلى مدافن الخبيئة، وقتها لم يعد بمُكنتي الإنكار ولا التهرب مما اقترفته يداي وتكلم به لساني. قلت: على بركة الله، ما دمتم لم تصلوا إلى شيء، فلنجرب آلات السحر وشياطينه لعلنا نفلح في الحصول على الخبيئة. تربّعت في جلستي وواجهتهم بوجه لا بشوش ولا عبوس. ولكنه صارم حازم، كأن صاحبه مقبل على حرب لا مساومة ولا مهادنة فيها، إما نصر أو موت، خاطبتهم بالقول: اعلموا حفظكم الله ورعاكم، الجان مخلوقات ذميمة قزمة، تسكن باطن الأرض كما تعيش في المغارات والحفر والخرابات والأرمدة المتبقية عن النار، لا تنام أبدا، الغفوة القصيرة تكفيها فوق تلال الذهب والفضة ونفائس المجوهرات والحلي التي أوكلت إليها حراستها. وهم يغالبون النعاس ويحاربونه بالصخب والضجيج بإقامة حفلات الرقص والعزف على الغيطة والضرب على البندير، ما يُذهب عنهم النوم ويفيقهم أسبوعا كاملا آخر، ويكون حفلهم ليلة كل خميس، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أو يستولي أحد على الخبيئة فيحررهم من أغلالهم بالموت الذي يهربون منه بتشديد الحراسة وقتل كل من يحاول انتهاك الخبيئة. قال كبيرهم وهو في حالة من الشرود والذهول، صوت الغيطة نسمعه، ولكن لا نعلم في أي يوم من أيام الأسبوع. حام فوق رؤوسنا طائر الرخ الرهيب صاحب السندباد في حكايات ألف ليلة وليلة، وغاب طائر مولا-مولا المحبب عند أهل الصحراء، وتذكر كل نفر يوم فتح الصندوق، لعل الندم قد عصر القلوب وأدماها أسفا وحسرة، فقد كان بالإمكان عدم فتح الصندوق والاكتفاء بالأمل المشرق بدلا عن الموت المنتظر والفناء الكامل للعشيرة بسبب حميّتها في البحث عن الخبيئة الملعونة. لا أنكر - أمام نفسي بالذات والصفة - أنني ارتعبت وخفت وندمت على دخولي هذه القرية

وظهوري أمامهم بهيئة المنقذ والمُنجي وفكاك الأسرار ومُخلص الكنوز من حراسها، ندمت على ما فعلت، وماذا لو كان صائبا، ومن يدري أنه لا يدري، ألم يذكر القرآن الجن والمخلوقات النارية كالشياطين والأبالسة، وأن فيهم المسلمين والكفار، ماذا لو كان ذلك حقا، ألم يحكم سليمان الجن وسخرهم لمشيئته، حتى عرش بلقيس حُمل له قبل أن يرتد له طرفه. سرت في رُكبي قشعريرة ورعدة، وسخنت جمجمتي كالفرن، وعلاني احمرار دم، وبز عرق من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. ماذا أقول لهؤلاء المجانين المهووسين؟ أأتركهم يقضون عليّ وعلى آمالي وغادتي الفاتنة الساحرة الغامضة التي تزورني كل ليلة منذ دخلت هذا النجع الملعون، كل ليلة وقبل طلوع الفجر. ما باليد حيلة، فلأسايرهم حسب عقولهم، ولأسايسهم بالتي هي أحسن، فهؤلاء مجانين يبحثون عن خبيئة يحرسها الجن، وأنا مجنون عاقل ركب رأسه فوقع في مصيدة لا يظهر فيها باب للنجاة، وكما قيل: إذا رأيت قوما يعبدون العجل، فَحُش وارْم له، هؤلاء يعبدون الذهب ولن يثنيهم شيء عما يعبدون، وكان علي أن أدخل معَهم في سجال طويل وأن ألاعبهم على رقعة شطرنج لا أترك لهم فيها فرصة قتل الوزير ولا محاصرة الشاه والإطاحة به. قلت لهم بعد أن تركتهم ينتظرون برهة ليست بالقصيرة، عليكم بالحصول على بيضة الديك العجيبة. بيضة الديك؟! قالوا جميعا باندهاش وتعجب، ثم قال كبيرهم: وكيف نحصل عليها؟ وهل يبيض الديك؟ قلت باستعلام متعال: اتركوا ديكا سبع سنوات في خُم الدجاج، وعند متم العام السابع سيضع بيضة من ذهب. أفواه فاغرة وعيون جاحظة وحيرة العاجزين تحوم على رؤوسهم. تشجعت واثقا بنفسي وزدت قائلا: هذا عمل يقوم به الفقهاء والطلْبة عندنا في بلاد المغرب من أجل الكشف عن الخبيئة حيث توضع البيضة الذهبية في المكان المشتبه فيه، فإن كانت الخبيئة مدفونة به حقا وفعلا، فإن الأرض ستنفتح بمجرد وضع البيضة فوقه، كلمة السر إذن قال كبيرهم ثم أضاف، افتح يا سمسم كما يقول علي بابا، قلت في سري، أنت هو، وهؤلاء الأربعون حرامي، ولكن بدون كنوز. تصايحوا جميعا: وكيف لنا هذا؟ كان صياحهم حادا وزاعقا يكشف عن يأسهم ونفاد صبرهم من طول ما انتظروا وانتظر آباؤهم وأجدادهم وسلالتهم والأولون منهم، قلت مهادنا مسالما بعد أن رأيت حُمرة النار في أعينهم، هذه التعويذة هي الأصح والأكمل عند دهاقنة السحرة والفقهاء الضالعين في تسخير الجن والمحادثة معهم، ننتظر بيضة الديك

حتى تظهر وتبين، وخلال ذلك نجربّ طُرقا ووسائل أخرى مما هو معلوم مجرّب عند الباحثين عن الخبيئة. استبشروا وهللوا وقبّلوا يديّ وأطراف ثوبي، كنت أستعلي عن ذلك إباء وثقة بالنفس وثبات جأش كأنني عالم وعارف بوجود الخبيئة وقادر على إخراجها. بعد أن هدأوا أشرت إلى كبيرهم قائلا: غدا تأتون بديك أبيض، لا ريش ولا زغب فيه غير الأبيض الناصع، إياكم ثم إياكم من مخالفة ذلك حتى ولو كانت زغبة صغيرة دقيقة لا ترى بالعين، حذار، حذار أن تكون به زغَبَة سوداء فتنتف ثم تدّعون أنه ديك أبيض، هلاككم وفناؤكم وانقراض سلالتكم إن ارتكبتم هذا الذنب العظيم. طالت مدة بحثهم وتنقيبهم عن هذا الديك الأبيض حتى ظننت أنهم لم يجدوه ولن يجدوه أبدا ـ وهل في هذا البلقع من الأرض شيء أبيض ـ وكيف يوجد ديك أبيض وهم زنوج سود لا أبيض فيهم إلا الأسنان المسنونة كالمنشار. لكنهم جاءوني ذات مساء فرحين مهللين مستبشرين وفي قبضة كبيرهم ديك ناصع البياض كأنه قطعة من الثلج أو القطن. سقط في يدي، وأنا الذي كنت أمنّي النفس وأسلّيها بأنني قد أبعدتهم وأقصيتهم بالبحث عن الديك الأبيض. والله ما رأيت قوما أكثر عنادا وصلابة رأس مثل هؤلاء القوم، من أجل الخبيئة المطمورة يجترحون المعجزات ويتحدون الصعاب ويُناطحون المستحيلات. قلت لكبيرهم: عليك أن تأتيني بقطعة من جلد الضبع وحفنة من تراب وِجاره وقليل من الزعفران على شكل زغبات دقيقة. مع طلوع الشمس جاءوني إلى خيمتي ووقفوا أمام الباب ينتظرون، أخذت الوقت الكافي حتى أخرج إليهم في حلة وهيبة وسمت يُعلي من قدري ويجعل من كلمتي بينهم هي العُليا وكلمة غيري هي السفلى. أخرجت زوجتاي كرسيا واطئا ومحبرة اللك التي أعددتها ليلا وأقلاما طويلة منجورة بعناية ودقة. جلست بوقار وأخذت من كبيرهم الزعفران فخلطته بالماء، وإن كانت التعويذة توصي بماء الورد، فلا شيء من ذلك عندهم، ثم أخذت في كتابة سورة الشعراء على ورقة كما يفعل الفقهاء المنقبون عن الخبيئة عندنا، وقد تعمدت أن أظهر اللك والقلم والورق كأغراض للسحر لا يقربها إلا السحرة الراسخون في العلم، وأما الخط المغربي، فقد أرهبهم وأخافهم أكثر من أي شيء آخر. وضعت الورقة في جلد الضبع ومعها تراب وِجاره، وعلّقت الحرز في عنق الديك الأبيض، ثم أعطيته لكبير القوم قائلا: عليك بالطواف به على جميع الأماكن التي يُشك في وجود الخبيئة بها، إطلق سراحه في المكان المنتظر بعد أن تحرق البخور، وسترى أن

الديك لن يتوقف عن البحث إلا حين العثور على الخبيئة عندما يأخذ في نبش الأرض بمنقاره ومخالبه وهو يزقو[244] وينتفض. ثم استدركت على ذلك بالقول: كل يوم اثنين والشمس في كبد السماء، لا تميل مقدار شعرة شرقا ولا غربا. حملت منساتي السحرية المرصعة بالودع واللوبان وقطع النقد الفضية وأحجار صغيرة من تبر تنبكتو وخرجت معهم إلى تقصي المكان الذي اختاروه، غرست العصا في الرمل وقدرت ميل الشمس نحو المشرق ومسيرها نحو المغرب، أمرتهم أن ينتظروا قليلا ثم أعطيتهم الإشارة فأطلقوا سراح الديك الأبيض، انكمش أول الأمر على نفسه، فلما آمن واستأمن وآنس وجود الناس، انطلق يبحث عن الحب وينبش الأرض وينقرها ويجري من جهة إلى أخرى وهم حوله صامتون شاردون تائهون ينتظرون اللحظة الموعودة التي ستنفتح خلالها مغارة علي بابا، لكن بدون جدوى، وأصل القضية أنني نبّهت عليهم أن لا يُطعم الديك شيئا ليلة قبل الميعاد، مرات عديدة كان كبير القوم يلتفت إلي متسائلا مستجديا كلمة مني تُطيّب خاطره وتهدئ نفسه وترفع عنه الأسى واليأس وشؤم الطالع، لكن النتيجة كانت دائما مخيّبة للآمال، والوقت يمر، والشمس تميل إلى ما بعد الزوال وعندها ينتهي الوقت المعلوم والمسموح به لمباشرة السحر ومخاطبة الجن أو طردهم. انتبهت إلى الساعة الموقوتة، فأسرعت إلى العصا وراقبت مسار الظل على الأرض ثم قلت لكبير القوم: يكفي هذا اليوم، حتى لو بقيت هنا مدة أطول، كل شيء بميقات ولكل أجل كتاب. وسار الحال على هذا المنوال شهورا طوالا لم نترك أثناءها شبرا إلا اختبرناه، ولا حفرة إلا أنزلنا إليها الديك، حتى خفت أن ينبت له ريش أسود من كثرة ما أرهقوه به من شد وجذب، انتهى بهم الأمر أن استسلموا وسلموا أنفسهم وسلاحهم مُجمعين على أن لا فائدة ترجى من كل ذلك. أما أنا فقد كان عليّ أن أفكر في حيلة أخرى ألهيهم بها حتى يفعل الله أمرا كان مفعولا. فتشت في ما عندي من أوراق السحر وأصول الحكمة وكنوز الأسرار وما كتبه أبو العباس البوني[245]، فلم أجد شيئا ملائما أو موافقا للمصلحة الوقتية التي أتخبط في لُجها. فكرت طويلا

244- زقا، زقوا وزُقا: الزُّقاء صوت الديك، والنقنقة للدجاج (الثعالبي، فقه اللغة، ص 245، ط 2006، بيروت).

245- صاحب كتابي: «الأصول والضوابط المحكمة» و«منبع أصول الحكمة»، المكتبة الحديثة، بدون تاريخ، عمان.

وتدبرت في الأمر، وقلّبته على كافة الوجوه، وراجعت ما فكرت فيه مرات ومرات، سرت وحدي في الخلاء ساعات، مهموما محزونا، لا أعرف طريقا للخروج مما أنا فيه، هالك لا محالة عندما يكتشفون نصبي واحتيالي، لن يرحموني ولن يأبهوا لاستعطافي، سأبدو أمامهم ضعيفا لا حول ولا قوة لي بعد أن كنت أخيفهم بمهابتي ومعجزاتي التي ستبدو الآن مجرد أكاذيب وألعاب أطفال صغار، سيزداد غيظهم ويعظم حنقهم، وسيكون انتقامهم من رجل غريب غرر بهم وخدعهم أياما وشهورا وأعواما شديدا رهيبا، لن يرحموني، سيكون عقابهم أشد من عقاب جهنم، وهل يعرفون في هذه الأصقاع رحمة أو شفقة، حقيقة أنهم سذج يسهل التغرير بهم، ولكنهم قساة غلاظ أشداء عندما يشعرون أنهم أُهينوا واحتُقروا وهُزئ بهم. يوم صعب ينتظرني عندما يَعون غفلتهم وسهوهم، كنت أخرج إلى الخلاء، أفترش الثرى وآخذ في الكتابة على الرمل حروفا وأرقاما وخطوطا[246] ونفسي تجيش بقول ذي الرُّمّة[247]:

عشية مالي حيلة غير أنني   بلقط الحصى و الخطِّ مـولعُ
أَخُطّ وأمحو الخط ثم أُعيدُه   بكفيّ والغربان في الدار وُقَّعُ

انقطعوا عن زيارتي ثلاثة أيام، ربما تشاوروا خلالها في الأمر، الحاصل أنهم جاءوني في اليوم الرابع على ميقات صلاة المغرب التي كنت قد توضأت لها وعلى وشك أن أصليها. استقبلتهم ورحبت بهم وظللت واقفا حتى جلسوا، ثم استأذنتهم في الذهاب إلى قضاء الصلاة، صليت النافلة والفرض وعقبت بنافلة ثم بصلاة استخارة، أطيل حتى أقف على قرار، حزمت أمري واتجهت نحوهم، كانت المرأتان قد تكلفتا بإعداد الشاي وخدمة كبير القوم وأصحابه، هجمت على القضية التي جاءوا من أجلها، قلت لهم إن هذه الأرض لا تخفي كنزا ولا تختزنه ولا

246- «أَبنَا عيان، ضرب من الرجز، وهو أن يخط الناظر في أمر بأصبعه، ثم بأصبع أخرى وهو يقول: أبنا عيان! أسرعا البيان!! ثم يخبر بما يرى، وهو مشتق من قولك: أرياني ما أريد عيانا..» (الجاحظ: م.س. هامش4، ص 63).

247- غيلان بن عقبة من بني عدي، كان بدويا قحا، لكنه تردد كثيرا على البصرة والكوفة، عُرف بحبه لميّة التي شبب بها عشرين عاما، قيل إنه توفي سنة 117هـ (735م). كان مولعا في كتابته الشعرية بتشبيه بعض الأشياء المختلفة بالحروف، عاصر من الشعراء جريرا والفرزدق، له ديوان مطبوع.

تخبئه، ولو كانت هناك خبيئة ولو كانت على ميل تحت الأرض لانكشفت وظهرت بفعل الطلاسم والتعاويذ والتعازيم التي صُنعت وهُيّئت من أجل ذلك، أنكروا قولي ورموا أمامي محتويات الصندوق العجيب الموروث عن الأجداد، قلت: هذا لا يكفي، ليس في التقاييد مكان معين مرسوم محدود بعلامات بيّنات يستدل منها على موقعه، تريدون ذهب الكنوز، أخرجت من جُوالي الصرة التي كنت أحملها معي من تنبكتو أو ما تبقى لي، وهو حفنة من الحَبِّ وشذرات من التبر، فرشت منديلا وأفرغت الصرّة، من أين هذا؟ تصايحوا جميعا في وقت واحد، قلت: من مملكة مالي، قالوا: وأين توجد، أشرت بيدي وقلت: حيث تغرب الشمس. أعدت حبات التبر إلى الصرة وأنا أقول: ليس في بلادكم كنوز مدفونة كما تقولون. احتقن وجه كبير القوم وازداد سوادا فأصبح كالغول المتوحش أو القرد الكبير الشبيه بالإنسان، استبقته إلى الكلام مداراة واتقاء لصد ما يكون قد فكر فيه من سوء أو شر، قلت: هل لهذه الخبيئة التي تزعمون وجودها ورثة، قال الشيخ الكبير: ماذا تقصد؟ قلت: أي وجود أحفاد رجالا ونساء من سلالة أصحاب الخبيئة؟ قال بامتعاض واستنكار: نحن الورثة، الكبير وحاشيته، قلت: والآخرون، أفراد العشيرة، ما نصيبهم من هذه التركة، ألن تقسم بالتسوية على الجميع؟ وقف وهو يصيح بأعلى صوته، لا أحد له الحق في الكنز، أنا وحدي أملك الكنز ومعي من أرى له أحقية، لسنا من أهل التسوية، السادة الأولون دفنوا الكنز من أجل السادة الذين سيخلفونهم، لا من أجل هؤلاء الرعاع، هم مجرد أتباع وخدم، الكبير والحاشية هم السادة. طفح الكيل برأسي الذي كان يؤلمه دائما هذا الطباق بين السيد والعبد، لكنني كظمت الغيظ وأظهرت حسن الفهم والموافقة حتى هدأ كبير القوم منتشيا بإفحامي وسكوتي المُذّل. استجمعت شجاعتي ولملمت أطرافي المتداعية من فرط الصهد ومجابهة العدو المتربص بي أن أقع في أية لحظة لينقض علي بدون رحمة أو شفقة. كنت قد تحوطت للأمر، وأعددت العدّة القويمة لهذه الساعة الرهيبة، وما أنا بخوان ولا آثم ولا أفاق، إن هو إلا عمل من أعمال الحذاقة، وما أنا بساحر ولا بصاحب دجل ماكر، ولا أفاك أثيم، إن هي خفة يد وصنعة من الصنائع القائمة على اللبس والتلبيس، وما هي – والعياذ بالله – من أعمال الشيطان، إن الشيطان وأصحابه في ضلال مبين. كل ما في الأمر، أنني كلفت إحدى المرأتين أن تأتيني بولد كبير القوم لأفقهه وأعلّمه بعض معارف القراءة والكتابة وأحفِّظه بعض آيات

الذكر الحكيم، وقد استبشر الشيخ لذلك وفرح كثيرا، فأرسل ابنه على جناح الريح إليّ، أما أنا فقد كان لي في ذلك أمر آخر، لهذا اليوم بالذات، إذ قلت لكبير القوم: مفتاح الخبيئة عندك أيها الكبير المبجّل، قال: كيف ذاك أيها الغريب؟ اشتممت رائحة الكره والغدر في لفظة "الغريب"، وهو الذي كان يناديني بالمبروك والرجل الصالح ومبعوث السماء، قلت عل الفور والتو: ولدك سيدي، قال، وما دخل ولدي في أمر الكنز؟ قلت بهدوء وحكمة: ولدك مبروك ومبرور، كتب له في القدر المحتوم والقضاء المقدور في كتب الأولين أن تفتح الخبيئة والخزائن المدفونة والمحروسة بالطلاسم على يده، فهو التعويذة السحرية التي تعلو ولا يُعلى عليها والتي يبطل إلى جانبها كل سحر أو حرز أو جدول. شد على رأسه بيديه، احتقن الدم في وجهه حتى كاد أن ينفجر غضبا وحقدا، خلته وقتها أنه سيستل رمحه ليطعنني حتى أصمت إلى الأبد، لكن الحضور الكبير لرجاله بالخيمة منعه من ركوب موجة الغضب واقتراف أي عمل أخرق. قال بلغة من يرى الهزيمة تحيط به من كل حدب وصوب، وكيف يكون ذلك أيها الرجل الغريب؟ قلت: ولدك يا سيدي ممن يسمى عند أهل الحكمة والسحر بالزوهري، أنظر إلى يديه، راحتا يديه مفلوقتان[248] وكذلك لسانه، نظره قصير ولا يستطيع الرؤية إلى بعيد، من اجتمعت فيه هذه العلامات أو بعضها، فهو من أبناء الجن، تم استبداله في مولده بأحد أبناء الآدميين، ولذلك فالزوهري لا يخاف أذى الجان أمثاله إن اقترب من الخبيئة. ساعتها التفت كبير القوم إلى ركن من أركان الخيمة، فوقع بصره على شيخ طاعن في السن، تبادلا النظرات، طأطأ الشيخ رأسه كمن غُلب على أمره أو كمن يقول: ألم أقل لك من قبل؟! عرفت أن سهمي أصاب مقتلا في كبير القوم، واجهني بوجه شاحب، حتى لو كان أسود البشرة، فقد كان شحوبه ونفاد الدم منه جليا واضحا، وهو يقول بصوت شبه أخرس: وما العمل الآن؟ قلت بثقة العارف العالم: لم يبق أمامنا إلا أن نُجرّب تميمة الزوهري، وأنت تعلم أن الزوهري منذور كقربان للذبح فوق موقع الخبيئة. وكأن كبير القوم سقط في بئر عميقة الغور، فلم يعد يُسمع له حسيس ولا يُرى له بصيص، تلفت إلى رجال عشيرته، فرآهم يُحدقون فيه، وكأنهم يقولون: أكنت تخفي عنّا ذلك؟! أفضلت ابنك على كنوز الأولين

248- خط يقطع راحة اليد واللسان عرضا.

وذخائر الأجداد؟! كان يرى في نظراتهم اتهاما واشتباها بأنه أجرم في حق العشيرة ونكث بالعهد ولم يوفهم حقهم. قام غاضبا، نظر إلي شزرا ورماني بشرر ثم خرج، لحقوا به على عجل، لم يُحيّون تحية الوداع كما اعتادوا، تأخر الشيخ العجوز حتى انفض المجلس، اقترب مني وقال: هذا ما كنت أخشاه، اللهم إننا لا نطلبك رد القدر، ولكن نطلبك اللطف فيه. قضيت ليلة بيضاء، لم يعرف النوم فيها طريقا إلى عيني، وليلة سوداء كالحة لما انتابني من هواجس ومخاوف وتلبيسات. في اليوم الثالث لهذه الواقعة، جاءتني إحدى الزوجتين بأخبار لا تسر، فقد ألّب كبير القبيلة أفرادها عليّ، وأذاع بينهم أن ما قلته بصدد ابنه الزوهري مجرد أقاويل وأكاذيب وشائعات لا يمكن أن يصدقها عقل، وإذا كان - ولا بد – من قربان، فإن الوافد الغريب ـ يقصدني أنا ـ أولى وأحق أن أكون قربانا للكنز وللجن معا، فهو عدوهم اللدود الذي يحاربهم ويعاندهم بما يعرف من تعازيم وتعاويذ. وتزيد في القول – الزوجة – إن الناس التموا حوله وعضدوه وناصروه، وأنهم قد أضمروا قتلي واغتيالي. ثم جاءت الزوجة الثانية بأشياء أخرى تسير في نفس السياق. لن تعدم جزاء خير أو معروف تقوم به، لقد جمعت المرأتان من وراء ظهري ثروة كبيرة مما كن ينهبنه من نساء ورجال العشيرة، حلال عليكما ذلك، الآن ردتا الديْن وأوفيتا الميزان، قلت لهمتا: ألا تخافان ما ينتظركمتا؟! قالت إحداهما: لا تخف علينا، أمّن نفسك، نحن أمتان لكبير القوم، لن يحاسبنا لأنه يعتقد أننا كنا ننقل إليه كل ما يريد عنك، ولكنه لا يعرف أننا أحببناك، فقلت: اليوم أمر، وغدا أمر آخر، لا تخافا عليّ، سأتدبر أمري إن شاء الله. كنت من زمرة الذين كتب عليهم السهر ومخاصمة النوم كالعاشق والموسوس والطريد والمطلوب من لدن المخزن، وكانت السماء مكفهرة وريح قبلية رملية تنذر بالهبوب، توضأت وصليت، خرجت متخفيا في عباءة الليل السوداء الداكنة، هرولت خارج الحي، أسرعت السير مبتعدا، عدوت بأقصى ما عندي من قوة وبأس، ألتفت إلى الوراء أحيانا فلا أرى أحدا، لكن قلبي لم يكن مطمئنا، فلازلت في ديارهم وحماهم، عُدت إلى الهرولة لأستعيد أنفاسي حتى لا تزهق روحي من فرط الجري، بعد وقت قصير خلته طويلا، ركضت كالحصان، أن أموت عدْوا خير لي من أن أموت مقتولا مغدورا في هذه البرية الموحشة. وصلت واد غير ذي زرع، أحجار مسنونة ونتوءات توخز الأقدام، توقفت وتريثت قليلا، سقطة واحدة تودي إلى التهلكة، كنت أقفز على الأحجار وأنط من صخرة إلى

أخرى مسرعا غير مُبطئ، وعلى غير ميعاد، سمعت جلبتهم ورائي، لم أكن أراهم، ولكن قعقعة سيوفهم ورماحهم وأصوات الحرب التي تصدر عنهم قريبة مني، كاد قلبي ينفلق ودمي يجف وقدماي تخويان، لكنني تشبثت بالأمل الموعود، فإذا هي الغادة الهيفاء الساحرة الغامضة تطل علي من أعلى الوادي وتمد لي يديها الطويلتين حتى خلتهما سلاليم نزلت إلي من السماء، جريت نحو قمة الوادي وتسلقت الصخور بيدي ورجلي وكل ما في بدني من قوة وجهد، وإذا بالسماء تظلم وتكفهر وتصفع جنبات الوادي بريح صرصر عاتية، أعقبها سيل عرم جارف لكل ما صادفه، مر تحت قدميّ فأسرعت نحو القمة وتشبثت بأعالي الجبل الآمنة، رأيتهم في قاع الوادي يغرقون ويضرب بعضهم بعضا، تشتت فلولهم وجرفت المياه خيولهم وعتادهم وكسرت الحجارة المحمولة بالطوفان كل ما جمعوه من عدة كانوا يريدون إرهابي بها. كنت منكمشا قابعا في مكمني، يفصل بيني وبينهم طوفان سيل العرم وما هدّ سد مأرب وما أغرق فرعون وجيشه وما حمل نوحا وسفينته بعد أن أغرق قومه، فذكرني بقول الشاعر[249]:

كأن السباعَ فيه غرقى عشيّة بأرجائه القصوى أنابيشُ عُنْصُلِ

لم يبق في الديار إلا النساء والشيوخ والعجزة والأطفال، وحدهم سيبدأون حياة جديدة بعيدا عن حكاية الخبيئة والكنوز والجن والطلاسم السحرية، ولكن هل حقا ستنتهي هذه الحكاية عند طوفان الوادي، أم أن أقواما آخرين سيأتون بعدهم ليستأنفوا البحث والتنقيب في الأرض عن كنوز الأجداد، وقد لا تكون هذه الكنوز بالضرورة ذهبا أو فضة، قد تكون شيئا آخر، فإلى متى نفتش عما تركه الأجداد أو أخفته الأرض في أعماقها؟ وإذا لم يوجد قط أو انتهى أو نفد؟! حيث يكون الكذب، ثمة توجد الحقيقة، سمعت صوتها يناديني، فأسرعت الخطى إلى أعلى الوادي ميمنا وجهتي نحو مشرق الشمس.

249- البيت لامرئ القيس من معلقته المشهورة. أنابيش. م أنبوشة: أصول النبات – العنصل: البصل البري (شبه السباع الغرقى بأصول النبات البري لأنها متلطخة بالطين والتراب).

كتاب الدين والسلطان

لا أعلم كم يوما أمضيت، وكم ميلا قطعت، وكم من البراري والفيافي عبرت، وماذا لقيت من إنس أو جن أو وحش، كأنني كنت العفريت المسجون الذي سكن قارورة ألقي بها في البحر الكبير حتى رست على ساحل آسفي والمريسة قرب سيدي أبو الذهب. أفقت من الصرعة والدوخة على رمال ساخنة حارة، كل شيء لا أتذكره، كله أو بعضه، إلا فترة خروجي من قبيلة المنقبين عن الخبيئة والكنوز فإنها عصيّة عن النسيان، حارقة خارقة للقلب والعقل والبدن حين تحضر في البال، ولا يفلح الساحر، هل كان من الضرورة أن أشرف على الموت أو أكاد، أن أمزق وأقطّع إربا إربا لأعرف بأن السحر وما جاوره من أمور الشعوذة والدجل لا تقود إلا إلى التهلكة، وأن انتظار ما تختزنه الأرض لتحقيق السعادة والرفاه ما هو إلا أضغاث أحلام وأساطير الأولين. أشرفت على قرية كبيرة من قرى بلاد السودان، وهي جميعا تتشابه مبانيها وخيامها وسحنات أهلها من الزنوج السود، أكاد أقول إنني في هذا المكان قريب من بلاد السودان والنوبة، فقد سلخت أميالا كثيرة، ولكنني لست متأكدا مما أعلم، ولا واثقا من شيء بعد أن ضاع الكثير من أوراقي التي رسمت عليها طريق سير القوافل التجارية أو تلك التي تقصد مكة والمدينة للحج والزيارة، فقدت خلال التنقلات واضطراب الحال منذ خروجي من تنبكتو العزيز الغالي من أغراضي وكراريسي، ولم يبق بحوزتي من الورق إلا ما خصصته لتدوين مشاهداتي وتقييد الأسماء والأماكن وتقويم الأوقات. منذ خروجي من قرية الحالمين بالكنوز ونجاتي من بطشهم وما سلطه الله عليهم من شديد العقاب ووخيم العذاب، لم أعد بقادر على التمييز حتى كدت أشك في عقلي ورُشدي، وقد أكرمت شمس الصحراء

بدني، فشوتني شيّا حتى يبس الجلد على العظم والتصق به، والأدهى من ذلك أنني لم أك واعيا، فكأنني سُلبت إرادة الحياة والإحساس بالجوع والعطش والحرارة، ولست أدري كيف كنت آكل وأشرب؟ وما الذي كنت أطعِم به نفسي؟ عندما استفقت من غيبتي ولا أعلم أكنت أسير أم كنت مغمى علي وسط الصحراء؟ أقول، عندما صحوت يوما وكانت الشمس في كبد السماء، وجدت نفسي على مشارف قرية كبيرة، أرض قاحلة ووجوه كالحة، مغبرة فاحمة، يخالط لونها لون الأديم، فلا تميز السحنة عن التراب، عندما دخلت قريتهم حييتهم فردوا بتحية الإسلام، عرفت فيما بعد، أن الفاتحين مروا من هنا، وأن الإسلام لم يترك أثرا، أو ترك شيئا ولكنه انمحى مع مرور الزمن وبُعد المسافة عن دار الإسلام، في مكان معزول عن الدنيا، لا يسافر أهله ولا يأتي إليهم أحد، فكان التراخي والتهاون ثم عدم الاهتمام، وبعد ذلك ترك الواجبات والفروض لما فيها من عبء وعنت وجهد، ولا تكليف عندهم، ولا من ينبههم، ولا وازر عليهم، ولا من مبشر ولا من نذير، وطال عليهم العهد وهم على ذلك السَنن، فنَسوا ونُسوا وأنساهم الله ما كانوا به يشعرون. دخلت القرية والليل من حولي يدثر الفضاء بجلبابه الأسود الداكن، كنت أبدو، وهذا ما شاهدته في عيونهم وتعابير وجوههم، كغريب متسول ألقت به الآفاق من بعيد، فقيرا ذا مسغبة، تصدقوا علي بطعام وشراب، تجولت قليلا باحثا عن مكان منزو يأويني حتى الصباح لأتدبر أمري أمقيما أم راحلا مسافرا؟ في طرف القرية وجدت مرادي، كنت أقول في نفسي، إن تأخرت في الاستيقاظ، فلن يزعجني أحد ولن أثير غضب أحد. نمت نوما عميقا طويلا، كانت الظهيرة قد أحرقت بشواظها الخلق والبهائم، فآوى كل إلى مأواه وحظيرته، والصهد يلفح وجهي حتى يكاد يسلخه، جَرّرت أشلائي نحو صخرة عظيمة بجانبها مجمع نخيل، احتميت به فوقاني من كل مكروه. بحثت عن الماء، فنعتوا لي بئرا عميقة، استسقيت منها ثم حملت دلوا معي إلى موضع مخيمي، قال لي شيخ كان يروي جماله: اقض حاجتك ثم أعد الدلو إلى مكانه، اغتسلت ونظفت جسمي، ثم استسقيت مرة أخرى ونظفت ثيابي، وهكذا قضيت اليوم. عند غروب الشمس كانت الثياب قد جفت وأصبحت نظيفة ناصعة، خرجت إلى القرية، أطعموني كالبارحة، ثم عدت إلى مكاني، توال الأمر على هذا النحو سبعة أيام، كنت بعدها قد استرجعت قواي،

وعادت الحياة إلى قريحتي، والنشاط إلى فطنتي ونباهتي، ونسيت المُرّ الذي مر بي في قرية الحالمين بالذهب. كانت واقعة الفج العميق وطوفان النجاة خير عبرة وأجل درس وأعظم عظة، إذ ألهمتني الابتعاد عن مخالطة الناس والانزواء عنهم وعن دنياهم، فلن أجني إلا المرارة والخسران، فقررت البحث عن مغارة أو كهف أو أي مكان أخلو فيه لنفسي حتى أتدبر أمر الرحيل إلى مكة والمدينة. خرجت عدة مرات إلى ضواحي القرية باحثا في الجبال والهضاب عن مكان يأويني، خابت مساعيّ ولم أفلح في العثور حتى عن وجار ضبع، في إحدى المرات اهتديت إلى مكان منزو يكاد يكون خفيا مخفيا بين الصخور. خمنت أن يكون بيتي ومقامي، وأن باستطاعتي أن أشيّد بناء يشبهني ولا يشبه مباني الناس. درست المكان جيدا وتحققت من مساحته وما يمكنني أن أبنيه فوقه، جمعت حوائجي ورحلت خارج القرية. كانت بيني وبينها ثلاثة أميال على الطريق المعهود، وميل واحد إذا سرت وراء الجبل والتففت حول دائرته لأدخل القرية من جهة الجنوب، وهو طريق وعر على غير العارفين بطرق الجبال ومسالكها. كانت مسألة الماء تؤرقني قبل أي أمر كنت أريد القيام به، لكن الصدفة كانت من حظي، فقد رأيت الطير يحوم فوق الجبل ثم يهبط في فج خفي بين الشقوق، وكذلك السحالي، تتبعت المسار فاهتديت إلى عين ماء جارية، لعلها هي التي تروي القرية وآبارها، وكانت مطمورة بالأحجار، لا تبين ولا تظهر، أزلت الحجارة ونظفت فوهتها وحوّطتها بسياج، حمدت الله الذي فجّر من الصخر ينابيع الماء. في الليل جاءتني الغادة الساحرة الغامضة، آوتني وأنامتني، في الصباح لم يكن لها أثر، لكن العمل كان في انتظاري، اشتغلت في تنقية المكان وإزالة الأحجار والأتربة والحشائش والأشواك، فظهرت البقعة أكثر رحابة واتساعا وأجمل منظرا، اشتغلت برفع جدران البيت الذي نويت بناءه، وقد كانت الحجارة متوفرة بكثرة، خلطت الرمل بالتراب والأحجار الجيرية وصببت عليها الماء حتى اختمرت، ثم أخذت في رص الأحجار وسد الفجوات وتمتين الجدران. استمر العمل قرابة الشهر أو يزيد، ولم أكن قانطا ولا ملولا، إذ كنت أبني البيت وأنام فيه أيضا، حتى استوت الجدران وظهر الباب الذي جعلته عاليا، لا يُصعد إليه إلا بسلم يرفع بعد الدخول ثم يغلق الباب، فلا يستطيع مخلوق أو حيوان اقتحام البيت دون أن أحس به، ولن يأخذني أحد على حين غرة. أما السقف فصنعته من

جذوع النخل وسعفه المتماسك والمشدود بحبال مما بقي معي من متاع الرحلة ثم ألقيت فوقه خلطة من الرمل والتراب والجير وجعلته مائلا عدة درجات حتى يكون قوي الارتكاز على صلابة صخور الجبل. من الداخل كان البيت فسيحا، فيه مكان للنوم، وآخر للعبادة والصلاة على شكل مغارة صغيرة تشبه محرابا، ومكان للطبخ، وفسحة للاستراحة تطل على براح الصحراء الممتد ناحية الغروب. كنت من هناك أرى آسفي وبحرها ومرساها وناسها وأتمنى لو أغمضت العين ثم فتحتها فوجدت نفسي بينهم، كانت عيناي تخترقان الصحاري والفيافي والبراري لتغوصا في أعماق البحر الكبير، ما أعظم الحلم وما أجمله عندما يجترح المعجزات ويتحدى الخوارق. مضت عليّ شهور قاربت الحول، اعتزلت خلالها القرية وأهلها، حتى جاءني عبد الصادق وهو الاسم الذي أسميته به ثم اختصرته في «الصادق»، وكذلك كان، وفيا مخلصا صديقا صادقا. حام أول يوم حول المكان ولم يقترب من خيمتي، كنت في الداخل أرقبه وأراقبه، وكذلك فعل خلال الأيام الستة المتوالية، تشجع بعدها وسألني طعاما، سمحت له بالدخول وفسحت له مكانا ثم قدمت له طعاما وشرابا. لم ينبس بكلمة طيلة الوقت الذي قضاه عندي، كان فقط يتمعن بعينيه الصغيرتين في المكان. تركته وانصرفت للوضوء، فقد حانت صلاة العصر. بعد أن عُدت وجدته واقفا أمام الباب، شكرني بانحناءة من رأسه وبوضع يديه على صدره ثم رحل. عاد بعد ثلاثة أيام، وقف بالباب، أذنت له بالدخول، قعد بنفس المكان الذي اقتعده من قبل، رحبت به وسألته عن أهله وعشيرته، كان يحكي بلغة تختلط فيها اللغة العربية بلغة أهل السودان وأفريقيا، لكنني تمكنت من فهم مراده ومقصده، فقد تعلمت لغتهم خلال تجوالي الطويل. حكى لي الكثير عن القرية وأهلها وتاريخها وكيف أسلم قومه وارتدوا. عندما سألته عن المصدر الذي أخذ عنه، قال لي إن قافلة من التجار ضلت الطريق إلى الحج، فمرت من هنا، وأن مرض شيخ القافلة ألزمها أن تمكث في القرية قرابة العام أو أكثر، وكان في القافلة رجل ورع تقي نقي من علماء المغرب، وذكر لي اسما نسيته، اعتنى بأطفال القرية - وكنت واحدا منهم - فعمل على تحفيظنا القرآن ورسم الخط، غير أن ذهابه أنسانا الكثير مما أخذناه عنه، ثم استظهر أمامي بعضا مما يحفظه من الذكر الحكيم، فعلمت أن من لقنه فقيه مغربي على طريقتنا في استهلال التعلم بالآيات القصار وتعليم

الخط المغربي واللوحة. قلت له مبتسما: سأعلمك ما فاتك من القرآن الكريم، فقال مسرعا: لي رفاق يُسعدهم أن يأخذوا عنك، قلت: لا بأس، ولكن ليس الآن، قال مبتهجا: كما تريد يا سيدي، قلت مصححا: الشيخ أحسن. عندما أقبل المساء وحان وقت صلاة المغرب، خلته سيعود إلى أهله، لكنه ظل قابعا بجوار العين، صاحبني في الوضوء، فلقنته إيّاه، ثم دخلنا الخيمة لنصلي جماعة. جلست لأقرأ الحزب كعادتي، فهذا تقليد لا أخلفه، وهو وسيلتي كي لا أنس حفظ القرآن ويضيع مني بسبب عدم الترديد والترتيل، وقد علّمني الترحال المتواصل دربة الحافظة على الاستيعاب والخزن والصون لكل ما مر بي من أحداث وأمور وما شاهدت من صور المخلوقات وما رأيته وخبرته عن النباتات والحشائش وسمعته من أصوات وأنغام. ظل يتابعني ويستمع لما أتلوه حتى ختمت بالدعاء فشاركني قراءة الفاتحة. دعوته لينام بالداخل، فأصر على النوم أمام الباب أو خلف الخيمة. اهتممت خلال الأيام والشهور المتتالية بالعبادة والصوم وتحفيظ القرآن ودرس الوعظ والإرشاد والحديث ونوازل الوقت وما يتهدد الإسلام والمسلمين من غزو ونهب وانحطاط، وأنهم إن لم يفيقوا ليستردوا ما ضاع منهم، ذهبت ريحهم وفشل أمرهم وقُضي عليهم إلى يوم الدين، وأنني خرجت من بلادي باحثا عن النبتة الأولى التي نمت منها أمة الإسلام وترعرعت حتى تفرقت في أقاصي الدنيا فملكت أرض فارس والروم وبلاد آسيا وأفريقيا وأقطار من البلاد الأروباوية، وأنني لو تمكنت من الحصول على هذه النبتة لقادر بحول الله وقوته أن أرد للإسلام والمسلمين ما ضاع منهم وأن ألقن الأعداء درسا لن ينسوه أبدا. فما خرجت من بلادي طالبا لمال أو جاه أو ذهب، وإنما طالب علم وعمل ودين وجهاد في سبيل الله وأمة الإسلام. كانوا يجلسون أمامي، عيونهم مترقبة، وأفواههم مزمومة وسحناتهم مشدودة مصلوبة، يُؤَمنون على كلامي برؤوسهم وبريق عيونهم الحاد كالسيوف المصقولة، أولئك هم رفاق الصادق الذين التحقوا به، وبوصولهم عزمت أن أسمي المكان «زاوية الرباط[250]» فسماها الصادق "زاوية الشيخ" وكأنه ينطق بلساني ويُحس بفؤادي، من هناك،

250- الرباط: ما رُبط به، والفؤاد والمواظبة على الأمر. واصطلاحا ملازمة ثغر العدو (الفيروزبادي: القاموس المحيط: ج 2/ ص374 ط2، 1952، مصر). والرباط عند الصوفية ملجأ الفقراء، وعسكريا المكان الذي تربط فيه الخيول استعدادا للحرب ومنه قوله تعالى «وصابروا ورابطوا..».

ومن أعلى قمة الجبل الذي احتضن الزاوية كنت أشرئب بنفسي لأعبر الصحراء في غمضة عين وأصل بين رباطي ورباط الشيخ بأسفي، رباط الولي الصالح صاحب الكرامات سيدي أبي محمد صالح. أصبحت الزاوية مقصدا ومحجا ومزارا لأهل القرية وزائريها، لكنني - وبحكم ما وقع لي بأرض المنقبين عن الخبيئة والكنوز- اعتزلت القرية وأناسها. وكان أن صادف ذلك العام هطول مطر غزير روى الأرض والزرع والنخيل، فخرجت من باطن الأرض - حسب رواية الصادق وأهل القرية - نباتات لم يروها منذ سنين خلت، وامتلأت الآبار حتى فاضت، وحفروا غيرها فوجدوا ماء زلالا، وتخلفت عن الأمطار الغزيرة المتلاحقة عدة مواسم بركة فسيحة تحت قدم الجبل، اتخذها أهل القرية مزارا للتبرك وطلب الغوث والنجدة، كما اتخذوها ملاذا وقبلة للنساء العاقرات اللواتي ينشدن الخلفة والولد، ومشفى للموسوسين والبكم والصم ولكل ذي عاهة أو عيب في الخِلقة، وكانوا يحكون - كما ينقل إلي الصادق - أن الكثيرين قد شفوا أو خف عنهم الضرر. ولم يزدني ذلك إلا اعتزالا وبُعدا، فأمعنت في العبادة والصلاة والاعتكاف والتهجد[251] حتى لم يعودوا يتذكرون الهيئة الأولى التي رأوني بها أول مرة وأنا أدخل قريتهم ذات يوم. كلما زدتَ بعدا زدتَ قربا ومهابة وهيبة، وأصبحت كالأشباح والأطياف، فيك شيء من القدسية والغرابة، وفيك شيء من الخوف والرعب، وفيهم فضول وطمع ليَروْك ويحبوك ويتعلقوا بك. كان الصادق يجيب كل سائل، إن الشيخ غائب عن الدنيا، في الملكوت الأعلى، فلا تشغلوه بأموركم وسفاسفكم، فلا وقت عنده لأمور الدنيا الفانية الزائلة، فقد نذر نفسه لأمور الآخرة وللسعادة الأبدية. كانت الهِبات والهدايا والأطعمة والأكسية تفد علينا من كل شخص قُضيت له حاجة أو أزيل عنه غم أو فرجت له كربة، سواء كان ذلك بعلمنا أم لم يكن، فإنه ينسبها إلى بركات الشيخ ودعواته والاحتماء بجواره وزاويته. عندما زارتني معذبتي منذ خروجي من أسفي، الغادة الفاتنة الساحرة الغامضة، قلت هذا هو الطريق الذي علي سلوكه، طريق الصلاح والصلحاء، صلاح الخلق ودرء المفاسد، فأكثرت من قراءة "دلائل الخيرات" للشيخ الجزولي وأدعيته في تكريم نبينا محمد عليه الصلاة

251- التهجد: صلاة الليل.

والسلام، وأوعزت إلى مُريدي السبعة بأن النبي زارني في المنام عدة مرات وخضّني كل مرة عدة خضّات حتى خرج البخار من رأسي واخترق شعاع أبيض كالصباح جبهتي وهاج بدني فخرج منه ماء أسود فاحم، عندما سمعت هاتفا يناديني، قم أيها العابد الصالح مبشرا ومنذرا قومك، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، أنت سليل الأشراف العليّين، فاصدع بما تؤمر ولا تكن من الناكرين، أيها العبدي اختارتك السماء للأمر الجلل، قم وشمر عن ساعد العمل. بُهتت عندما وجدتهم لي يسجدون، قلت: حاشا لله، لا يكون السجود إلا للعلي القدير، مالك السموات والأرض، ملك يوم الدين، إياه نعبد ونستعين، وما أنا إلا عبد مأمور، فمن عرفني، فقد أحبني، ومن أحبني، اتبع سيرتي وسنتي ودعوتي، ومن اتبعني فقد دخل الجنة، أنتم عُصبتي وبطانتي، فتولوا هذا الأمر معي يكن لكم شأن عظيم ومقام رفيع في الدنيا والآخرة، بايعوني على التو وهم يهتفون: «الله وليّنا والعبدي إمامنا»، ثم أقسموا بالأيمان المغلّظة على المصحف.

تذكير..

على ذكر المصحف الكريم، أنسانيه الشيطان لعنه الله أن أذكره، وهو من الأمور الهامة في إرساء قواعد الرباط وإعلاء صرحه، أنني حين كنت أدرس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وخطب الوعظ والإرشاد لمريدي الزاوية وطلبتها، كنت أيضا أملي عليهم سور القرآن، خوفا عليها من الضياع وحفظا لها وصونا، حتى لا يتكرر ما وقع بعد خروج الفاتحين المسلمين. وهكذا تعلم «الصادق» على يدي صنع الأقلام من القصب أو ريش الطيور كالحمام والصقور. وكانت كمية من اللك والصمغ بحوزتي مما نجا من الضياع . كنت أملي أماليّ طويلة كل يوم حتى اجتمع لنا مصحف كامل من سور القرآن[252] كما هو معمول به في بلاد المغرب، غير أن ما ينقصه هو علامات الوقف والوصل وأرقام الآيات، فلم أر ضرورة لذلك في هذا الوقت وهذا المكان، كان هذا

252- في حوزة المحقق نسخة من المصحف تنطبق عليها الأوصاف الواردة في كلام العبدي، وقد كانت هدية من صديق فرنسي (Bosco Bouyer) عمل ضمن البعثة التقنية للتعاون الفرنسي مع بلدان جنوب الصحراء الإفريقية (توجد صورة للمصحف في آخر الرواية).

المصحف كافيا وشافيا في هذه الصحراء، وقد صنع له أحد مريدي الزاوية، وكان حرفيا بارعا في صناعة الجلود، حافظة[253] جلدية أنيقة في شكلها وزخرفتها.

رجع إلى ما كنا فيه..

كان يوم السعد أو قل سعد سعودي، حين جاءت قوافل ووفود من جهات مختلفة وبلدان نائية فرأوا ما أصبحت عليه القرية من عز وعمارة وخصب وأغراس وغلل من كل صنف ونوع، وماء سلسبيل سبحان من أخرجه من الصخر. وعندما علم الغرباء والضيوف بأمر الزاوية وما يحكى عنها من أقاصيص وروايات هبّوا فرادى وجماعات للتقرب والتبرك والانتساب والتضرع للزاوية. في ذلك اليوم البعيد خرجت إلى الناس كما يخرج تجار[254] فاس ببرانيسهم وجلابيبهم الناصعة البياض، وفي يدي منساتي كعصا الحكيم السحرية، وحول عنقي يتدلى عقد اللوبان، وعلى رأسي عصابة بيضاء يتدلى منها ذيل خلف ظهري، متمنطقا خنجرا من الفضة أهداه إليّ صائغ من نواحي سوس كان من أصحابي بجامع القرويين، هللوا وزغردت نساؤهم وتصايح أطفالهم، بإشارة لطيفة أسكتهم "الصادق" كأننا - أنا هو - نتوارد الخاطرات، إذ كان مرادي أن أخطب فيهم، وكذلك فعلت: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والحمد لله رب العالمين، أيها الناس اسمعوا وعُوا، وإذا وعيتم فافعلوا ما أمركم به الله و رسوله الأمين سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وشفيع الأمة، يوم لا يكون شفيع غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، لقد جاءكم من قبل مبشرون ومنذرون، فآمنتم بما أنزل الله على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي ترك أمرين، إن تمسكنا بهما فلن نضل أبدا، كتاب الله وسنة رسوله، لكنكم ارتدتم على أعقابكم خاسئين، فحلت بكم الصاخة[255] وغار الماء وجف الضرع ونفقت البهيمة، فاعلموا أي منقلب تنقلبون، وها أنتم اليوم في رغد من العيش، فاكهة وتمور مما تشتهون، وأكواب ونمارق وأنعام مما تحبون، أفلا تؤمنون؟! أفلا تحمدون

253-يعني محفظة.

254- التجار: تعني في القرن التاسع عشر، التجار عامة والأغنياء خاصة.

255- الصاخة: المصيبة، الداهية.

وتسبحون لربكم العلي الكريم؟ منذ أن رفع الله أسس الزاوية واعتكف بها عُباد نساك زهاد، والله يكرمكم ويغدق عليكم من النعم والخيرات ما لم تكونوا تحسبون، ولكنكم لا تشعرون ولا تخافون عواقب الأمور، الخوف يعلمكم الهروب مما تخافون، ولكن الخوف من الله - إن علمتم - يدفعكم إلى اللجوء إليه بالصلاة والصيام والصدقة والدعاء والعبادة، خافوا الله وعقابه، واعبدوه حبا وخوفا وخشية، تغنموا في الدنيا والآخرة، عودوا إلى دينكم القيّم، فمن جاء يوم القيامة بدين غير دين الإسلام، فلن يقبل منه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولكافة المؤمنين".

عندما ختمت الخطبة شعرت أنني حقا ولي الله في هذه الأرض المباركة، لا سليل أشراف أو أسر تتدعى حقا أو باطلا البركة والصلاح، وإنما ولي صالح شريف، أنتمي إلى أسرة الصالحين أولياء الله الذين سكنوا آسفي وانتشروا على ساحلها، يحاربون البرتكَيز ويحمون الثغور، أنا مريد الشيخ أبي محمد صالح ولي الحجاج إلى بيت الله، هذا هو الشرف، شرف الجهاد والقتال في سبيل الله ورد الغاصب والظالم عن دار الإسلام. دخلت خيمتي فبدأت الوفود تستأذن للدخول في الإسلام على يدي، وأغلبهم كان يقدم هدية أو هبة للزاوية حتى امتلأ المكان علينا. لم أكن أترقب أن الأمر سيكون عظيما على هذا النحو، وأن الوادي الجاف سيفيض بهذا الملأ من الخلق، والحق أننا بوغِتْنا - أنا وجماعة المريدين - فلم نكن نحسب لهذا حسابا ولا ظنا. ووقعت علىَ رؤوسنا مسألة الآن والمآل، حالتنا الآن وما أصبحنا عليه من قوة ونفوذ وعزة ومهابة ونفوذ صيت وما علّقه الناس علينا من آمال، ومآل ما نحن فيه، كيف سنصير بعد شهر أو ستة شهور أو سنة أو عدة أعوام. فلن يكون ما نقوم به لهوا ولعبا، ولن يُقبل منا ذلك إن تراجعنا وتقاعسنا، وكما يقال في المغرب "ادْخول الحمام ما شي ابْحال اخْرُوجُ". بعد يومين من الاعتكاف والصلاة، جمعت المريدين بعد صلاة العشاء، وسهرنا حتى أدينا صلاة الصبح، بعد أن كنا قد أجمعنا على كتاب تعاهدنا فيه على بناء الزاوية لتكون ملاذا ومدرسة وجامعا لنشر الإسلام والتوعية الدينية وإقامة العدل وحسن المعاملات وفقا للسياسة الشرعية التي كان عليها السلف الصالح.

كان علينا واجبا أن يجمع الجبل بين الزاوية والرباط، أي الجمع بين الدرس والعلم من جهة وبين الجهاد ونشر الدعوة ومحاربة البدع والضلالات والتصدي لما يحاك لأمة الإسلام من عدوان مُبيّت واحتلال وشيك على غرار ما وقع بالجزائر والقيروان وإسلِي وتطاون، فدار الكفر قد أظهرت ناب الغدر منذ احتلال سبتة ودخول البرتكيز واستعمارهم مدن السواحل، وقد أجمعنا على عهد وثيق لا انفصام لعُروته، فالسنة تجمعنا والبدعة تفرّقنا. ومن حسن الطالع والبشرى الميمونة أن الغادة الفاتنة الساحرة المجهولة كانت تزورني كل ليلة، لكنها لا تدخل فراشي ولا تقربني، وإنما تبيت فوق رأسي ترقبني، وإن هممت بالاستيقاظ، أراها تضيع مني وتختفي، وكأنها لا تعلم أنني أقوم بكل ذلك من أجلها ومن أجل سواد عينيها، وأنني أسعى وراءها، وأن بُغيتي ومسعاي ومُنى نفسي وقلبي أن ترضى عني فتقودني في هذه المجاهل المُهلكة، وأن تسير خطواتي على دربها، وأن نقترنا بقران لا فراق بعده.

وكأن النار شبّت في الهشيم أو أن برّاحا خرج ليُعلن في الناس بنبأ إنشاء الرباط، أقبلت علينا وفود من الشبان والفتيان طالبين العلم والتفقه في الدين والشرع وخدمة الزاوية. ناديت جماعتي المقرّبة فأطلعتهم على ما ألهمني به الله سبحانه وتعالى، وافقوني عليه، فبدأ العمل به من صباح اليوم التالي. خصصنا الوقت الأول من طلوع الفجر إلى الظهر للقراءة والكتابة، حيث عمل أفراد الجماعة على تلقينهم رسم الحروف ونسخ الآيات على الألواح وتحفيظها وحفظها والتدرب على القراءة والتلاوة، سرنا على هذا المنوال وطورناه إلى الأحسن كلما ألهمنا الله بفكر جديد. أما الوقت الثاني أي ما بعد الزوال إلى غروب الشمس، فخصصناه لأعمال البناء والتشييد والتحطيب وأعمال الغرس والزراعة. بعد عام كامل كان فوجنا الأول قد أظهر من النباهة والنجابة وحب العمل ما أبهر به العقول وأثلج الصدور، فأسميناه تيمنا وبركة "فوج النور". بعد الانتهاء من أشغال البناء الخاصة بمأوى الطلبة والجامع، أشرت على الجماعة بتفريع الوقت الثاني إلى حصتين، الأولى للبناء والتشييد، والثانية للتدريب على فنون القتال والحرب وركوب الخيل وصنع السلاح، وعلى السنة المعهودة، خصصنا ما بعد زوال يوم الخميس ويوم الجمعة للراحة وزيارة الأهل والصلاة.

مقال فيما لم أذكره من الأمور..

أولها التقويم السنوي وضبط تواريخ الأيام والشهور والسنين وفق العام الهجري، وقد مكنني الله من ذلك بعد مراجعتي أوراقي ومساءلتي الوافدين علينا، حتى تمكنت من ضبط التواريخ، فعلمت أنني دخلت هذه القرية عام سبعة وثمانين ومائتين وألف[256]، في الخامس من شوال، وأن اليوم الذي أعلنا فيه إنشاء الزاوية ورباط الشيخ كان في العاشر من شهر رجب لسنة تسعين ومائتين وألف[257]. كم أخذ الزمان من عمري منذ خروجي من فاس، أربعة عشر عاما بالتمام والكمال وأنا أجري وراء الغادة الفاتنة الساحرة الهاربة مني ومن شباكي ونِبالي ورماحي وحبي وهوسي وجنوني، ناهيك عن السنوات الفائتات منذ مغادرتي مدينتي أسفي وراء هذه الحبيبة اللعوب، فكلما لحقت فرت، وكلما قلت حَنَّت وأحبت، ازدادت عزوفا وصدودا، ولا أعرف كيف أرضيها وأراضيها، هذه النافرة المتعالية العفيفة، الأنوف، الشامخة بدون غرور، المتواضعة بدون ضعف.

بعد مرور عام على ولادة الزاوية، عزمت جماعتنا على إقامة حفل كبير لهذا الحدث الجلل ليصبح سنة متبعة للتخليد والتذكير وحفظ آثار الأولين. أعلنا النفير وأرسلنا البرّاحين إلى القرى المجاورة، فجاء يوم الحفل خلق كثير. ذبحت في ذلك اليوم ذبائح عظيمة ووزعت الهبات والعطايا والأطعمة وأقيمت الصلوات وتليت الأوراد والأذكار وأقيمت صلاة الليل إلى الفجر كما تقام صلاة التراويح عندنا في رمضان، ورفعت أعلام فوق الزاوية فأصبح الحدث علامة وأثرا بين ما مضى وما أصبح وسيبقى ولله الملك والدوام.

وثالث الأمور التي لم أذكرها ـ عطفا على حفل الزاوية باعتباره أمرا ثانيا ـ ولم آت عليه، نسائي أو زوجاتي، فقد كان من عادة هؤلاء القوم في هذا الصقع النائي من بلاد السودان أن تقدم البنات الكواعب كهبات أو عروض للزواج من كبير يُخاف بأسه وبطشه أو علمه وسحره، سواء كان ملكا أو عالما أو ساحرا.

256- الموافق لسنة 1871م.

257- الموافق لسنة 1873 بداية حكم السلطان الحسن الأول بالمغرب.

فعندما شاع أمري وحلّت بركتي عليهم بالخير واليُمن والرخاء، تسابقت البيوتات على طلب يدي للزواج من بناتهم، وكانت عادتهم هنا أن تَخطب المرأة الرجل لا أن يخطب الرجل زوجته كما هو الحال عندنا، ولم أعلم في ما بعد أن أغيِّر هذه العادة، فقد تربوا عليها، ومن الصعب إكراههم على الإقلاع عنها. ولكي أرضي خواطرهم وأوطد مكانتي عندهم وأن أبيّن لهم أنني مقيم غير مغادر، ومُشتر لا بائع، اخترت أربع عائلات للمصاهرة والنسب تبعا للشرع والسنة.

رجع إلى ما كنا فيه من شؤون الزاوية..

يطول الحديث في شؤون الزاوية، وهي وحدها تستحق منا كتابا خاصا، وربما أكثر من كتاب، فقد أصبحت منارة السودان في نشر العلم والدين والصلاح في هذه البراري الموحشة والصحاري المُقفرة، إذ ساد الرخاء والسلام وتآخى الناس على المحجة البيضاء والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واتبعوا - مؤمنين - ما أنزل الله على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وما سنّه خاتم الأنبياء لهذه الأمة، حتى ظننت يوما أن هذا المكان هو البلاد التي خلقت لها وخُلقت لي، وأنني ما وُلدت أصلا إلا لأكون الشيخ الصالح الذي سيبعث لهذه البلاد ليُحييها ويدخلها حظيرة الإسلام. ولكن أيام الهناء لا تدوم، والفلك دوار، والإنسان بالطبع يغلب عليه الغرور والطمع وتسيطر عليه النوازع والطبائع والعصبيات. فما أن استوت الأمور واتزنت، وعم العدل والحكم بالقسطاس والميزان، حتى تململ البعض، واشتكى آخرون، وتهامس غيرهم فيما بينهم، وكثر القِيل والقال، وخرج من السر إلى العلن، وتكونت جماعات، وعُقدت ندوات، وألفت أحزاب وشيع وقبائل، ودخل الشيطان في التفاصيل وحبك الشباك والأحابيل، وزرع المكائد وإيقاد الفتنة والدسائس وترهيب القلوب الضعيفة بالمخاوف والدسائس. وانبرى من بينهم من ينذر بالخروج عن الجماعة وإثارة الفتنة وطرد الغرباء من البلدة والذين تُنسب إليهم كل خصلة سيئة وما يحيكونه للظفر بالحكم والسلطان والتحكم في رقاب الناس. فلما علمت علم اليقين، ما يناورون ويحيكون، وتأكدت من مقصدهم الخبيث، عزمت أول الأمر على عدم المبيت بالبلدة ولو ليلة واحدة، لكن جماعتي، وخاصة الصادق، نصحوني

بالتريث وعدم التسرع والعجلة حتى ينجلي أمرهم وينكشف خبرهم. بعد ثلاثة أيام من الترقب، دعوت الجماعة وأطلعتهم على نيتي وكشفت لهم خطتي. في اليوم التالي، اجتمعت بكبار أهل البلدة ووجهائها وأشياخ القوم فيها، وأعددت لهم وليمة كبيرة في سرادق بسفح الجبل الذي حوّله المريدون والطلبة إلى بقعة خضراء زاهية بنخيلها وأشجارها المثمرة وأعشابها الدائمة الخضرة ومياهها الجارية. دهش الكثيرون مما رأوه، وهم الذين لم يزوروا الزاوية بعد إصلاحها وتجديد بنائها، الآخرون منهم أعجبوا بالخضرة والتحسينات البديعة والمنشآت العجيبة. خاطبتهم أول الأمر - بعد العياذ بالله وحمده وقراءة الفاتحة - عن البلدة وما مرت به من أهوال ومصاعب وهي تتحول من قرية صغيرة مجهولة إلى بلدة عامرة مشهورة، علا سهمها، وسطع في سماء الدنيا نجمها، وعظم شأنها واستقام أمرها، بما حفظها الله به من عناية ربانية حتى تحققت فيها الخوارق والعجائب، فكثر حُسادها والمتآمرون عليها وعلى أهلها، وتكالب عليها الشامتون والمكذبون والمتربصون لكل سقطة أو عثرة أو هفوة ليقولوا للجميع: ألم نقل لكم من قبل؟! لن يفلح أمركم، وهذه عاقبتكم؟! كلا ثم كلا، لن يضيع أجر من أحسن عملا، والله إن أمر هذه البلدة، لم ينصلح ولم ينجح لها مسعى إلا بعد أن تبركت بإقامة الزاوية، وأصبح فيها أناس يعبدون الله صباح مساء، وله قانتون قائمون، بوركت أيتها البلدة الطيبة، يا أم المدائن المباركة، بدعوات العُبّاد الصالحين ونُسكهم وصيامهم وجهدهم وجهادهم رفعت البلدة شأنها بين القرى والمداشر والبلدان، وكانت مغلوبة فأصبحت غالبة، وفقيرة فأضحت غنيّة، ومنسيّة فغدت معروفة، أفبعد هذا تكذّبون وتأفكون وتتقوّلون؟! تبا لكم ثم تبا، تبت أيديكم يا أتباع الشيطان ومفرّقي الجماعات وناشري الفتنة وموقديها ومثيري البغضاء والمكيدة والفُرقة بين الناس، والله، ثم والله لن ندع كافرا أو مُشركا أو مُرتدا أو فاتنا يندس بيننا ويهدم ما بنيناه في صمت وصبر وجهاد.

ما دريت بنفسي ولا علمت بها إلا وأنا أرى جماعتي ومريدي الزاوية وطلبتها ملوحين بالخناجر، هاتفين بالحناجر، مكبّرين مهللين، اهتزت عواطف الجمهور، والبعض أصابه الهلع من صيحات التكبير وكأننا ذاهبون إلى معركة من معارك الإسلام المجيدة. انتهزت هذه اللحظة لأرتّب أمري وأهيئ كلامي، فقلت مخاطبا القوم مرة ثانية «وجمع الأحزاب كلها، وشاوَرهم في الأمر، هكذا

أوصانا الله سبحانه تعالى في كتابه العزيز، لقد جمعتكم اليوم لأعرض عليكم أمركم وأمر أطفالكم ونسائكم وأنعامكم وأموالكم، اليوم اكتمل ما عاهدت الله عليه وما وعدتكم به، إن لم أقل لكم جهارا، وما صادقت عليه أصحابي، فإن كنت أصبت فأجري على الله أولا وأخيرا، وإن كنت أخطأت، فالله غفور رحيم، ومن الآن أسلّمكم أمر الزاوية وأغادر كما جئتكم أول مرة». تعالت صيحات الرفض والإنكار وارتفعت نداءات مطالبة بالبقاء والاستمرار، ولم أر أحدا قاعدا، الكل وقف رافعا عقيرته بالصياح، أما طلبة الزاوية ورجالاتها فقد اصطفوا على شكل كتيبة تستعد لدخول معركة لا خيار فيها بين الموت والحياة أو النصر والهزيمة، تسلحت بكل ذلك وأتممت كلمتي «ما ذكرت الذي ذكرت لأمدح نفسي وأصحابي، ولا لأفاخر بما قدمت للبلدة، وأنتم تعلمون أن خيركم كان يمكن أن يذهب لغيركم، ولكن الله أراده لكم، فلا تجحدوا نعمه وآلاءه عليكم، احمدوه حمدا كثيرا، وسبّحوه بُكرة وأصيلا، واشكروه شكرا جزيلا، أما أنا فقد أكملت عملي وأتممت ما يخصني بشأنكم، فاجمعوا أمركم، وتشاوروا فيما بينكم، واختاروا من بينكم أو اختاروا من خاصتكم ، رجلا تقيا ورعا عاقلا، يخاف الله في السر والعلن، ولا يخاف في قول الحق والصدع به لومة لائم، يؤثر غيره على نفسه، رجلا قادرا على أن يحمي حدود الله ويرفع شأنكم ويصد الأعداء عنكم وينشر بينكم الرحمة والرأفة، ويتبعِ تعاليم الكتاب والسنة ويحفظ لكم الكرامة والشرف. هذا عهد ما بيني وبينكم، فإن تماديتم في العقوق والخوض في الشناعات، وأصررتم على نقض الميثاق، فإن الله شديد العقاب، ويا ويلكم من غضب الله، وإن كنتم ممن يتبعون القول فيحسنون استماعه والعمل به، فإنني أشير عليكم بأربعة بيوت كبيرة من بيوتاتكم، تختارون من بينها بيتا، تجعلون رئيسه سلطانا عليكم» وذكرت أربع فخذات[258]، ثم ختمت بدعاء طويل، لم أنس أن أذكر فيه استعطاف الله عز وجل أن يُلهمني ما فيه خير هذه العباد والبلاد وأن يُريني[259] الحق[260]، ويُذهب عنا الباطل، إن الباطل كان

258- مفرد فخذة: مجموعة أسرية تنتمي لقبيلة كبيرة.

259- من الرؤيا، وهي التي خص بها الله أنبياءه، ثم أصبحت من علامات المتصوفين والأولياء والصالحين.

260- يقصد بالحق - في هذا السياق - الاختيار الصائب، وهو ما سيتضح فيما بعد.

زهوقا. طالت أيام الجدال والمشاورات بين البيوتات وشيوخها، وتضاربت الآراء بين القبول والرفض، والتسوية والمُعاندة، حتى كادت أن تخرج عن المُراد، لما وقع من تغليط وتخليط وتلبيس وتخريف وتضليل وتشنيع، فاختلفوا في أمرهم أشد اختلاف، وكادت الحرب أن تقوم بينهم، إذ نبشوا في تاريخهم القديم، فأخرجوا المخازي والعورات والنقائص، وتبادلوا الشتائم والتهم، ورموا بعضهم البعض بما لا يجوز ذكره في هذا المقام من الفضائح والموبقات، وأظهروا أن ائتلافهم كان نفاقا وخوفا ومداهنة ومصلحة وقتية، وأن كل واحد يخفي تحت لباسه سكينا أو مُدية أو سيفا لجز رقاب الناس ولو كانوا من شيعته. وكلما انتشرت نارهم، أحرقت أرضا جديدة، حتى لم يبق أحد منهم بدون تسفيه أو تجريم أو إدانة. وأضحت ذنوبهم أكبر وأضخم من أن يقيسها ميزان، فخفت موازينهم من الحسنات والأعمال الصالحات، فحُقّت عليهم الهاوية وما أدراك ما هيه، نار حامية. ولم يعد منهم أحد يصلح لتوليته شؤونهم وتدبير أمورهم ورعاية مصالحهم، فكلهم مذنبون سيؤون. وهنا وقف حمار الشيخ في العقبة، وما أدراك ما العقبة، اشرأبت الأعناق إلى الزاوية، وتعلقت الأفئدة والعقول بالشيخ الصالح وبركاته، وكنت أرقب عن كثب - والصادق الأمين يأتيني كل ساعة بأخبارهم - وبما جد وحدث، وما وصل وانفصل من عُراهم.
صلينا ذات يوم الفجر، وكان ذلك يوم العاشر من جمادى الثانية لسنة خمس وتسعين ومائتين وألف[261]، وقرأنا الحزب وبعض الأذكار، أخبرت جماعتي من الأصحاب والمريدين والطلبة برؤياي التي حصلت لي ثلاثة أيام متتاليات والكون نور، رأيت فيما يرى النائم أن الرسول (ص) كان جالسا يحدث في أصحابه، فدخل عليه حبشي أسود من دون أن يلقي سلاما ولا تحية حتى وصل إلى مجلس رسول الله، فسلم وقبّل كتفه الطاهرة، ثم خرج مسرعا دون أن يلتفت وراءه، والرسول يدعو له بالتوفيق والفِلاح. أتعرفون من كان الرجل كما أرانيّه الله في الرؤيا المباركة؟ إبراهيما سيكَالا، هتفوا جميعا: نِعم الرجل، صحت الرؤيا وصدقت وحقّ علينا الإتباع. انتشر النبأ في الناس كالَنار في الهشيم وقت الظهيرة في يوم قائظ حار، احترقت حشائش الأقاويل والتخرصات في أتون النار

261- الموافق لعام 1878 الميلادي (سنة الوباء بالمغرب) الناصري / م س، ص 164/165.

الخارجة من الزاوية، وأشاع المريدون أن الشيخ سيتقبل رضا وموافقة الأكابر بعد صلاة الجمعة. أخذنا ميثاقهم وبيعتهم وكتبناه على ورق حُفظ بالزاوية. انطلقت الأفراح والمسرات، والتأم شمل الفرق المتناحرة، وذاب الخوارج في سلك الراضين.

بعد أسبوع من اختيار إبراهيما سيكَالا زعيما للبلدة، جاءني رسول من قبله يطلب مقابلتي، فأشرت عليه في الرد أن يستدعي أكابر ومشايخ العشائر والبيوتات الكبيرة. عندما دخلت عليهم وقد اكتمل حضورهم، وقفوا لملاقاتي إجلالا واحتراما، ثم تقدم الزعيم الجديد فقبّل كتفي، مسحت على رأسه ودعوت له بالنجاح والتوفيق، ثم جلست مكاني وجلس هو عن يميني، وعن يساري قعد الصادق وبين يديه أوراق وأمامه دواة وأقلام. قلت مفتتحا ندوة العشائر: «اليوم اكتمل أمركم وحلّت عليكم النعمة والسعادة والرضا باتباع سنة الأولين من السلف الصالح أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم. وقد آن أوانكم وجاءت دولتكم، فعدوا لعدوكم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به أعداء الدين وأهل الكفر والشرك وإخوان الشياطين المارقين ومن حاذ عن الصراط المستقيم، وعليكم من الحين أن ترتبوا أموركم وتجهزوا أنفسكم، وأن تضعوا لكل شأن نظاما وترتيبا، وأن لا تدعوا للشيطان بابا مفتوحا ليدخل منه ناشرا بينكم الفُرقة والشنآن، وما خاب من اعتصم بحبل الله والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، إنني أعلنها من هذا المكان المبارك، زاوية العبابدة ورباط الشيخ صيحة حرب وجهاد من أجل نصرة الدين وإقامة دولة الإسلام، وأعلن إبراهيما سيكَالا سلطانا». تعالت الصيحات والهتافات بالتكبير والدعوة إلى الجهاد والصلاة على النبي. انتظرت حتى ساد السكون من جديد، ثم تابعت القول: «لا تَهِنوا ولا تجبنوا فتذهب ريحكم وتضيع هيبتكم فيتجرأ عليكم الأرذلون والفُساقَ وعبدة النار والأوثان والأشجار وأكلة البشر. لقد حرركم الإسلام من ربقة العبودية وأعتقكم من أرسان الأسياد، فهل تحنون إليها أم تتشوقون إلى المجد وتتطلعون إلى الخلود لتكونوا من الأمم التي كرّمها الله وأعزّها وأعلى شأنها بين العالمين. أمامكم سنة واحدة لتعدوا جيشكم وتدبروا دولتكم، وكل أصحابي تحت إمرة سلطانكم، وقد علّمتهم وخبرتهم فوجدتهم أصلح الناس وأقواهم وأنفعهم لكم

ولدولتكم، فعلى بركة الله مُرساها ومجراها، اللهم أحيِنا مسلمين وأمتنا مؤمنين، تائبين طائعين قانتين لله رب العالمين، يا أرحم الراحمين، يا رب العالَمين».

فصل في مراعاة الضرورات..

كم كان بودي لو نقلت إلى هؤلاء القوم ما كان يروج ببلاد المغرب من جدال وسجال ومناظرات وأحكام وإفتاء حول ما ينبغي علينا نقله واستجلابه من الأمم الأورباوية وعلى وجه التخصيص ما نسميه في المغرب ب "حرب النظامِ" الذي انشغل به الفقهاء وعلماء القرويين وأعيان الوقت والباشادورات المُسفَّرة إلى أوربا، ناهيك عن رجال المخزن وحاشية السلطان، وما يتبعِ هذا الأمر من حديث عن المخترعات الوقتية وأنواع السلاح كالكور والكُرناد والبمب والطبجية، ولكن حالة الفقر والجهل والبداوة الغالبة على أهل هذا الصقع لا تسمح لمثل هذه الأفكار أن تتعيّن وتتحقق ما دام المعاش والموطن لا يسعفان ولا يسايران جنوح الأفكار وجموحها، وما عساني فاعل وأنا طائر مكسور الجناح، فكيف يمكنه التحليق في السموات العلى، هذه البلاد تُحيل النسر الباشق إلى مجرد بطة تدب على الأرض، سايرهم وسايسهم حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

أصبح للزاوية اسم تعرف به "زاوية العبابدة[262]»، ولا أعلم كيف حصل مني هذا، إذ وجدت نفسي ناطقا به دون إخطار سابق، فعبّر عن المكنون وطابق بين اللفظ والمعنى.

رجع إلى ما كنا فيه..

أضحى "الصادق" أشبه ما يكون بالصدر الأعظم في المغرب، لكن "إبراهيما" لم يتحول إلى سلطان، فقد كان يلزمنا عمل كثير لنغيّر الطبائع الفطرية ونحل محلها تقاليد السلطنة والحكم أو حتى الإمارة، كانت العصبية بيت القصيد فيما أنشده، سرعان ما شبت وعلا أوارها وقرعت طبولها واتسعت

262- لا تخفى على القارئ الفطن الإحالة على قبيلة عبدة التي ينحدر منها صاحب النص.

أطماعها وزال عنها الخوف وأصبح المُحال أمامها ممكنا. تجندت حول إبراهيما كل الفخذات والأسر والعشائر التي تولى أمر إعدادها وتدريبها مريدو الزاوية وجماعتها، وكان "الصادق" يبذل جهدا نادرا، كما أظهر موهبة عسكرية ودهاء ثاقبا في تسييس الأتباع قل نظيره في هذه الأصقاع النائية، حتى أنني ندمت على اختيار إبراهيما، فالصادق أولى منه بذلك، ولكنني انتبهت أن لا عشيرة تحميه ولا عصبية تعضده، فلن يسنده أحد من الأكابر. كنت أعلم كل كبيرة وصغيرة، فالصادق هو القابض على كل المفاتيح، وإبراهيما لايزال يتعلم حروف الهجاء الأولى في فنون السياسة الشرعية وتدبير الجيوش والمعارك. مضى العام وجاء يوم الحساب، كانت الغلّة وفيرة، فقد أصبح تحت إمرتنا جيش قوي منظم وأسلحة كثيرة تفوق حاجة الجنود من رماح ونبال وسيوف ودروع وخود ومقاليع ومجانيق يدوية ومشاعل ليلية وعربات للجر ومتاريس ثابتة ومتحركة وخيول مطهمة وفيل مدرّبة. سُيّجت البلدة بأسيجة من الخشاب المسننة والحواجز الشوكية، وزُرعت في أماكن خاصة ومحددة أبراج للمراقبة في أعالي الأشجار وقمم الكثبان حتى أصبح من المحال دخول البلدة على أي كان دون لأن تلحظه العيون ويراقبه البصاصون ولو مسخ هيئته على صورة طائر في السماء أو نملة تدب على الأرض. أشرت عليهم براية السلطنة، فلا جيش بدون بيرق، وكانت قطعة من ثوب أخضر كتب عليها "الصادق" جملة التكبير "الله أكبر"، وقد خصصنا للتوعية والإرشاد دروسا بين صلاتي المغرب والعشاء، حضرت بعضها، وترأست البعض الآخر، فألقيت دروسا في باب الجهاد والدعوة النبوية وغزوات الرسول ومعارك المسلمين الأولين ضد الكفار والفتوحات الإسلامية في بلاد فارس والشام ومصر والعراق وإفريقيا وبلاد المغرب والأندلس فردوسنا المفقود بسبب الإهمال والزيغ عن قيم الإسلام وثوابته. ما العمل الآن وقد أصبح عندنا جيش وقوة وسلطان؟ سؤال كبير سقط على رؤوسنا بعد أن أنهينا عمل كل شيء، جمعتهم وخطبت فيهم: "لقد غدوتم امة محاربة، فعليكم نصرة الدين وإعلاء شأن المسلمين ورد كيد المعتدين الكفرة المجرمين، الجنة للشهداء المؤمنين، والخزي والعار للظالمين والكافرين. من اليوم، كونوا على أهبة الاستعداد، وتهيؤوا لسماع النفير، فأيام النصر قادمة إن شاء الله، "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون" صدق لله العظيم".

بعد أن خرج القوم من الزاوية، زاوية العبابدة، استبقيت إبراهيما سيكَالا والصادق وباقي أفراد الجماعة، وبعد أن أخذ كل واحد منهم مقعده، التفت إلى إبراهيما والصادق معا، وقلت: "من حكم القدماء، قولهم: الدين بالمُلك يبقى، والمُلك بالدين يقوى" ثم توجهت إلى الجميع "خذوا حذركم ولا تفرطوا في هذا التآلف والتعاضد بين الدين والمُلك، فكلاهما يسند الآخر ويدعمه، ولهذا الأمر جعلت من الزاوية ورباط الشيخ ركنا من أركان الإمارة الفتية التي رأت النور منذ عام ونيف، اجعلوا الإسلام شرعكم ومذهبكم وقضاءكم إن اختلفتم، ومرجعكم إن تباينت طرقكم. المُلك هو القوة واليد الطولى التي يضرب بها الدين ليحمي الثغور والحرمات والأموال والأبدان، والسيف الذي يقيم به عدل الله على وجه الأرض." ثم خاطبت إبراهيما "عليك من الآن أن تصنع لك ديوان رياسة ورجال بلاط وكرسي حكم[263]، فلا أمير ولا سلطان بدون كرسي يُعلي من شأنه ومقامه أمام الناس، فيجلس وهم وقوف احتراما وإجلالا حتى يأذن لهم بالجلوس، فيقعدون على مسافة منه، لا يقربونه ولا يحتكون به، وكرسيه أعلى من مقاعدهم» ثم قلت للصادق: «عليك بهذا الأمر، الأمير أمير، والرعية رعية، وأن يكون الحكم جاريا على العوائد المألوفة والأحوال المعروفة، من غير خرق عادة ولا إحداث زيادة، والمنشود عندنا العدل النبوي القائم على تحقيق الشرع ومشورة العلماء وموافقة الأحكام الشرعية للسياسة العقلية، وأنت تعلم أن الزاوية والشيخ الصالح والرباط هي عواصم المؤمن من الزيغ والشطط وسلطان كسرى وفرعون ذي الأوتاد». كان الفرح باديا على وجه «إبراهيما»، ومن عينيه يشع وميض خاطف كالشعاع، لم أحسن تأويله ذاك الوقت. بعد ستة شهور اعتلى إبراهيما عرش البلدة، والحق أن صُناعها أبهروني بالكرسي الضخم المحفور بنقوش وزخارف توحي بالخوف والرعب، وهي على أشكال الثعابين ورؤوس الوحوش الضارية، يتصدرها رأس أسد رهيب، هؤلاء القوم لازالوا على قدر من الجاهلية الأولى، لن تمحها آيات من السور القصار. تناديْنا إلى خيمة كبيرة وسط البلدة، أصبحت مجلس حكم وبلاط مُلك «إبراهيما» الذي

263- من علامات المُلك وجود كرسي للعرش، يشترط أن يكون بارزا حتى يصبح رمزا ناطقا عن سمو شخص السلطان وتفوقه على الآخرين (ابن خلدون، المقدمة م س – ص 207).

أحاط نفسه بأبنائه وإخوته وأعمامه وأخواله والمقربين منه. أحسست بالمراجل تغلي في الصدور، وبالقامات تشرئب إلى البعيد والأبعد، وبالحميّة، حميّة الجاهلية ونار العصبية تسريان في العروق، ما أنبأني أن الوقت قد حان لينفجر هذا الغضب، وهذه القوة المكبّلة في حرب ولو كانت صغيرة، ثم أسررت لنفسي، حرب صغيرة، هذا ما يناسب الآن، نصر قريب بدون خسائر ومغفرة من الله، خير من معركة لا يعود منها إلا قائدها وحاشيته أو لا يعود أحد. والحق أن ما شغلني هو أن أحافظ للزاوية على مقامها الرفيع، وأن تكون قادرة على لجم الإمارة الفتية وسلطانها، وأن يبقى الشيخ مصدر التشريع والفتوى وصاحب الحل والعقد في كل الأمور، وأن يكون الشرع أساس المُلك، والشيخ إماما. تشاورنا في الأمر واستمعنا إلى العديد من رجالنا الذين كانوا في المدة الأخيرة عيونا وجواسيس في الأقاليم المجاورة، استعلموا عن حالها وجُندها وثرواتها، قلت للجمع المصغّر، بعد أن اقتصرنا على رجال البلاط وحدهم، حفظا للسر وسترا لأعمالنا كما جاء في الحديث الشريف «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»، مشيرا إلى قرية قريبة، بأن تكون هي فاتحة الفتوحات المباركة، أيدوا نظري، قرأنا الفاتحة وباركنا هذه الخطوة. جاء النصر من عند الله، ثم توالت انتصاراتنا وفتوحاتنا، قرية قرية، مدشرا مدشرا، كما كانت قواتنا تزداد عددا وعُدّة، وقرى صغيرة تلتحق بركبنا مستسلمة راضية، وأغلبها كانت في عوز كبير وفقر مدقع، ما كلفنا مؤونة وكسوة ونفقة، غير أن القرى والبَلْدات التي غُزيت بعد معارك ضارية، درّت علينا غنائم وافرة من المال والذهب والفضة والإماء والغلة وخيرا كثيرا. اغتنى المحاربون والقواد ورؤساء الجيش وعلت أسهمهم وكثرت إماؤهم وجرى المال في أيديهم فأصبحوا أعيانا بعد أن كانوا أقنانا[264]. ابتنوا لأنفسهم وأسرهم دورا كبيرة واستخدموا الأسرى عبيدا وقيانا، وأكثروا من السهر والسمر والمنادمة وشرب الخمر، فعطلت الواجبات والفروض، وسرى بينهم الفسق والفجور وحب الشهوات، وتآمروا على بعضهم البعض، ودسوا لخصومهم السم أو سلطوا عليهم سفاحا فاتكا يخرج إليهم في ظلمات الليل وهم عائدون من مجلس خمر، و«إبراهيما» يرى ويسمع، ولا يحرك ساكنا، كمن

264- القن: العبد – أقنان: عبيد

لا حيلة له، أو من يريد من غيره إشعال النار ليستدفئ بحرارتها. وجاء الوقت الذي يمتحن فيه الله عباده، فيعز من يشاء ويُذل من يشاء. معركتنا الحاسمة أو أم المعارك كما سماها «الصادق»، الفاصلة التي ستنهض على حرابها دولتنا وإمارة المؤمنين في هذا الصقع النائي. كان الحِمل ثقيلا فوق ظهري، وموجعا في قلبي، ومخيفا مرعبا في عقلي. إن انهزمنا ذَهبت ريحنا ولن تقوم لنا قائمة بعد ذلك، وإن نصرنا الله، عَظُم شأننا ودان لنا القاصي والداني، وجاءتنا الأقوام خاضعة خانعة مستسلمة، فحكمناها بالعدل والقسطاس، وأعطينا لكل ذي حق حقه، ونفذنا شرع الله في سيرتنا حاكمين ومحكومين، لا تأخذنا في الحق لومة لائم. يوم الحشد المشهود، قلت في خطبتي كل ما في قلبي ونفسي عن المؤمن الصادق، عمدة الجماعة وصاحب الوعد الحق، الذي تتألف منه ومن أمثاله الفرقة الناجية الموعودة بالثواب والغفران، أتباع السنة الحميدة، سنة الجماعة من السلف الصالح والسابقين الأولين من الأولياء والصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقا. قلت خطيبا فيهم: «قوموا قومة رجل واحد، فإما الشهادة وإما النصر، اضربوا فوق الأعناق، ولا تأخذكم في عدو الله وعدوكم رأفة ولا شفقة إلا من سالمكم واعتزل النِّزال أو كان من العجزة والنساء والأطفال، فدماؤهم محقونة بالعهد الذي أخذه الله ورسوله على المؤمنين المقاتلين، واعلموا أنكم تقايضون بالدنيا الفانية، دار النعيم الباقية، بشرى للشهداء الأبرار، ونعم المستقر والقرار، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، وليُنبّه عاقلكم غافلكم وليبلّغ حاضركم عابركم.» كان لهذه الخطبة وقع وأثر في اجتذاب نفوس القوم واستجلاب قلوبكم[265].

دارت الحرب سجالا بيننا وبين حلف عبدة الأصنام والأشجار والعيون الجارية، وهم خليط من أقوام الزنوج وأشدهم مكرا وقوة، وما تبقى من أهل قرية «زنفرى[266]» التي تذكرني بالشتيمة المنعوت بها كل وجه قبيح في أسفي

265- بلغتنا المعاصرة، نجح في تأطيرهم وتعبئتهم للانخراط في دعوته.

266- «هذه ناحية (زنفرى) تسكنها عدة شعوب حقيرة بدائية، ويكثر في البلاد الحَبّ والأرز والدخن والقطن، وأهل زنفرى طوال القامة، لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف، وجوههم وحشية طويلة، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان...» (الوزان. م.س ج2 / ص174.) ويُعد الوزان من أوائل من ذكروا سكان هذه البلاد المجهولي الأصل.

وربما في سائر بلاد المغرب، فيقولون: «أكْحَل الزنفرة، زنفرة الوِيل، يَّخْ على زنفرة»، وهم قوم شداد غلاظ قساة، لا عقل ولا دين ولا وسامة فِيهم. وكانت المعركة على غير ما ألفناه واعتدناه، حيث يلتقي الجيشان، فيخرج من كل منهما فارس يبارز الآخر حتى يقتله، فتعلوا الحميّة والحماسة ويشتد أوار الحرب، فيهاجم كل فريق الآخر حتى يهزمه ويأسر قائده أو يقتله. أما هؤلاء فكانوا يختبئون في الحفر ويتدثرون بأوراق الشجر ويعتلون الأكمة ويربضون في كل منحدر، يكرون ويفرون، فلم نتمكن منهم إلا بعد أن نصحت أتباعي بخطة المباغتة وأخذهم على حين غرة، إذ أطبقنا عليهم من الخلف وقطعنا عنهم المدد والمعونة والماء والقهقرى إلى أراضيهم، فوضعناهم بين فكي كماشة أو على الأقرب بين فكي أسد جائع هائج. قاتلوا حتى غلبوا على أمرهم، وبعد أن استشهد منا رجال كثيرون، عاهدوا الله ورسوله أن ينصروا دينه ويعلوا كلمته.

تدفقت الغنائم كالسيول واغتنى محاربو «إبراهيما» بعد أن أصبحوا عسكرا رُتبت لهم أجور وصرفت لهم مؤن وأطلقت أياديهم في السلب والنهب، ولم يكن خضوعهم لإبراهيما من باب المراتب الحربية[267]، بل كان خوفا من قوته وبطشه، فاتخذوا الجواري وبنوا الدور وفرشوها بكل نفيس وغال. استكبر "إبراهيما" وطغا، استعظم وعلا، فبالغ في البهرجة والبذخ والترف، وأسرف في ارتكاب المعاصي والذنوب، فكثرت مظالمه ومساوئه، من جلد وسحل وقتل استنادا على الظن والشبهة وبدون بينة أو دليل، وقرّب إليه كل نمّام همّاز لمّاز، وأبعد كل صالح عاقل صادق، بالحق عامل ناطق. وأظهر العجرفة والتيه وادعى العظمة والجلالة، وأطلق على نفسه ألقاب الفخامة مثل ملك الملوك وسلطان السلاطين، وصنع لنفسه سرير مُلك عظيم من الأبنوس النادر، كله زخرفة ونقوش مموهة بماء الذهب ومرصعة بالجواهر النفيسة، وكلّل رأسه بتاج المُلك المذهب، فتشبه بالأكاسرة والقياصرة، وبئس المشبه والمشبه به، فالله لا يحب المترفين من عباده ولا من يمشي في الأرض تيها واختيالا. حزّ في نفسي ما انتهت إليه مشورتي لهم باختيار "إبراهيما"، فتجنبت لقاءه، وأخلفت مواعيده، واعتذرت عن دعواته بالمرض والعجز والاعتكاف، وأغرقت نفسي في الصلاة

267- التراتبية العسكرية.

والصوم ومجاهدة النفس ومساءلة الخالق علّ الكشف يأتيني ذات ليلة، فتتجلى لي الرؤيا المباركة لأستشرف أمر هذا الزمان وأعرف أصله من فصله، وإلى أين يقودنا هذا المعتوه المغرور بنفسه، المخدوع بما حصّل من متاع الحياة الدنيا. تواريت عن الأنظار وتجنبت المخالطة درءا لكثرة الإلحاح في السؤال الذي يلوح في عيني "الصادق" وباقي الأصحاب والمريدين من سدنة الزاوية وخلصائها الأوفياء. جاءني "الصادق" ذات صباح ليقول لي إن صغار الطلبة التحقوا بحاشية "إبراهيما" كتبة وأعوانا، وأن ما بقي منهم قد يلتحق بهم، قلت له: استقص الأمر، ولا تمنع أحدا من مغادرتنا وإلا تحوّل إلى عدو لدود لنا، لا إكراه في الدين، ولن نلزم أحدا بالمكوث معنا إن كان قلبه مع غيرنا. لقد هبّت ريح الدنيا فلا منجاة لنا إلا أن نسدّ أنوفنا حتى لا تزكمنا رائحتها النتنة.

طالت عزلتي في الخلوة، وتواصلت أيام الاعتكاف والتهجد، وسرّحت نسائي مخيّرا إياهن بين الطلاق أو المكوث، فغادرن البيت إلا واحدة، وهي الأولى التي دخلت بها، كانت مؤمنة عابدة قانتة صابرة، كنت من أجلها أقطع الاعتكاف حتى لا تزهد في الدنيا وتتحول إلى "رابعة العدوية" وهي في مقتبل العمر. إن جيش الخلاص الذي سهرت على إعداده وسخّرت مريديّ وأصحابي للعناية بتعليمه فنون القتال وحيل الحرب والمناورة والتشبع بالإيمان الراسخ والاعتقاد في نصرة الله لعباده المؤمنين، ها هو يتحول إلى عسس وانكشارية ومماليك تحت إمرة إبراهيما، وستزداد يوما بعد يوم أعباء بيت المال في صرف رواتب الجند وما يلزمهم من مؤونة وعتاد، وقتها سيطلق "إبراهيما" أياديهم في أرواح الناس وممتلكاتهم، وسيدعوهم للنهب والسلب عندما تعجز الخزينة عن الأداء ودفع المستلزمات، وبعدها السيبة والفتنة والصراع حول الحكم بين القواد وأمراء الجيش[268]، وهؤلاء لا يعرفون حدود الله وما حرم على المؤمنين من سفك الدماء المسلمين وإزهاق أرواحهم إلا بالحق، فمن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا. حرت في أمري وأمر الرعية التي جلّت قدري ورفعت

268- كان اللجوء إلى سفك الدماء والحبس والتغريب والعزل ومصادرة الممتلكات سلوكات مشتركة بين معظم السلاطين والخلفاء الأقوياء. (الحسين بولقطيب: «جوائح وأوبئة»... م س – ص 91).

مقامي ونصبتني وليا صالحا، صاحب الكرامات والخوارق، هل أجرمت في حق هؤلاء؟ لم يعرفو من قبل السلاح ولا الطعان ولا المقاتلة وخوض المعارك، كانوا سذجا غافلين، عن الدنيا مُعرضين، على الطبع والفطرة عاشوا مطمئنين، حتى ظهر من بين ظهرانيهم "إبراهيما" فحوّل حياتهم إلى جحيم وسعير، وأنا السبب!! زيّنت لهم شهوة التملك والتوسع في الرزق والأرض، حبّبت إليهم الغنائم والأسلاب، فأضحوا حِزْبين، حزب الجند المقاتلين ومن يحمل سلاحا ولو كان سكينا، وحزب المزارعين والعاملين في الأرض والنساء والخدم والأطفال والمستضعفين، تحكم الأولون في رقاب الآخرين، فأعملوا فيهم بالتنكيل والبغي والبطش، وحرموهم مما متعوا به أنفسهم، ثم حكموهم بالحديد والنار. عرفت متأخرا أن شر البريّة هم المسلحون، وأن سبب تعاسة الإنسان وبؤسه، يوم تعلم رفع السلاح في وجه أخيه من أجل تركيعه وإخضاعه. ألهمتني خلوتي وطول اعتكافي الحُلمَ بأرض بدون أسلحة سواء كانت نبالا ورماحا وسيوفا أو كانت كورا وطبجية وكَرناد. ذاك اليوم عندما سيأتي، سيكون يوم الجنة، لكنه لن يأت، فلا أرى الإنسان في هذا الطريق إلا معاندا مثابرا على أن يخلق ويصنع من أدوات الدمار والفناء والموت ما لم يخلقه الأسلاف. فمزيدا من أمثال "إبراهيما" ومزيدا من الأسلحة الجديدة. ماذا أصنع إن واجهني يوما وقد أصبح طاغوتا؟! أأملك لنفسي شيئا؟ لم يكذب ظني وحدسي، فقد أخذ الناس يتناقلون أحاديث كثيرة تُنسب إليه وإلى حاشيته، بأنه صاحب الإمارة والزعامة وفاتح القرى والبلدان، حامل لواء الإسلام وملك الملوك، ومن حقه أن يكون أمير الشرع والدين وسلطان المملكة، وأن يجمع بين الإفتاء والملك، وبين الشريعة والسلطنة، وأن لا أحد يعلو على مقامه. وقد كان داهية، تعلم مما لقناه وتدبر فيه بعقل إبليس وأفعاله، إذ أمر رجالا ممن أستصلح عقولهم، بالدعوة إليه واستمالة زعماء القبائل المتاخمة لمملكته، وأخذ يحكي لهم عن المهدي المنتظر ويشوقهم إليه، وكنت يوما قد ذكرت له أحاديث كثيرة من ذلك عن المهدي بن تومرت، فلما تأكد من إقرارهم بفضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه ورفع نسبه إلى النبي (ص) وصرّح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي المنتظر صاحب العصمة والشرف والحكمة والخلاص. ارتج أصحابي من حولي، وخافوا على أنفسهم قبل أن يخافوا عليّ، إلا "الصادق"، فقد كان قوي الإيمان، صلب

العود، ظل دوما يحذر من التمسح بالأعتاب والسجود لإبراهيما وتقبيل الأرض بين يديه. غير أن الأصحاب أخذوا ينسلون واحدا تلو الآخر، حتى لم يبق إلا بعض الأعوان ومن لا فائدة لهم، وربما كانوا عيونا علينا، وقد أخذ "إبراهيما" الأمر بالجد اللازم، فلم يكن مازحا عابثا فيما ينوي القيام به، إذ عندما جاءته الأخبار بأن البعض من أفراد رعيته تراودهم الشكوك في أحقيته وادعائه العصمة والشرف، لم يتأخر رده، حيث أمر بجمع كل مبايعيه بساحة البلدة وكلف أحد أتباعه المخلصين بتعيين الخوارج المنشقين وفرزهم عن الجموع الغفيرة الحاضرة ثم قتلهم أمام الملأ، وقد مات في هذا الظرف وحده خلق كثير. ولما لم يجد رادعا ولا صارخا، بل لقي دائما من يصفق له ويمدح أعماله ومآثره ويذم خصومه وحساده، هجم على القرى القريبة والبلدات الضعيفة التي استسلمت بدون قتال، فاتهمها بالزور والبهتان وإضمار الشر والتقية، وكل ما كان يريده، الأموال والممتلكات التي لم يتحصلها بسبب استسلامهم ودخولهم الطوعي في الإسلام، فخرّب الديار، وأشعل النار في الأسواق والأمتعة والفُرش والدور، وأطلق جنوده ناهبين مخرّبين، فحرقوا ومزقوا وسلبوا ثم فروا وتركوها خربة خالية خاوية والنيران مشتعلة في ديارها وأسواقها. ومع مرور الأيام وتوالي الليل والنهار، أصبحت الحرب همه ومناط تفكيره وسياسته، وعلى وجه الخصوص حين اعتبر نفسه صاحب العقيدة الصحيحة وغيره ليسوا سوى مُجسّمة كفار[269]، تجب محاربتهم وقتالهم لدِرعهم وردهم إلى جادة الصواب ولسان حاله يقول لهم: أحكِمكم أو أقتِلكم، أغنيكم أو أفقركم، أرفعكم أو أحطكم، أمنحكم أو أسلبكم، أُحييكم أو أُميتكم، فاختاروا ما تشاؤون، واعلموا عاقبة ما تعملون، وما لا تعملون. والحق أنني ما خلته يوما سيعيث في الأرض فسادا ويهلك الحرث والنسل، وهو الوديع الذي كان يخفي وجهه في صدري عندما يلقاني، لقد ورد ذكره في الحديث النبوي الشريف عندما قال: "لا تعلموا أولاد السفلة العلم" وهذا من تلك الطينة، علمناه وأفهمناه وأقررناه على الحكم، فخان الأمانة وخيّب الظن.

269- وثنيين من عبدة الأصنام والأوثان...

فائدة للاتعاظ والعبرة..

عن سفيان الثورى أنه قال: "إذا رأيتم شرطيا نائما عن الصلاة، فلا توقظوه لها، فإنه يقوم ليؤذي الناس".

ورُوي عن ابن عدي عن عمرو بن حنيف عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي (ص) قال: "أدخلت الجنّة فرأيت فيها ذئبا، فقلت: أذئبٌ في الجنة؟! فقال: أكل ابن شرطي، فقال ابن عباس هذا، وإنما أكل ابنه، فلو أكله[270] رُفع في عليين".

رجع إلى ما كنا فيه..

لم يكن له ناه ولا منته، ففرض المغارم والمكوس على رعاياه عندما عجز بيت المال، بل طالب بمصادرة أملاك الزاوية وأوقافها المحبّسة على طلبة العلم والدين، وكان يقصد أبعد من المنقول والمحبّس، كان يرمي الاستيلاء على دوحة الزاوية وشجرتها الشريفة ونور العرفان الذي يسطع من منارتها وشيخها صاحب الكرامات، وعندما لم يفلح في تحقيق مراده ونيل مبتغاه، أمر جنده بتحصيل رواتبهم من أعمال النهب والتغريم المصاحب للغزو، فاستفحلت أعمال السطو والسلب وتعدي القبائل القوية المناصرة لإبراهيما على القبائل الضعيفة، فسفكت دماء بريئة وانتهبت أموال حلال، واستُرّقت نسوة حرائر واقتحمت حُرمة الدور، وانتقم من الرعية بأنواع العقاب والتنكيل كالتقتيل بالسلاح والتحريق بالنار، وأطلق أيدي الجند على الرعية، يسومونهم سوء العذاب، ويطالبونهم بمغارم مجحفة مهلكة، ويتوعدونهم بإحراق الزرع وإفساد الغرس إن توقفوا عن الأداء، فلم يكن أمام القوم إلا أن يلوذوا بالفرار حين لم يجدوا سبيلا إلى الاستقرار. أما "إبراهيما" فقد أهمل أحوال الرعية وأعمال الفلاحة والتجارة والحِرف، واهتم بالجند، فأغدق عليهم الرواتب الجارية والهبات الظرفية ومتحصَلات الغنائم وأقطعهم الأراضي والضياع، فتهافت المتهافتون وصغار العقول ـ تهافت الذباب نحو ضوء الشمعة ـ على الجندية لاعتقادهم أن من كثرت أجناده عمرت بلاده،

270- أي الشرطي نفسه.

ومن كثر جيشه زال خوفه، فأصبح أرباب الجيوش حينئذ أوسع جاها وأسمى نعمة وأوسع إقطاعا، أما أرباب الأقلام والمحاريث والمناجل فقد أضحوا أعداء وعبئا ثقيلا وصداعا ينبغي التخلص منه اليوم قبل الغد. وجدت نفسي أردد دون سابق تحضر ودون وعي، شعرا لأبي الطيب في مثل هذا الحال:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود[271]

أنا في أمة تداركهــا اللــه غريب كصالح في ثمود

أي والله يا أحمد[272]، أنت ربّ القوافي، فماذا أصنع ؟ أشِرْ عليٍ بحل أوٍ ألهمنيٍ حيلة، جاءني صوته من وراء الغيوم بدون ماء، ولا مجرد رش أو طش أو طل[273]:

ومن نكد الدنيا على الحُرّ أن يرى عـدوّا له مـا من صداقته بُـدُّ

كان هذا اعتقادي الذي ترسخ يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة. لم يكن "الصادق" من الغافلين، لقد تبين - هو أيضا - أن لا عدل في هذا الكون إلا عدل الموت، وحدها التي تضع الميزان وتحكم بالقسطاس، أما هؤلاء المجانين والمهووسين بالحكم والسلطنة والجاه فيدفعون الناس البسطاء وأهل الفطرة ليُصبحوا هم بدورهم مجانينا وحمقى.

ناديت على "الصادق"، ولم يكن في الزاوية غيرنا وبعض الدراويش والفقراء المرابطين بالجوار، وكأنه كان على موعد، إذ جاءني في طرفة عين، محمولا على كتفي جني الملك سليمان. ما كنا بحاجة إلى الكلام المسهب، لقد قُضي الأمر، وجاءت الساعة وانشق القمر، إن إلى ربك يومئذ المستقر. قلت كاظما حزني وحسرتي، لا بد مما ليس منه بد، لم يعد لنا مقام هنا، الرحيل أو الموت على يد "إبراهيما" وطغمته الفاسدة، قال "الصادق" الصدّيق المصدّق لما بين يديه، موتنا هو مُناهم، يرون فيه حياتهم، سيجعلون منه قميص عثمان،

271- ديوان المتنبي، م س ، ص 20 وص 21.

272- أحمد : إسم المتنبي.

273- الرش والطش: أول المطر.

الطل: أخـف الـمطر وأضعفه. (الثـعالبي: فقه اللغـة وأسرار العربية، ص 303، ط 2006، بيروت).

وسيحمِّلوننا كل شرورهم ومساوئهم ونكساتهم، قلت باقتضاب: لن نُمَكِّنهم من ذلك، قال: وكيف؟ قلت: الرحيل، قال: إنهم يسدّون كل المنافذ والمسارب ويضعون العسس نهارا وليلا في كل جنبات الجبل والبركة وكل الطرق السالكة نحو الزاوية. قلت: اليوم... وسكتت، فرفع نظره نحوي مستفهما، طال سكوتي ثم قلت: اليوم نصلي الفجر بعيدا عن الزاوية، وهذا أمر يؤلمني كثيرا، قال: أرض الله واسعة، ولن يتخل الله عنا ونحن عباده الصالحون المؤمنون، قلت: ونعم بالله، موعدنا الهزيع الأخير من الليل، لا تخبر أحدا، ولا تحمل متاعا ثقيلا. طال ليلي ولم أنم، كان ليلا بهيما، إن أخرجت يدك فلن تراها، قضَّيته متلصصا على أنحاء الزاوية وجنانها وبقاعها وكل شبر قد يلبد به إنس أو جان. حين تأكدت وتيقنت من خلو المكان وسهو الحراس والعسس وارتكانهم إلى سكينة المكان وأمان ساكنيه، عرجت على خيمة "الصادق"، ناديته بهمس، فجاءني ملبيّا، كأنه كان يحلم بي أن آتيه تلك الساعة أو كان يقظانا مثل حالتي وهو الأقرب إلى ما نحن فيه. متاعه على ظهره وعصاه بيده وقد لفّ رأسه بعمامة وتنقب كالطوارق. عجبت لأمر هذا الرجل، فلم يرزقني الله بصاحب كهذا، المُفجع في الأمر أنني سأفارقه بعد حين. غادرنا الجبل من جهة الجنوب، تاركين وراءنا آثار أقدامنا ظاهرة ثم ممحوة وبعدها مشوشة ليظن المقتفي لآثارنا أننا قاصدين جنوب البلاد نحو أدغال إفريقيا، وأننا نخفي الآثار دفعا لكل اقتفاء ومطاردة، لكننا عرجنا نحو المشرق والقبلة، فقد جاءني الهاتف الذي هجرني مدة طويلة ليناديني في أذني بالرحيل، ثم زارتني الغادة الفاتنة الساحرة المتخفية في ضوء القمر لتنير الطريق في هذا الليل البهيم الحالك الظلمة. هبط علينا الفجر ونحن على بعد سبعة أميال من الزاوية، فقلت للصادق: الصلاة، الصلاة. أذن وأقام الصلاة، صلينا وتناولنا فطورنا، قلت للصادق: الخير فيما اختاره الله، قال: ونعم بالله، وماذا اختار لنا أيها الشيخ الجليل؟ قلت: اختار لكل واحد منا طريقا، نظر إلي بدهشة المتعجب، لكنني واصلت الكلام: اسمع أيها الأخ الصادق، سفرنا معا قد يعرضنا للهلاك والموت، حينها ستنتهي دعوتنا وصلاحنا ويضيع ما بنينا وشيدنا ولن يبق لنا عقب ولا أثر، وهذا إن لم يكن قدرا مقدرا، فهو احتمال بشر، لكننا إن تفرقنا وهلك أحدنا فقد نجا الثاني وانتصر، وللدعوة والصلاح سيكون داعيا ومبشرا وهاديا. أنت تعلم أنهم يطلبون رأسي ليسلبني "إبراهيما" شرف

الصلاح وينصب نفسه سلطانا ووليا صالحا في الآن ذاته، ويجمع بين السيف والقلم، الشرع والسلطان، وستكون له اليد الطولى في الإفتاء وإقامة الحدود، فيحل ويحرّم كما يشاء، ويعطّل من الواجبات والفروض ما لا يروقه، وقد يبتدع في الدين من البدع والمحرمات ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر. رفع رأسه وقال: السنة تجمعنا والبدعة تفرّقنا، قلت: نطقت بالحق، والحق نطقت، بورك فيك وفي من اتبعك إلى يوم الدين، قم أيها الفتى الصالح، فقد جاء زمانك وحان وقتك، فلا تتأخر عن الميقات. إن جاء يوم وبعث إليك سلطان أو زعيم لتفد عليه، فاحمل كفنك معك، قال مودعا: كما ترى أيها الشيخ الصالح، وإن كان فراقك أشد مضاضة على نفسي من ظلم سيف "إبراهيما" وما سيفعله بي إن أدركني.

تعانقنا وتواصينا وتعاهدنا على المضي في الدعوة إلى الصلاح وإنقاذ الأمة ومحاربة الظلم والفساد. اتجهت نحو الشرق، وصوّب هو نظره نحو الشمال، توقفت ملتفتا إليه وليس بيننا إلا بضع خطوات، صحت متكلما وأنا ألوح بيدي نحو الشمال، لا تتوقف عند البحر، اجتزه واعبره نحو الضفة الأخرى، لعلك تجد الغادة الساحرة، نظر إليّ مندهشا متعجبا وهو يقول مبتسما: سأفعل إن شاء الله، سأفعل أيها الشيخ الجليل. كانت أمنية صغيرة تولد في قلبي أننا سنلتقي ذات يوم، فإن لم يكن في الدنيا، ففي الجنة عند سدرة المنتهى يكون الموعد واللقاء المرتقب.

لن أضعف ولن أنهزم ولن أتراجع عما خرجت من أجله ولن أقف مع الظالم مرة ثانية. كم يعز عليّ فراقك أيها الصادق الأمين، صحيح ما جاء في الأثر "الرفيق قبل الطريق"، ولكن طرقنا متباينة، فالأحق أن يقال: "الطريق قبل الرفيق"، اختر طريقك أولا ثم ابحث عن الرفيق الذي يمشي الطريق معك.

الصحراء، الصحراء، وما أدراك ما الصحراء، نار الله الموقدة نهارا، وقرّ الثلوج والصقيع ليلا، كلما نسيت هول الرمال وصهدها وذئابها وثعابينها ورعبها وأصواتها الرهيبة المخيفة، إلا وعدت ثانية إليها كأنني من المقصودين بالآية الكريمة «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب"[274] وما أن فارقني "الصادق" ليشق طريقه وحده، وتوكلت لآخذ طريقي وحيدا حتى وجدتها أمامي تفتح لي ذراعيها بحرارة وشوق ولهفة كأنني كنت قد ضعت منها أو فقدت منذ مئات السنين، ولم تهدأ حتى وأنا أخلع ملابسي وأتعرى عندما أصبحت الثياب ثقيلة ومُتعبة، ولو خُيّرتُ لفسخت جلدي أيضا، ومع ذلك لم ترحمني، تسربت إلى عظامي ودمي وعروقي حتى تحوّلتُ إلى جمرة حمراء من اللظى، أحس وأشم رائحة الشواء المنبعثة من لحمي. تخليت عن كل شيء كان معي، عن الملابس والمتاع والدنيا كلها، تمنيت الموت، ناديته فلم يأتني، أن يرحمني من عذابي، خلت نفسي في الجحيم لا في الصحراء، أعذب بذنوب لم أرتكبها، وأحاسب عن أفعال ارتكبها غيري مُنتحلا شخصي، أيكون الحساب والعقاب بهذه العجلة، ألا يحق لي أن أسأل فأجيب وأدفع عن نفسي التهمة والشبهة؟ كيف أعاقب بهذه النار وأنا ما سعيت إذ سعيت إلا لأنشر كلمة الله في هذه الأرض وأجعلها هي العليا وأن يؤذن في المآذن وتصبح أرض الله مسجدا وجامعا مطهرا مباركا. ها أنا ذا عارٍ أمامك أيتها الصحراء المتجبرة المتعالية القاسية، افعلي بي ما تشائين، فجّريّ الدم في عروقي، ازرعي الدمامل والبثور في جسدي، افسخي جلدي كالثعبان، نشفي كل قطرة ماء في بدني، أطفئي

274- سورة النساء الآية 55.

نور عينيّ، املئي بطني بالرمال، لعلك تستلذين تعذيبي وتستمتعين بموتي، حلال عليك قتلي، فإن كان مكتوبا على يديك، فاقتليني بسرعة ولا تترددي، فقد انتهيت ومت قبل الآن، وما أعيشه هو العمر الضائع بين الحياة والموت.
أحسست أن العطش طهّرني فنزعت لثامي وهو آخر ما ينزعه أبناء الصحراء - وقد أصبحت واحدا منهم - وارتميت على الرمال الساخنة، أو قل تهاويت ساقطا غير شاعر بشيء مما حولي، ما أجمل العُري أمام الصحراء والسماء وعيون الملائكة، وما أقبح الثياب التي تخفي النفاق والمكر والخبث، وعورة مكشوفة ولو تسترت. مرت بي لحظات وساعات، وربما أيام بنهاراتها ولياليها - فالوقت هنا لا يقاس بالمواقيت - عشتها بين الغيبوبة واليقظة، بين الحياة والموت، في برزخ رهيب عَرّتني الصحراء فيه من كل زيف وبهتان ونفاق وكبر وكبرياء، عوراتي بلا حياء ولا خجل تستقبل الصهد والريح وذرات الرمل، تجرّد أيها المهاجر من ثيابك كما يفعل الصالحون والمجذوبون وأهل الطريق والسالكون، هكذا خُلقت وهكذا ستعود. مشيت على اثنين، سعيت على أربع ، زحفت على البطن، حبوت كالطفل، تدحرجت كالصخرة فوق التلال، انكفأت على وجهي بلا عد ولا حساب ، أفقد الوعي ثم أستفيق كالثمل، أعقل ما حولي بُرهة ثم أعود إلى غياهب الظلمات، فأرى صورا من الماضي تعبر الفضاء زاهية مُنيرة في أيام ربيع دائم الخضرة والبهجة والسرور فأبذل جهدي لأفتح عينيّ معتقدا أن ما حولي ربيع وبساتين وبرك ماء، يصفعني على الفور سياط الرمل يقذي العين ويوخزها. كم قطعت من الطريق وأنا على هذا الحال، الحمد لله أنني لم أقع بين مخالب كاسر أو أنياب وحش مفترس. وجدت نفسي أستفيق بعد غيبة طويلة عن عالم الشهادة، عليّ من الثياب ما لم أر من قبل، سندس خضر وإستبرق وأساور من فضة وشراب طهور بجانبي، متكئا على أرائك وثيرة منفوشة محشوة بصوف أو ريش أو قطن، أو كلها مجتمعة، لا شمس ولا زمهرير، تتدلى فوق رأسي أشجار مثمرة يانعة، تدنو ثمارها مني متى اشتهيت، قاعدا أو مضطجعا أو مستلقيا، آنية من فضة وأكواب شفافة يطاف بها عليّ، وقد مُلئت من عين جارية تدعى سلسبيلا، تسقيك كأسا مزاجها زنجبيلا[275]. كذّبتُ عينيّ فقلت إنني

275- يقتبس العبدي عباراته من سورة الإنسان دون مراعاة للترتيب الذي وردت به آياتها في المصحف.

أحلم، فتحتهما على سعتهما، فقلت: هو الحق والعلم اليقين، فلم أدرأ بالخاطر شاهدت أم بالعين نظرت؟! كلاهما معجزة وآية من آيات الله التي يهبها لمن يشاء من عباده. سكون جليل مهيب يعم المكان، إن صح أن نقول عنه إنه مكان، فلا حيز له ولا حدود ولا زمان، فلا النهار نهار بضوئه وشمسه، ولا الليل ليل بنجومه وقمره وظلمته، لكنه السكون الذي يعبده الحكماء والمتصوفون والعُبَّاد، من بعيد تأتي شقشقة ووصوصة وزقزقة وتغريد، كأنها طيور الجنة التي يحكون عنها، لكل منا طائره، وألوان من النباتات والزهور والأشجار ما لم تر عين من قبل ولا خطَرت على قلب بشر. عندما أردت الكلام خرج صوتي أشبه ما يكون بصوت الشحرور هادئا نقيا بهيجا، فتمنيت أن أتكلم ولا أسكت أبدا. رفعت رأسي لأرى صاحب الوجه الذي وقف أمامي، ابتسم لما نظرت في عينيه، قلت: أين أنا؟ قال: أنت هنا، ألا ترى ما حولك، قلت بإصرار: أين أنا، أرجوك؟ لقد ضعت في الصحراء ومت أو كدت أموت، قال: ضيّعت نفسك لتجدها. كان الرجل نورانيا لا آدميا، في عينيه فضاء لا حد له، واقفا أمامي وكأنه بلا قدمين أو واقفا في الهواء، صوته كعَنْدَلَة[276] البلابل القادمة من المروج والبساتين، لباسه من الحرير. نهضت من رقدتي، فإذا بي سليما معافى، لا أثر لشيء من الإجهاد والمرضِ والوعك بجسمي، كنت أخاف إن قمت واقفا أن أسقط، فلم يحدث ذلك، قلّبت النظر في ذاتي وبحثت عن خدوش أو كسر أو حروق أو دمامل، فلم أجد أثرا. الله أكبر، أين ذهبت كل تلك الجروح والندوب؟ وكيف سرى الماء في وجهي فأنضر وأينع بعد أن كادت أسناني تنثرم[277] ولساني يُبتلع، من أين لي هذه الصورة، لا عفونة ولا نتانة ولا رائحة كريهة تنبعث من بدني، وقد عهدته يعرق فيَعْطَن[278]، كأنني قضيت شهورا طويلة في الحمام، طهارة لا نظافة، سرت قليلا، لكنني توقفت، فلم يأذن لي أصحاب المكان - إن كان له أصحاب - بالمشي والتنزه فيه، وأنا لم اعرف بعد أين أنا؟ عدت خطوات إلى الرجل النوراني الذي أفقت على صورته، ربما لم أعد القهقرى إليه، فقد كان بجانبي وإن لم أره ماشيا

276- العندلة: صوت العندليب (ج: عنادل) ويسمى أيضا البلبل والهزار.

277-ثرم: سقطت أسنانه فهو أثرم.

278- العطن والعطانة: العفونة والنتن.

ولم أسمع وقع خطوه، قال لي: إن شئت تنزهت وحدك، وإن شئت رافقتك، قلت مداعبا: أحس أنك رفيقي، شئتُ أم أبيت؟ قال: هو ذاك. قلت: صارحني أين أنا ولا تُراوغ أو تُداري في الجواب؟ قال: حاشا لله، المكان أبعد ما يكون عن المراوغة والمداراة، هنا كل شيء واضح، ولكن ليس بمعايير دنياكم، قلت: دنيانا؟! أو ليس هذا المكان جزءا من الدنيا؟! قال: لا، أعظم وأجلّ من الدنيا، قلت: الجنة إذن؟ قال: أقل من الجنة أيضا، قلت: ماذا يكون؟ قال: سَمِّه ما تشاء، برزخا، معبرا، سماء... لكنه ليس بالدنيا ولا بالجنة، فهنا لا ذنوب ولا موت، ولا جزاء ولا عقاب، ولا موت ولا خلود، شعرت أننا ـ أنا وهو ـ نمشي دون أن أحس بفعل المشي ولا قدماي تخطوان، فسألته على الفور: إننا نسير ولم أعلم بذلك، أجابني مبتسما: تأتي أفعالك تبعا لما في خاطرك، ولن يتعبك فعل هنا، فالمشي أو الجري أو الأكل وغيرها لم تعد ـ هنا ـ أفعالا تتطلب جهدا يتلوه نصب وتعب، قلت: وكيف يتم ذلك؟ قال: كله بإرادة الله، إنس أفعال الدنيا، فلن تجدها، أسْلم نفسك وروحك للملكوت، تجِد السعادة والطمأنينة. خلال نزهتنا مررت بمخلوقات عجيبة، لا أعرف ماذا أسميها، إن قلت: آدميين، فالنعت لا ينطبق عليها، مخلوقات على أحسن صورة وأكمل وصف لا تليق بها الآدمية اسما. الأقرب للدقة والصواب، أنهم أهل الملكوت، صامتون، يمشون على الأرض ـ إن كانت أرضا ـ كمن يمشي فوق الريح، عليهم حرير، لا عيب ولا عاهة ولا شيّة في أبدانهم، مروا بجانبنا كالنسيم العليل، ابتسموا لرفيقي النوراني وابتسم لهم، فكأن الشمس سطعت ثم اختفت، لعلهم تحادثوا فيما بينهم، لكنني لم ألحظ كلاما ولا سمعت حديثا. عندما خامرني السؤال عن اللغة التي بها يتكلمون؟ لغة الدنيا أم لغة الملائكة، جاءني الجواب توا: أهل الملكوت لا يتكلمون لغة الكلمات طالما يفهمون لغة الخواطر والهواجس وحديث الروح، كل اتصال يتم بالتأمل الداخلي واستنباط المشاعر والأفكار التي يتلقاها صاحبك في نفس الآن، إنه التخاطر بين الذوات مهما بعدت المسافات بينها داخل الملكوت، أهلها يتبادلون الرسائل بينهم كل حين وبدون واسطة أو رقاص، والعجيب في هذه المخلوقات أنها تقرأ أفكار بعضها البعض قبل أن تعبر، فلا حجاب ولا سر ولا مستور مدفون ولا حقد ولا ضغينة، فكل شيء على المكشوف. إن خطر لك شيء كالطعام مثلا وكنت جائعا، فقبل أن تجاهر برغبتك أو تفتح فمك، تجد

أمامك طابورا من الحسان يرتدين غلالات شفافات من حرير ملون تنسدل فوق قامات ممشوقات، في أرجلهن خلاخل من ذهب، وفوق أعناقهن عقود من الجواهر النفيسة، وفي أيديهن أساور من فضة، وفي آذانهن أقراط من ذهب، وهن يحملن أصنافا من الطعام الذي اشتهيت وتمنيت فجال بخاطرك. لن يقول لك أحد بالملكوت عن فاكهة خطرت بنفسك، ليس هذا موسمها، لا استحالة في الملكوت. وما دامت لغتهم وحوائجهم ورغباتهم تُقضى بالخُطور[279] والتجاوب الجواني، فقد تخلصوا من الضجيج والصياح والأصوات الصاخبة والكلمات النابية والصراخ عندما يشتد الجدال والسجال، والتلويح باليد أو هز الرأس أو الدك على الأرض وما شابه ذلك من المُعينات التي يستخدمها الواحد منا لاستكمال ما ينقصه من كلمات أو سترة للقصور عن التعبير. كانوا لا يستحمون لأنهم لا يتسخون ولا يعرقون ولا تبلى ثيابهم، وإن شاءوا بدّلوها بأخرى عن طريق التخاطر. كانوا من حين لآخر ـ حسب لغتنا ولا أعلم ماذا يكون حسب تقويمهم الزمني في الملكوت ـ ينزلون للتطهر أو الاغتسال في وديان وبحيرات، لم أر ماء صافيا شفافا كمائها، يأخذ حرارته أو برودته حسب مشيئة خاطر المستحم، فيغتسلون ويتطهرون ويسبحون، فإذا جلودهم قد أضحت أكثر صفاء وبياضا[280] كأن الأنوار تشع منها.

عندما خطر السؤال ببالي، عن كيفية دخولي إلى هذا الملكوت، وهل مت فعلا؟ وأنا هنا أعيش حياة الأموات؟ أو... وجدت رفيقي النوراني يقول: لا، لم تمت بعد، ولكنك كنت على شفا الموت، ولم يكن بينك وبينه إلا ما بين الشهيق والزفير حين زرتنا. أنت ضيف كريم، حللت في وقت معلوم وكنت في المكان المبارك، حيث ينزل القمر حتى يلامس سطح الغدير، عندها ينفتح باب الملكوت ليستقبل من كان على شفا قبر، وكنت أنت ذلك الرجل، وتلك فرصة العمر التي يمنحها الملكوت لأحد من المتقين الورعين ليريهم آيات الله في خلقه وملكه، وليعلموا أن وعد الله حق، وأنكم ما تعلمون إلا القليل. وكأنه

279- توارد الخواطر. (خطر خُطورا: لاح في فكره).

280- تحكي الميثولوجيا الإغريقية عن نهر في الجحيم (ليثيه Lethe) تشرب منه أرواح الموتى، فتنسى حياتها السابقة تمهيدا لنقلها إلى حياة جديدة (نهر الموت والنسيان).

يتابع خواطري، فيقول: إن شئت بقيت وأصبحت من أهل الملكوت حيث ترتقي في المدارك والمراقي بالتطهر والتسبيح للواحد الأحد حتى يحين الأجل وينفخ في الصور ويبعث الناس ليروا جزاء أعمالهم، وإن شئت المغادرة والعودة إلى الحياة الدنيا، فلا زلت محسوبا على الآدميين، أعدناك بحول الله وقوته إلى ما كنت عليه بعد أن شاهدت الملكوت واطلعت على سر أسرار الكون فتأكدت لك الرؤيا والمشاهدة ووافق العيان النظر، فاصدع بما رأيت في قومك واتبع الطريق ولا تحد عنه ولا تزغ عما خرجت من أجله. لم أكن أعرف النهار من الليل، فهنا لا تشرق الشمس ولا تغرب، ولا ينير القمر ظلمة الليل، كل ذلك يتم خارج الملكوت، فلم أعرف كم قضيت من الأيام، لا صباح ولا مساء ولا ليل، لا استيقاظ ولا نوم، كل ما أحببته وخطر ببالي يحصل. تحضر المرأة في ذهني، فتحضر فورا بمجرد التفكير فيها، وهي تقرأ أفكاري فلا أستطيع الاحتفاظ بأي سر، وتبذل كل شيء لإسعادي وطرد الملل عني، وفي بعض الأوقات تقرأ أفكاري وهواجسي فتتشكل على صورة المرأة التي في خاطري. عندما خطر هذا الخاطر مرة وأنا بصحبة رفيقي النوراني، قال لي: والمرأة أيضا، إذا خطر لها رجل معين، يُلبى طلبها في الحال، لا فرق بين أهل الملكوت ذكورا وإناثا، قلت له: إنني أحيانا لا أميّز بين الوجوه، فهي تتشابه كثيرا، لكن ظني أنهم لا يمكن أن يكونوا توائم، قال رفيقي النوراني: الوجه موجود عندكم أنتم في الحياة الدنيا، قلت: وبماذا تتميز مخلوقات الملكوت، إن لم يكن ذلك بالوجوه والمحيا؟ قال: عندنا في الملكوت كل مخلوق صانع لنفسه، فبعد أن خلقه الله، مكّنه من أن يركب نفسه كما شاء وأن ينتقي من الملامح والسحنات ما ألهمه الله به وعلّمه إياه، ألم يقل في كتابه العزيز "وعلمنا آدم الأسماء كلها"، هذا أيضا مما علّمه الله لأهل الملكوت.

عندما خطر بالبال ما خطر، وجدت بجانبي حوريتين واقفتين تحت شجرة منيفة، قدمتا نحوي وقدَّمتا طبق فواكه من كل نوع بهيج، وقد علمتا بالخاطر، إذ أخذت إِحداهما بيدي، وكانت ذات قد ممشوق وقوام مفرود وعود سرو يعود إلى أزمنة الرخاء، فدخلنا أجمة، فإذا هي قباء مفروش، كنت قد اشتقت إلى صهوة فرس جموح أرعن يصارع العنان والرِكاب، يغالب اللجام ليرمي بفارسه

أرضا إن لم يسايره في كره وفره وإقباله وإدباره ويروضه بحنكة واقتدار. حنّت نفسي للغوص في أعماق البحر حيث روائح الطحالب والمحار وبلح البحر[281]، فلم أتمالك نفسي مِن الصياح بأعلى صوتي، «هاكْ اعْلَى ولد الحمرية[282]، وفاينك آ الحمرية، أَجي اتْشوفي اوْليدَكْ فينْ وَاصَلْ، هاكْ ألبَارودْ عْلَ ولد الحمرية، ارْكَبْ ارْكَبْ، وَاخَا يا لَعْبيدَي»[283] وأظن أن أحدا لم يسمعني في هذا الملكوت، وربما أنا الوحيد الذي كَنت أصيح وأسمع صياحي في نفس الوقت. رجعت إلى نفسي واستعملت حصاتي فيما يعرض لي، فلم أجد خيرا من القول: «وإنها لهي الحيوان»[284].

عندما خطر على بالي رفيقي النوراني، كان أمامي حاضرا، قلت له بدون استهلال، هل معكم في هذا الملكوت شعراء وأدباء كما حكى أبو العلاء المعري، انتبهت إلى نفسي، فقد كان بإمكاني أن لا أتكلم، فكل شيء يقضى بالخُطور، خِلته موشكا على الضحك، ولكنه لم يفعل بل تكلم قائلا: ألم أقل لك من قبل، إنس الدنيا وما فيها، لن يتكرر في الملكوت ما وقع في الدنيا، الحياة الدنيا زينة وفتنة ولهو ومتاع غرور، فكيف تريدها أن تعاد مرة ثانية وتتكرر، بعد أن تخلص العباد من ربقها وذنوبها وآثامها. المعري صاحبك هذا، تخيّل في الآخرة ما لم يره في الدنيا، بل سمع عنه ورُوي له، لقد أراد أن يكتب عن الجنة والنار، فوجد نفسه يكتب عن الدنيا ومتاعبها ومشاغلها، قلت برجاء: هل تسمح لي أن أسأل، قاطعني بقوله: اعرف ما يجول بخاطرك، كيف يمكن للإنسان أن يعيش في الملكوت بلا شعر أو أدب أو تاريخ، أنت تريد نعيما تلقى فيه الشعراء والمؤرخين والتراجمة والفلاسفة والمناطقة وأهل الأدب واللغة وعلماء الدين، يتحاورون ويتجادلون ويفند بعضهم البعض الآخر وينتقده، ولكن خاطرك توقف عند هذا، لم تقل: هل سيكتبون وينشرون، ومن سيقرأ لهم، أين جمهور القراء

281- «لحيظات الذروة السابقة على انطفاء الشبق وتمام الأرب» (جمال الغيطاني: «متون الأهرام»، ص 39 – ط2 – 2002 دار الشروق، مصر.

282- المرة الأولى التي يذكر فيها العبدي لقب «ولد الحمرية» الذي كان يدعى به في أسفي ونواحيها.

283- تأطير قول العبدي داخل مزدوجتين من وضع المحقق.

284- أي الحياة الدائمة «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» سورة العنكبوت الآية 64.

والرواة والحفاظ والكتبة والنساخين، لكن لا تكون الآخرة آخرة إلا إذا انمحت فيها كل صور الحياة الدنيا وما عمله الإنسان اكتسابا، الحياة الإنسانية تنتهي مع الحياة الفانية ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. وطال الأمد بي، أو ظننته هكذا، فلم يعد للزمان معنى، ولا للمكان صفة أو إسما، فأنا موجود وغير موجود، معلوم ومجهول، لست منهم إذ أنني لم أمت بعد، ولست من أهل الحياة الدنيا ما دمت غير عائش بينهم. صَعُب عليّ القرار ودبّ في نفسي الملل، فقلت لصاحبي النوراني: تتنازعني يا صاحبي قوتان، أنا معكم ـ هنا ـ أحس وأشعر بما انتم فيه من نعيم، وأستلذ معكم حلاوة العيش ورغد الإقامة ونحن في فلك منعّمين مطهّرين، وفي مرات أخرى يجتاحني بحر هائج من ذكريات وأحلام ماضية فأبدو كمن تتقاذفه أمواج المد والجزر، يسبح تارة، وتارة أخرى ينطح الجرف، قال: أنت هنا في منزلة بين المنزلتين، لا هي نعيم، ولا هي جحيم، هي أشبه بالمطهر، تتخلص فيه من ذنوبك وآثامك، وما اقترفته يداك، وما سمعته أذناك من بهتان وإفك فسكت عنه، وما رأته عيناك من مُنكر وظلم وسوء فأغمضتهما وغضضت الطرف، وما ساقتك إليه قدماك، اليوم تشهد عليكم ألسنتكم وآذانكم وأرجلكم وأيديكم بما كنتم تفعلون، ويلزمك انتظار الأجل المكتوب لتفوز الفوز العظيم، إن صبرت وكنت من المنتظرين، قلت: وإن أبيت؟! قال: تعود من حيث أتيت، قلت: والفوز العظيم، قال: بينك وبينه برزخ وصراط مستقيم، قلت: أراني عائدا بحكاية لم تخطر ببال أحد، ولم يرد لها ذكر عند الأقدمين والمتأخرين، ولا في ليالي شهرزاد، ألا تخش أن أحكي هذا لقومي. قال: لا تقصص رؤياك على قومك، فيكيدوا لك كيدا، وما أراهم إلا فاعلين، قلت: أو تراهم، قال: أرى وأقرأ في كتاب مسطور، قلت: هل تُريني بعضا مما ترى لعليّ أتعظ، فلا ألقى في الجُبِّ ولا أسترق ولا أسجن ولا يأكلني الذئب كذبا؟! قال: أنظر في عينيّ مغمض العينين، قلت: كيف؟ قال: افعل ما تومر ولا تكن من العاصين. وضعت عينيّ في عينيه وأنزلت جفني العلويين على السفليين كأنني أغلق بابين بالمزلاج، رأيت غماما وسماء، وأنا كالطائر محلقا فوق عمران وديار غريبة، بعضها فوق بعض، وعربات كالصناديق تجري وأسلاك وأعمدة منصوبة، نسوة تعبرن الشوارع سافرات مكسوات بألبسة غريبة تكشف المستور أو تبرز المفاتن والمباهج الأنثوية على أكمل وجه، وأخريات بجلابيب مسدلة كالأكفان،

رجال ونساء يسبحون جنبا إلى جنب في شواطئ معمورة بالبراريك والخيام، قوم عراة حفاة كما خلقتني يا ربي إلا من مخرقة تستر العورة. رأيت نهرا عظيما طولا وعرضا، تعبره المراكب والفلايك[285] محمّلة بالعشاق من الرجال والنساء وهم في أفعالهم منغمسين غير مكترثين، قال صاحبي النوراني، ما لهذا دعوتك، فلا تفرح بما ترى، أنظر الآن ولا تفتح عينيك فيذهب عنك البصر إلى يوم الدين، رأيت شيخا حكيما يسير الهوينى على حافة الطريق، مطرقا مفكرا متأملا، يُحيّيه بعض المارة، فيرد بابتسامة وانحناءة رأس ويده على قلبه عنوان محبة كأنه يقول: أنتم في قلبي، مطرق الرأس كأنه من المشائين الحكماء، بغتة ينقض عليه فتى بمدية، فيصيب رقبته. قال: الآن افتح عينيك، ما رأيت إذ رأيت، ولكن الله يرى. قلت: وهل سيموت الرجل، قال: لا أعلم، إلى هنا ينتهي ما علمني الله. قلت: ما ذنبه؟ قصّ رؤياه على قومه فكادوا له كيدا. استدركت ما فاتني عن الرجل، فسألت صديقي النوراني: وما صنعته؟ قال: ممن أدركتهم حرفة الأدب. قلت: أمهلني بعض الوقت، أتدبر أمري، وأعرف فصلي من أصلي، إن كنت مُقيما خالدا أبدا أو راحلا ظاعنا غدا، وما أراني إلا كذلك، وليفعل الله أمرا كان مكتوبا. قال : وهو كذلك، إن غدا لناظره لقريب، وقل انتظروا إنني معكم من المنتظرين وكذلك نجزي المؤمنين.

في الصباح، وجدت نفسي وحيدا في العراء وسط واحة نخيل، عليّ ملابس مما كان عندي، ولكنها جديدة قشيبة كأنها لم تلبس من قبل، وبجواري كل أمتعتي التي تخليت عنها في هجير الصحراء. فتشت بعينيّ المكان ثم اقتفيت الأثار بحثا عن دليل أو أمارة تدلني على الفردوس الذي أقمت فيه مدة، أحسبها طويلة. هل قرأ رفيقي النوراني خاطري؟ آه، نسيت أنهم يقرأون الخاطرات ويتبادلونها وتتوارد عليهم من كل حدب وصوب، لقد عرف سريرتي فأسرع بالحكم الفصل، وها أنذا مرة أخرى في بيداء مقفرة لا أثر لمخلوق أو رائحة لفاكهة أو هبوب نسمة عليلة من جنان عدن التي سكنتها زمنا، لا أعلم كم لبثت عددا، بضع سنين، أو هي ساعة أو عشية وضُحاها. عاد ما كان إلى ما كان وكأنه ما كان، لكنه يُدرك علم اليقين أنه إذا سئل عن النعيم، أن هناك جنانا وأنهارا

285- الفلايك: ج فلوكة، زورق صغير، الفُلك: السفينة (تؤنث وتذكّر).

وفاكهة وأعنابا ونخيلا وروحا وريحانا في مكان أمين لا يدخله إلا الصالحون السالكون.

منذ الوهلة الأولى أحسست بالعطش والجوع، كان بالواحة غدير ماء صاف ونخيل مثمر. فتشت جرابي فوجدت به مؤونة السفر، لعلها هدية من الرفيق النوراني، أكلت وارتويت، أهل الملكوت لا يأكلون مثلنا، وإن أكلوا لا يمضغون الطعام، ولا يتضورون جوعا ولا يسغبون. يشبعون دون أن يأكلوا، ويأكلون دون أن يجوعوا، الطعام لذة ومتعة، والشراب نشوة وفرحة، أجسام طاهرة بدون دنس. حين أكلت حتى الشبع وشربت حد الارتواء، كان أول ما حصل لي بعد خروجي أو طردي من الملكوت أني ضرطت وتبولت وتغوطت، المزايا الثلاث معا، وعدت إلى «قبيلة المُدنسين». خراء فوق خراء، الله يعاقبنا بهذا الخراء، يعاقبنا على تكبرنا وتجبرنا وغرورنا عندما فضل أبونا آدم وأمنا حواء الخروج من الجنة والنزول إلى الأرض، فحلت علينا اللعنة والعقاب، ضراط يزكم الأنوف، وبول حامض، وخراء جارٍ، فبئس الخلق وبئس الحياة.

قضيت أياما كئيبا، شارد الذهن، مبلبل الخاطر، أفكر وأعيد النظر فيما جرى مصدّقا مرة، ومكذّبا أخرى، أقيم الدليل الصحيح على ما عشت، ثم أعود وأنقضه وأرمي به إلى جوف الصحراء. تقاسمني شخصان، مؤمن وكافر، مصدق ومنكر، وتوالت عليّ الهواجس والأحلام المرعبة، تمنيت لو كان الصادق معي، فقلت: هذا لا يحدث إلا للفرد الواحد، المعجزات والخوارق لا تُشرك مع أحد. سألت نفسي إن كنت فعلا زرت الملكوت أم أنني نزلت ضيفا على قبيلة من قبائل الجن، ألم يقل لي رفيقي النوراني هناك: كلنا أحباب وأقارب، كلنا من طين. لا شيء يصعب أو يستحيل على الجان، كأن يتلبسوا الشخوص، أن يتحولوا من هيئة إلى أخرى، أن يأتوا بالخوارق، ولكن قراءة الغيب والرؤيا البعيدة في الزمان والمكان، لا يهبها الله إلا لمن اصطفاه وقربه، ولم يرد عن الأولين ولا المتأخرين قولهم إن جنيا ملك هذه المعجزة. هذا ما يقوله عقلي الأول، أما عقلي الثاني فيعود إلى الملكوت ليقول إن كل ما رأيته وسمعته ولمسته إن هو إلا ظلال الأشياء وخيالها وطيفها، صورتها في المرآة، أشباهها الخفيّة، باطنها وسرها، الماء في الكأس، ظل الماء فقط، تشربه فيرويك ويطفئ ظمأك، ولكنه لا ينزل إلى جوفك ولا يملأ معدتك ولا يصيبك بغصة.

الماء في النهر والبحيرة والغدير، ظل الماء، اسبح كما تشاء، واغتسل، وغص في الأعماق، إنما أنت تفعل كل ذلك مع الظلال والأشباه، فلن تغرق، ولا تخف أن تشرب من الماء وتشرق به. ضاجعِ الأنثى، واسعد بمفاتنها، وارحل في أنحاء جسدها شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، طف بالكثبان والتلال، وانزل المنخفضات، واستقر بالشعاب الظليلة، وتحصّل من ذلك على النشوة والانتشاء المنشود، لكنك ضاجعت ظلا وعانقت شبيها وقبّلت خيالا. ما يرى المرء إلا ظله، ولا يسمع إلا صدى صوته، والعارفون الواصلون يشيرون بالأمور المستقبلة، فتقع طبق الإشارة غالبا. قال لي رفيقي النوراني في الملكوت قبل أن أخرج منه، لن يصدق أحد إن حكيت ما رأيت وشاهدت ولو جئت بالدليل وراء الدليل، فقد اعتادوا الدعة والخمول وسطوة السلطان وبريق الذهب، حقا لن يصدقني أحد إن قلت بأنني عثرت على ناقة وسليلها[286]، كأنها توأم ناقتي التي ضاعت مني خلال الرحلة، هل هذا جزاء الصمت؟!.

286- ولد الناقة ساعة تضعه أمه (الثعباني. م س – ص 136).

أيام وأسابيع وشهور مرت، لم أُعْنِ بعَدها وحسابها بعد أن خرجت من الملكوت ونزلت منزلة الأوادم وما شابههم من البهائم، وربما كان الرفيق النوراني بارا رؤوفا ورحيما بِيَّ بعد أن قرأ خاطري وعلم ما لم أعلم، فقد كان يشير بالأمور المستقبلية، فتَأتي حسب إشارته، فأكرمني بناقة وفصيلها[287] وما أظنهما قد تاها وضاعا في هذه الصحراء المقفرة. كان كل عقلي وجناني وخاطري يعيد مرات ومرات، بدون كلل ولا ملل، ما حصل لي في الملكوت، وما حباني به الله من المتع اللدنية والروحية، فأسرفت في الغرور وتعلقت بالعاجلة الفانية، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، لقد وجدت نفسي ـ فالناقة المباركة كانت تقودني ـ على تخوم بلاد النوبة المحاذية لمصر، بركة الناقة الصالحة نجتني من أهوال الطريق. نزلت ببلدة يقال لها البُجّة[288]، وهي أول ما تدخله من البلدان إلى مصر قادما من بلاد الحبشة، غنية بالمعادن النفيسة كالتبر والزمرد، ولذلك كان أهل النوبة كثيرا ما يغيرون عليها. عندما دخلها الإسلام وسكنها جماعة من المسلمين وعرب من قبيلة بني ربيعة، قويّت بمن صاهرها من العرب، وقويت ربيعة على من ناوأها وجاورها من القبائل. حمدت الله أنني لم أدخل صحراء برقة، ولم يُطوحني الرفيق النوراني إلى تلك الصحراء القاحلة الوعرة المسالك، حدثوني عنها من قبل ونصحوني بتجنبها، لا ماء فيها ولا أرض تُزرع، أهلها يتضورون جوعا، وقد أكد لي الكثيرون ممن

287- الفصيل: ولد الناقة إذا استكمل سنة وفصل عن أمه (الثعالبي.م س–ص 136).

288- «وأما البجة فإنما نزلت بين بحر القلزم (البحر الأحمر) ونيل مصر» (المسعودي – مروج الذهب، ج 1 ص 438، ط 1/1965– دار الأندلس، بيروت).

التقيتهم خلال ترحالي وقبل ذلك ممن استشرتهم واستعلمتهم بفاس وسجلماسة وتنبكتو، أن أعمل جهدي بألا أدخل برقة، فأهلها من الأعراب يُنكلون بالحجاج ويسرقونهم[289]، يقدمون أولادهم رَهْنا مقابل القمح الذي يشترونه من الصقليين الطليان. لم أمكث بالبجة إلا أياما قليلة، استرحت من عناء الطريق ومشقة السفر ثم خرجت قاصدا "أسوان"، وهي مدينة آهلة بالسكان، غنية بأراضيها المزروعة وتجارتها مع بلاد النوبة. يشاهد الزائر إليها عدة بنايات وأماكن لقدماء المصريين وآل فرعون المذكورين في القرآن الكريم، رأيت فيها من العجائب ما تحار فيه الأذهان وتذهل العقول. وقد صادف دخولي إليها زمنا عصيبا، إذ كان ذلك في اليوم الخامس عشر من ذي القعدة الحرام لتسع وتسعين ومائتين وألف هجرية[290]، والأمة الإسلامية على أبواب القرن الثالث عشر، وقد كثر في هذا الوقت الكلام عن دنو الساعة وفناء العالم وخروج المسيح الدجال ودابته التي تغوي الناس وتضلهم عن الصراط المستقيم، وقد رأيت دجالين ومشعوذين يجمعون الناس بالطبول والمزامير فيتحلقون حولهم ليسمعوا من النذر والمواعظ وأخبار الشؤم والموت والحساب وعذاب القبر ونار جنهم ما تقشعر له الأبدان وترعب النفوس، فيتخلون للواعظ الدجال عن كل ما يملكون سواء كان قليلا أم كثيرا، راضين بالدعوات والبركات والأحجبة التي يوزعها عليهم، وما هو إلا من أهل النصب والاحتيال والدجل والمروق عن الدين. لكن حقيقة الأمر أن مصر دخلت تحت إمرة النجليز[291] بعد أن خرج منها الفرنسيس وقُضي على أحمد عرابي[292] الذي شق عصا الطاعة على الخديوي حاكم مصر، فقُتل من أصحابه الكثير وحُبس البعض ونُفي آخرون، ومنهم الشاعر الفحل محمود

289- «هم أكبر لصوص الدنيا وأكثر خديعة ومكرا، يجردون الحجاج المساكين وأبناء السبيل من ثيابهم، بل ويسقونهم لبنا ساخنا ثم يحركونهم ويقذفون بهم في الهواء، إلى أن يأخذ هؤلاء الأشقياء في التقيؤ حتى تكاد تخرج أحشاؤهم، فيبحث الأعراب عما قد يكون في القيء من نقود، لأنّ هؤلاء البهائم المتوحشة يتهمون المسافرين ببلع نقودهم عندما يقتربون من هذه الصحراء حتى لا يعثر عليها معهم» (الوزان – م س – ج2 / ص112)

290- الموافق 1882 ميلادية.

291- سنة 1882 ميلادية.

292- الثورة العُرابية (9 يوليوز 1881).

سامي البارودي[293] صاحب القلم والسيف، وقد قرأت له وحفظت أيضا بعض قصائده مما سنحت لي ظروف الوقت بالاطلاع عليه.

تذكير وعظة من آل فرعون ذي الأوتاد..

في إقليم أسوان رأيت بالعيان ما انتهى إليه أمر فرعون وآله وأمثاله من الأقوام التي أفسدت في البلاد كعاد وثمود والمؤتفكة وقوم لوط والمغرّقين بالطوفان وسد مأرب. رأيت بنايات قدماء المصريين وبعض أبراجهم الشاهقة بالمكان الذي يسميه العرب جزيرة «البربا[294]» والتي اندثرت وانمحت بعد ما وقع من حكامها وأهلها من الفسوق والفجور واضطهاد موسى وآله من أهل الكتاب، فحق عليهم العذاب، إن ربك لبالمرصاد، وما كان ذلك ليمنع قوما من الأجناس وبعض الأهالي المصريين من البحث والتنقيب عن الكنوز والمآثر وما تبقى من ديار الفراعنة. وقد ساقني الفضول وحب الاستطلاع وطلب العلم إلى الاحتكاك ببعض الأفندية المتعلمين، فوجدت منهم عددا ممن كانوا طلاب علم بالأزهر الشريف، وآخرين تعلموا لغة الفرنجة فصاروا تراجمة. استلطفوني وعاملوني بكرم واحترام، ورووا لي بعضا مما حكاه أجدادهم عن المغاربة الحجاج الذين كانوا يمرون من هنا إلى مكة والمدينة، بل دلّوني على مقابر قيل إنها لمغاربة، وقد كانوا يقدرون أهل المغرب ويصفونهم بالمشايخ الكبار لقدرتهم الهائلة على السحر والكشف عن الخبيئة مهما كانت قوة الطلسم واستعصاؤه. أروني قبور بعض المغاربة عليها شواهد كبيرة وحوش من الأحجار دليل الاحترام والوقار والتبرك بهم. وإذا كانوا يختبرونني إن كنت منهم، فقد ضلوا السبيل، فما نطقت بكلمة ولا أظهرت للأمر ابتهاجا. طافوا بي المعابد والأبراج[295] والقبور الملكية

293- وُلد وتوفي بالقاهرة (1904 -1838) تيتم صغيرا وهو في السابعة من عمره، التحق بالجيش بعد تخرجه ضابطا من المدرسة الحربية. كان مولعا بالشعر والأدب. شارك في الثورة العُرابية فقبض عليه وسُجن وحُكم عليه بالإعدام ثم استبدل بالنفي إلى جزيرة سرنديب (سيريلنكا حاليا)، له ديوان مطبوع.

294- معابد جزيرة فيلا.

295- المسلات الفرعونية المشهورة.

الفرعونية، فرأيت على أحجارها كتابة وخطوطا، قالوا لي إنها لغة المصريين القدماء التي اندثرت ولم يعد أحد يتكلمها أو يكتب بها، وأن مصر أم الدنيا. حكى لي أحد ممن عرفتهم من الأفندية أن أهل الواحات بصحراء سيوة ينتسبون إلى أهل المغرب، وأن الإله آمون الفرعوني الذي عبده قدماء المصريين كإله واحد هو إله الشمس الغاربة[296]. وبأرض الواحات[297] باب يقال له "باب الأربعين" يوصل إلى السودان وبلاد المغرب، وأشهر عوائدهم في الأعراس والأفراح دق الكف والرقص، كما لهم موسم للبحر والتمور إذا جاء الحصاد بغلّة وفيرة، فكأنني لم أبرح بلاد المغرب ولا خرجت من دياري طول هذه السنين، أخذت من العمر القصير ولم يبْق إلا النزر المرير، فعسى الله أن يعوضنا عما فات وأن يجعل لنا البركة فيما هو آت، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فقد شاهدت من عجائب الفراعنة وكنوزهم وتصاويرهم ونقوشهم وتحنيط موتاهم من التحلل ما يُدهش ولا يُصدق إلا بالرؤية والتحقق بالعيان، وليس من سمع كمن رأى. وهذا دليل رُقيهم في تلك الأزمنة الغابرة في فنون الطب والتداوي وحفظ الأبدان، ولكنهم اغتروا وتجبّروا وكفروا وجحدوا نِعم الله عليهم، فأهلكهم الله ومن معهم، وأبادهم ليأتي بقوم أحسن منهم، من أهلِ التوحيد والتكبير، وتلك الأيام نداولها بين الناس. وقيل بأن أهراما أكبر وأعظم بمنطقة القاهرة المُعزية، لكنني لن أتمكن من رؤيتها، فقد انتويت الخروج إلى الحجاز بحرا.

296- «كل شيء فيها كالأساطير، المكان والناس والتاريخ والجغرافيا، هي كما قرأت جزءٌ قديم من البحر، ومازالت هناك حتى الآن في رمالها وتلالها أصداف البحر وقواقعه. سكانها ينتمون للغرب لا للشرق، إلى قبيلة زناتة من قبائل البربر في المغرب ويتكلمون لهجة من لغة البربر...»

(بهاء طاهر: واحة الغروب – رواية – ص58 – ط 2 / 2007 – دار الشروق – مصر).

297- «تطلق الواحات مبدئا على سلسلة الواحات المتباعدة في منخفض صحراء ليبيا، أقصاها شمالا واحة سيوة. لكن هذا الاسم أطلق بصفة خاصة على الواحتين الموغلتين في الجنوب، الداخلة (بالنسبة لصحراء ليبيا) والخارجة في الجنوب الشرقي لأنها اقرب إلى النيل. وكانت هذه الواحة (الخارجة) المقر المفترض للموتى عند المصريين القدماء: «توا» وتوجد نفس الكلمة في البربرية القديمة كما يدل على ذلك تصغيرها «توات» في الصحراء. واحة الخارجة هي الباب الحقيقي المؤدي إلى مصر من السودان الغربي منذ قديم الزمان... وابن حوقل أول مؤلف عربي معروف تكلم عن تجارتها قبل القرن التاسع الميلادي مع غانة والمغرب».

(الوزان. م س. ج2 / ص 156 – هامش رقم 88).

رجع لما كنا فيه..

لما علم أصحابي الأفندية المصريون مرادي من الخروج نحو مكة والمدينة، ورحلتي في الصحراء وما لقيته من عناء ونصب، وكنت قد حكيت لهم أطرافا من ذلك، كَبُرتُ في أعينهم وعَظُمَ شأني بينهم، فكالوا لي المدح والتقدير، ونظروا إلي بعين الاحترام والتقدير والتوقير، وأصروا أن يكافؤوني بزيارة مدينة المنشية موطن قبيلة هوارة البربرية، ولم أكن قد سمعت من قبل بهذا ولا علمته، فأثاروا فضولي وحركوا سواكن المغرب في نفسي، فوافقتهم الرأي، وهكذا خرجنا من أسوان في قافلة صغيرة نحاذي النيل ونسير على شطه بين واحات النخيل وتدفق المياه وتغريد الطيور وكأننا في نزهة سلطانية خرجت للصيد، فلا رمال ولا غبار ولا عواصف. مررنا بعدة قرى، أذكر منها «إسنا» التي سماها العرب بعد فتحها «سيانة» أي الجميلة، وهي حقا في غاية الحسن، بها بنايات وأضرحة عجيبة[298] وشواهد قبور عليها نقوش مصرية ولاتينية. ثم عرجنا على طريق مدينة "القنة" قاصدين "الخيام"، وهي مدينة صغيرة أغلب سكانها من النصارى، وبها أديرة تقدم الطعام للغرباء. وبعدها خرجنا في طريقنا إلى "المنشية" مرورا بقرية "جرجا" التي أهلكها الخراب بعد تفشي الطاعون، فحوّل ديرها وبساتينها ومروجها إلى أطلال ورسوم، ومنها دخلنا "المنشية" الغنية بالقمح والماشية، سكانها فلاحون بسطاء وفقراء. وقد حدثني أصحابي الأفندية أن المدينة وإقليمها كانا إقطاعا لأمير إفريقي بربري يسمى "هوارة"، ورث الإمارة عن أجداده أمراء هوارة الذين أتوا لنجدة جوهر الصقلي مؤسس القاهرة[299]. بعد ثلاثة أيام انقسمت جماعتنا إلى طائفتين، إحداهما تابعت الرحلة والمسير نحو القاهرة وجامعها الأزهر الشريف، وقد ألحوا عليّ كثيرا أن أسير في صحبتهم لأنهل من ينابيع العلم والشرع على يد شيوخ أجلاء جهابذة، لكنني استأذنتهم معتذرا بلطف وكياسة أن يعفوني من ذلك، حيث رحلت مع الطائفة الثانية العائدة إلى "أسوان" لأحط رحلي بمدينة "القنة" ومنها إلى الحجاز. وكذلك كان الأمر وتم بحول الله وقوته، فله الحمد والشكر. كانت

298- مقابر فرعونية.

299- يطابق هذا الحديث ما رواه الحسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا»(م س –ص 238ج2).

"القنة" أو "قِنَا" كما ينطقها أهلها، مدينة عتيقة مشيدة على وادي النيل العظيم، محصّنة ومسوَّرة، سكانها كباقي أهل الجنوب، فلاحون بسطاء فقراء، زراعتها الحبوب، وهي طريق الراغبين في الذهاب إلى مكة عن طريق وادي النيل. تبعد بنحو عشرين ومائة ميل عن البحر الأحمر، ولا وجود للماء في هذا الفلاة حتى الساحل حيث المرسى المسمى "القصير" أو "القصر الصغير" يقصدها أكثر المسلمين الذين يأتون من المغرب بقصد الحج إلى مكة والمدينة.

رحلت عن مصر، وفي نفسي شيء منها، فلم أزر قاهرتها المعزّية الفاطمية ولا جامعها الأزهر الشريف ولا قلاعها المملوكية ولا ما تناهى إلى سمعي من مآثر قديمة ومظاهر حضارية حديثة بعد غزو إمبراطور الفرنسيس بونابرت وما تلاه من أعمال الإصلاح والترقي التي باشرها الخديوي محمد علي الكبير، ولكن القلب يهجس لي بأنني لابد عائد إليها ثانية.

دخلت أرض الحجاز في اليوم الخامس من صفر الخير لاثنين وثلاثمائة وألف[300] حين رست بنا العَبَّارة المصرية بمرسى الينبع، وقد كانت محمّلة بقدر كبير من قمح "القنة" إلى مدينة مكة، وأعداد كثيرة من الخلق، ولولا الألطاف الإلهية - وأكثر الرُّكاب من الميمنين أوجههم للحج - لكانت العبّارة نعشا والبحر قبرا، فالله الحمد والشكر، فقد ابتلانا بمشقة السفر بحرا لنستحضر آياته ونعمه علينا، فنكثر من العبادة والدعاء، فلا تدري نفس بأي أرض تموت؟ وقد حكى لي بعض النوتية[301] عن العبّارات التي كانت تغرق بسبب كثرة الخلق أو قدم المركب والسوس[302] الناخر فيها، أمن أجل هذا كتبت الشهادة للغريق[303]؟

نزلنا أرض الحجاز، فأشرقت شمس الإسلام في نفسي، كأنني ولدت من جديد، وسكنت عقلي وخيالي صور وأطياف الفاتحين الأولين وهم يسكنون هذه الصحراء داعين للواحد الأحد، مكبّرين في الفلوات، لا تثنيهم عن ذكر الله والدعوة إلى الدين القيّم فتنة الدنيا ولا صهد الحر وندرة الماء وقسوة الكفار، ما أبعد الأمس عن اليوم، وما أكثر ما تغيّرت الأحوال والأزمان والأقوام، ويبقى وجه ربك ذو العزة والإكرام.

300- الموافق للسنة الميلادية 1885.

301- النوتي: الملاح، البحّار.

302- السوس: العثّ وهو دود يقع في الصوف والخشب والثياب.

303- الملاحظ أن العبدي لم يدوّن رحلته البحرية من مصر إلى شبه الجزيرة العربية، وربما ضاعت الأوراق التي خصصها لها...

كل أمر في هذه الأرض المباركة ميسر بفضل الله، فقد وجدت المأوى والمأكل والمشرب، لكنني كنت جادا ومسرعا في الوصول إلى أم القرى ومهد النبوة ومهبط الوحي. بعد يومين، استرحت فيهما وتدبرت أمري وجهزت نفسي وروحي للسفر المقدس، خرجت مع جماعة المسلمين القاصدين مكة[304]، فإلى أم القرى والبيت الحرام تُشد الرواحل. لم أكن أملك من المال إلا القليل، ومن اللباس ما يفي بالمطلوب، ومن المؤونة ما يسد الجوع، لكن ربك كريم، فقد وجدت جماعة من أهل المغرب وتلمسان والقيروان، فلم أعدم صحبة ولا عونا. وصلنا سالمين مكة المكرمة التي دخلناها مع ميقات غروب اليوم الثاني عشر من صفر الخير. نمت ليلتين في فناء المسجد الحرام، ثم أكرمني الله ببيت صغير يقع على جنبات الطريق المؤدية إلى جبل حراء وهو في الشمال من مكة على نحو ثلاثة أميال[305]، مشرف على منى، فيه هبط الوحي، فاهتز تحت رسول الله (ص) فخاطبه الرسول بقوله: "اثبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد"[306]، كنت كلما سرت فيه ذاهبا إلى مكة أو عائدا إلى البيت، أتذكر الرسول (ص) وهو يعبر هذا الطريق متأملا حوله في الجبال المنصوبة والأرض المسطحة وقطعان الإبل المنتشرة، وقبة السماء المرفوعة فوق الرؤوس، فينزل إليه جبريل بآي الذكر الحكيم مفسرا وشارحا ومطمئنا وداعيا الخلق إلى عبادة الله الواحد الأحد. لم أشعر يوما في هذا الطريق بوحشة أو مشقة، وقد كانت الغادة الفاتنة الساحرة الغامضة كثيرا ما تكون رفيقتي ومعلمتي فيما استغلق عليّ من المعارف والعلوم والفهوم. أكثرت من الزيارات، فتتابعت الإشارات، الواضحات منها والمبهمات، فبدت لي نفسي ضائعة وحيدة في هذا التيه الصحراوي، كنت أسألها مرارا، كيف خرجت من هذا المكان أمة الإسلام فحكمت العالم ودان لها القاصي والداني، ونشرت دين الإسلام، ثم دالت دولتها وأفل نجمها وغاض

304- «الحجيج إلى مكة» «(Pèlerins allant à la Mecque)» للفنان الفرنسي الاستشراقي ليون بيلي (1827-1877) Léon Belly المعروضة بمتحف d'Orsay بباريس والمؤرخة بتاريخ 1861 القريب من سنة دخول العبدي إلى الحجاز 1885، تقدم مشهد قافلة حجاج أنهكهم التعب والحر، حيث يبدو دليل القافلة عاري الصدر وحوله حراسه وأعوانه وقد تدلت بنادقهم وأرخوا رؤوسهم، وكذلك باقي المسافرين. Les Orientalistes. Op. Cite. P96-97

305- خمسة كيلومترات تقريبا.

306- صحيح البخاري (عن أنس بن مالك) رقم الحديث (3686).

ماؤها وخبا سناؤها إلا من لُمع تضيء ثم تختفي. أجهدت النفس في الصلاة والعبادة والاعتكاف والاعتزال عن الخلق، فلا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوُسْع، فاخترت الغربة والانكفاء على النفس، ورضيت بالأقل القليل، وروّضت البدن على حياة التقشف آملا في العودة إلى الفطرة الأولى وحياة السلف الصالح ليستقيم الفكر وترسخ العقيدة ويشتد الوجد وتزول العوائق وينحل البدن وتنمحي الحدود فيتجلى النور ويظهر الحق للوِلِه المتعبد. الشوق شرط الكشف، على قول أهل التصوف، وقد كان شوقي جائحا حارقا خارقا، اختزنته منذ سنين طوال، وهو الذي أخرجني من أسفي إلى فاس، ومنها إلى الصحاري والفيافي، لم يَخْب ولم تنطفئ جذوته ولا تناقص ألقه وبريقه، ما زاد إلا سطوعا وطلوعا. وددت لو سكنت جبلا من جبال مكة أو غارا من غيرانها المباركة، وقد طُفت بها وأقمت في بعضها مددا متفاوتة، فوالله ما رأيت مكانا أعظم ولا أجلّ ولا أقرب إلى الله من تلك الأمكنة المقدسة الطاهرة. أخذ بقلبي "جبل الطير" المقترن بسؤال إبراهيم عليه السلام عندما طلب من ربه أن يُريه كيف يحي الموتى وهي رميم[307]، و"جبل ثور" الحاضن للغار الذي آوى رسول الله (ص) وأبا بكر الصديق في طريقهما إلى المدينة المنورة، ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا[308]. أماكن لا تسأم العين من النظر إليها، ولا القلب من أن يخفق لها، ولا الروح من أن تطوف حولها ولا النفس من أن تهجس بها. أكثر لباس أهل مكة البياض فثيابهم ناصعة ساطعة، يتطيبون ويكتحلون ويكثرون السواك بعود الأرك. يتصدقون مما عندهم ولو كان قليلا، ويطعمون الضعفاء والفقراء والغرباء. بلد أمين وأناس أمناء، إذا ضاع من أحد شيء، رُدّت اللقية إلى صاحبها. نساء مكة جميلات فاتنات صالحات عفيفات، يُكثرن التطيب ويأتين الحرم في أحسن زيّ يسبقهن العطر الذكي، ويبقى ريح الطيب بعد رحيلهن عَبِقا.

307- «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن، قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، قال: فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم» (سورة البقرة، الآية 260).

308- سورة التوبة الآية 40.

شهور بنهاراتها ولياليها قضيتها تائها شاردا في هذا الكون العجيب الذي تختزنه مكة وجبالها وصحاريها، كنت أسترجع الماضي البعيد وأتخيل نفسي مع الفرقة الناجية من الأولين، حتى ظننت يوما أنني لقيت ما رحلت من أجله، إلى أن وقفت عليّ وأنا بين اليقظة والمنام، الغادة الفاتنة الغامضة وهي تأخذ بيدي في بيداء فسيحة، تقلب الحجر لترى ما تحته، أو تحفر الرمل لتنظر فيه، أو تدخل غارا ثم تخرج منه، وأنا ممسك بتلابيبها، أبكم أصم. أفقت على صوت الأذان، هل كنت نائما أم يقظانا؟ العرق يتصبب من جسدي، ونسائم الفجر تنفذ باردة فتحدث قشعريرة لا انتعاشا. حكيت المنامة على ابن سيرين[309] القابع في ركن من دماغي، لم يُشفِ غليلي. قمت فتوضأت، وكنت تلك الليلة ضيفا على أحد المجاورين[310] قريباً من المسجد الحرام. صلّيت ذاك الصبح كما لم أصلّ من قبل، هكذا شعرت وأنا أرى نفسي أسجد فوق السماء السابعة وسط الأنوار والبروج والنجم الثاقب. عندما سلمت وحمدت الله، ترآت ليّ الرؤيا تدعوني إلى البحث والتنقيب، فما حصِلت عليه حتى هذه الساعة لا يعدو أن يكون سرابا وعدما، إبحث وفتش، ارفع الحجب، لا تيأس ولا تقنط من رحمة الله، لم تَصِل بعد. أفقت من نومي وغفلتي واستسلامي للأوهام، لم أعثر بعد على الحقيقة، هكذا تقول الرؤيا. خرجت من المسجد تائها حائرا شاردا، إن لم تكن الحقيقة في هذا المكان، فأين تكون؟ وكيف لي أن أجدها؟ وما السبيل إلى ذلك؟ مع الشروق بدأت تجوالي مطوّفا على بيوت المجاورين ومآويهم، وكان أقربهم لي مكانا إمام عالم صالح وعابد صوفي من اليمن السعيد وهو على مذهب الشافعية، يُعرف بالشيخ اليماني، لا يستقر له قرار، كأن الأرض تخزه أو تلفظه، يطوف آناء الليل وأطراف النهار، أحيانا يغلبه النوم فينام حيثما كان، وسادته من حجر والأرض سريره. سألت عنه بعض من يعرفه، فأشاروا عليّ بأنه شوهد بالمسجد الحرام يصلي الصبح، ثم غاب عن الأنظار كأنه حصوة ملح

309- الإمام أبو بكر محمد بن سيرين البصري صاحب كتاب «تفسير الأحلام الكبير».

310- المجاورين: يشمل هذا اللفظ فئة من العباد والصالحين والصوفيين والفقهاء والأئمة والدراويش والطلبة الذين ينقطعون للعلم والوعظ والصلاح بأماكن أو خلوات أو أضرحة أو بيوتات مجاورة لأمكنة مقدسة كالمسجد الحرام أو المسجد النبوي أو جامع القرويين أو تابعين لزوايا الشرفاء.

ذابت في الماء. خرجت أبحث عنه في البرية حتى وجدته قريبا من جبل حراء. جلست أمامه، وكان شارد البال، لكنه تبسم عندما نزلت عيناه في عيني كصقر حط من عل، قال هامسا: جاء بك الشوق وقادتك النجوم، قلت: بلى يا شيخنا، ومن أنبأك؟ قال: مكتوب في العيون ما قُدر لأبناء آدم وحواء، قلت: جئتك يا شيخنا بسؤال أهل المغرب، قال: ولِم لا تقول وأهل المشرق؟! قلت: يسألونك عن الشمس متى تشرق ثانية؟ قال: لقد غابت في بحرهم، فأظلم الكون حولهم، وماذا يقولون أيضا؟ قلت: يقولون إنها لا شك ستعود لتشرق من جديد كما أشرقت أول مرة. قال: وهل يعود آدم وحواء إلى الجنة بعد أن ابتلاهما الله بكل صروف العناء والكد والكدح، قلت: أنا جئت من المغرب لأرى الشروق من جديد. قال وهو يتربع في جلسته على الأرض: أنا هنا بالجبل قرب غار حراء، مهبط الوحي، أستدعي الرؤيا وأستجلب بركة السماء علّ الله يجود بالكلمة الفصل ويفك الأسر، مثلك تماما، لكن طريقي غير طريقك، وإن تقاطعا أحيانا، أنا هنا قرب النبع، أحيا وأموت لأعرف السر ولينكشف لي المستور. أما أنت فجوّاب آفاق تسعى وراء العطر الفوّاح، تريد أن تعيده إلى القارورة، وأنا هنا أحمل القارورة وأطلب من العطر أن ينفذ إليها. أعطاني حفنة تمر وزمزمية ماء وقال لي: توكل على الله، فالطريق لازال طويلا وشاقا.

تركته مكدر الخاطر، مشتت الفكر، مضطرب البال، حائرا تائها، أفي هذه البقعة الطاهرة، وبعد كل الذي طويته من مسافات وصحاري يباب وتلال رمل ترحل كل حين كأهلها، فلا يخلفون وراءهم إلا السراب والظن، وما أوتيت من العلم إلا قليلا؟!.. كنت أعتقد أنني وصلت إلى واحة الحق وأنني سأقتل الشك باليقين فأعتلي شجرة الحكمة وأشرب من النبع الصافي، فأنقلب إلى أهلي راضيا مرضيا، أعلمهم تأويل الأحاديث وأقرأ عليهم تاريخ الأمصار والأمم وأسقيهم ترياق الحياة، فيقوى عودهم ويشتد، ويستعيدون صفاء الود وشديد البأس، فيغلِبون ولا يُغلَبون، يردون الصاع صاعين ويسترجعون ما ضاع بسبب لهوهم وانشغالهم بدنياهم عن دينهم. كأن غشاوة عن عينيّ قد انقشعت بفعل كلام الشيخ الجليل البركة، إذ اتسعت عيناي سعة البحر الكبير بآسفي، واستطالت أذناي، فرأيت ما لم أر من قبل، وسمعت الهمس الذي تخفيه الصدور. لم

يكن حال أهل المشرق أحسن من حالنا في المغرب، ولم يكونوا في مأمن مما أصابنا، أترانا توائم أشقاء أشقياء. عندما أحسنت الإنصات وتقصي الأخبار واقتفاء آثارها، أخذت تصلني من كل حدب وصوب، فالناس هنا كتومون يخشون شبهة الغريب. كانت الجزيرةِ من مكة إلى أقصاها على محدة فارس عرضة للنهب والسلب من طرف النكليز الذين استفردوا بهذه المنطقة وببلاد مصر، تاركين للدولة الفرنساوية أرض الجزائر وتونس، ولجنس الصبنيول سبتة وتطاون، وما خفي أعظم، فلن يقر لهم قرار حتى يحطوا عسكرهم وجندهم ببلاد المغرب بعد أن احتلوا أطرافا وثغورا وخالطوا الحكام وأعيان الوقت والرعية ونشروا بدعهم وفكرهم، فاستمالوا صغار العقول وضعاف القلوب المحميين بأجناس الكفرة. ما خـرجت هـاربا منه، وما جئت باحثا عنه، وجدته ماثلا أمامي، فدار الـحـرب حاصرت العرب من السد الشرقي إلى السد الغربي، بعد أن تنازلوا للنجليز صاغرين عن غنائم وأسلاب دون أن يشنوا حربا[311]، وما سيأتي من الأيام المُقبلات أعظم وأشد ويلا وثبورا[312].

311- «سيقوم سلطان بن صقر بتسليم الجنرال (السير ويليام جرانت كير) الأبراج والبنادق والسفن الموجودة في الشارقة وعُجمان وأم القوين وتوابعهم، وسيترك الجنيرال القوارب الخاصة بصيد السمك، أما بقية السفن فتكون في حوزة الجنيرال» (المادة الأولى من المعاهدة التمهيدية المبرمة مع السلطان بن صقر برأس الخيمة 20 ربيع الأول 1235 الموافق 6 يناير 1820) (عالم الفكر ع 3 / ص45 - 2008).

312- «أنا الموقع على هذا، زايد بن خليفة شيخ أبو ظبي في حضرة اللفتانت كولونيل أ.س تالبوت المقيم السياسي في الخليج، أعتمد وأوافق باسمي واسم ورثتي ومن يخلفني، على ما يلي:
أولا: ألا أوقع أية اتفاقية أو أدخل في أية علاقات مع أية دولة باستثناء بريطانيا العظمى.
ثانيا: ألا أسمح بإقامة أي ممثل لأية حكومة أخرى في أرضي دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية.
ثالثا: ألا أوجر أو أبيع أو أرهن أو أتنازل أو أسمح بأية صورة أخرى من الصور باحتلال أي جزء من.أرضي لدولة غير بريطانيا العظمى.
تم هذا الاتفاق وجرى توقيعه في «أبو ظبي» يوم 6 مارس 1892 الموافق 5 شعبان 1309 هجرية. (وقد تم التوقيع على هذه الاتفاقية أيضا من قبل شيوخ كل من دبي وعُجمان والشارقة بتاريخ 7 مارس 1892، ورأس الخيمة وأم القوين بتاريخ 8 مارس 1892) (مجلة عالم الفكر، م س، ص 46).

هربت مذعورا مما روي لي عن حال أهل الكرم والبأس والحميّة، الأشاوس الشجعان، لائذا بالشيخ الصالح العابد السابح[313] الجليل البركة نجم الدين الأصبهاني المعروف بزهده وورعه، وكذلك بوساوسه وتوهماته، إذ يقوم للوضوء فيغسل ويكرر، رأيته يوما يمسح على رأسه و يعيد المسح عدة مرات، ولما لم يقنعه ذلك، غطس رأسه في البِركة، كثير الأذكار والاعتمار، يعتمر في شهر رمضان الأبرك مرتين في اليوم تيمنا بحديث رسول الله (ص) "عمرة في رمضان تعدل حجة معي"[314]. قصدته بين صلاتي المغرب والعشاء، لكنني لم أعثر له على أثر. أصبح همي لأكثر من أسبوع حتى وجدته يطوف ليلا، فأمسكت بتلابيبه. رفع صوته بالدعاء والتلبية ثم خرج إلى الطريق وسار خارج مكة حتى وصل جبل "ثبير" وفيه الغار الذي آوى رسول الله (ص) وأبا بكر الصديق، فقعد أمام بابه لما في دخوله من مشقة وعنت[315]، كان معروفا بين المجاورين ب "الصامت"، فخفت من صمته الذي لا يخرجه منه صوت الرعد ولا قعقعة السلاح، فاجأني بابتسامته الرحبة ثم بتربيته على كتفي عندما قبلت رأسه، جلست أمامه، وقد كانت بيننا صحبة واستلطاف منذ قدمت إلى مكة، قال لي: انتظرتك منذ قدومك أن تأتيني إلى هنا، ففي ملامحك شرود، وفي عينيك سفر طويل لا يعلم إلا الله متى تحط الرحال، ثم زاد قائلا بعد لحظة شرود قصيرة: جئتني سائلا حائرا أيها القادم من مغارب الأرض، ما رأيت مغربيا إلا وِهو يحمل قبة السماء على رأسه. قلت: ما القصد يا مولانا الشيخ الجليل، قال: "أَدْرِك الإشارة المدفونة في العبارة، والإيحاء الذي في الإيماء"[316] قلت: وكيف لي ذَلك يا مولاي، قال: "أما الإشارة المدفونة بالعبارة، فهي التي تجافت العبارة عنها لأنها استصحبت تركيب الحروف، ولطفت الإشارة عنها لأنها تنزهت عما يتحكم في الأسماء والأفعال والظروف، وأما الإيحاء الذي في الإيماء، فسرٌّ حَرْم إعلانه في الثاني

313- الكثير التسبيح.

314- صحيح البخاري الحديث رقم 1782.

315- فلا يدخل المرء «إلا مستلقيا على ظهره، حتى إذا وصل رأسه إلى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا، فكان ظهره إلى الحجر المعترض وأوسطه في الشق ورجلاه خارج الغار، ثم يقوم قائما بداخل الغار» (ابن بطوطة: م س، ص 135).

316 - أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ص 96 ط 1 / 1891

لما وجب كتمانه في الأول[317]" قلت مجيبا أو متسائلا ومستذكرا قولا لابن عربي "إذا اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة"، قال شبه هامس: "توفقت وأحسنت الاستشهاد"، مقصودك، والمقصود هو الله، ليس هنا، هذا المكان خلوة ومعبد ومحج وقبلة ومهبط وحي، ما تبحث عنه رحل مع المهاجِرين الأولين وسكن المدينة. أيها الغريب، يا جوّاب الآفاق، لِيس كل من رقد حَلَم بما يُريد، ولا كل من مدّ يده نال ما طلب، ولا كل من دعا أُجيب، ولا كل من قرع الباب دخل، في الغيب عجائب، وفي العجائب أيضا عجائب، فلا العلم باختلاف الأحوال نافع، ولا الجهل به ضار، بل ربما ضرّ العلم، وربما نفع الجهل. والله ما أخذت منه حقا ولا باطلا، فأنكرت قوله، بيني وبين نفسي، قلت، لا يعقل هذا ولا يجوز تصديقه، لذلك صام عن الكلام فسموه "الصامت"، وعندما تكلم، نطق كفرا، وكأنه سمعني، وكأني به يسبر أغواري ويكشف أسراري، إذ انطلق قائلا: "لم أندم على الصمت، ولكن ندمي المرير على الحياة التي ضيعتها في الكلام، ثم أنشد:

مُتْ فَداءُ الصمتِ خيرٌ　　　لـك من هـذا الكلام

ثم خاطبني والعين في العين: "إذا أردت أن لا تفقدني، فلا تبح لي بسرك".
أظلمت الأكوان أمام ناظري وارتجت الأرض تحت قدمي، كيف أصبح هذا المكان أرضا بلقعا بعد أن كان منارة وصومعة للتائهين والحيارى والسالكين الباحثين عن نور يهديهم في ظلمات الجهل والحيرة.

قصدت كل المجاورين، وجالست أكثرهم، وألححت عليهم جميعا في السؤال والطلب، فما أطفأوا غُلّتي ولا سَكّنوا[318] حيرتي ولا اطمأن قلبي لما يقولون. ربما كان «الصامت» أنطقهم وأفصحهم وأجرأهم في القول، قد يكون من أهل الرؤيا الذين إذا رأوا أمرا وقع حسب ما يقولون، ولكن من يقرأ الرؤيا ويُؤول الحلم؟! لم يبق لي خيار إلا الهجرة إلى المدينة مقتفيا آثار الأولين وسائرا على نهج الذين سبقوا. دخلت المدينة المنورة في العاشر من رجب الخير لسنة

317- أبو حيان التوحيدي: م س، ص 96 ط 1 / 1891

318- تسكّن: اطمأن (من السكينة).

خمس وثلاثمائة وألف[319]، آه ! كم هي بعيدة في الزمن عن هجرة الرسول (ص) وصاحبه الصديق رضي الله عنه، ولكنني أحسها كأنها وقعت بالأمس القريب أو هذا اليوم وربما الآن. دخلتها هاربا من شكوكي وما تهجس به النفس اللوّامة الأمّارة بالسوء، فهل سأعثر على النفس المطمئنة الراضية المَرضية في المدينة التي آوت خير البريّة وخاتم الرسل والأنبياء. وكان أول ما قصدت بالمدينة الحرم الشريف، فصليت بالروضة الكريمة بين قبر النبي والمنبر، وسلّمت على قبر سيد الأولين والآخرين وكذا على صاحبيه أبي بكر الصديق وعمر الفاروق ثم ختمت بصلاة الحمد والشكر لله على ما أحاطني به من أمان وسلام وعافية حتى وصلت إلى هذا المقام المبارك. وكانت صلاة المغرب على وشك الدخول، فاقتعدت ركنا وأخذت في تأمل أحوالي وأسفاري وما ينتظرني في المقبل من الأيام حتى سمعت الأذان يصدح فوق قبة المسجد النبوي، فقمت لأصلي ركعتين، بعدهما صلينا المغرب، وكأنني أصلي مع رسول الله وصحابته وأتباعه من المهاجرين والأنصار. من ألطاف الله التي ترعاني أن يسر لي أمري منذ اليوم الأول من قدومي إلى المدينة، فقد التقيت عند الخروج من المسجد بعد صلاة العشاء، وأنا بالباب، منشغلا بانتعال مركوبي، ببلغة مغربية فاسيّة صفراء تسقط بجوار قدميّ، رفعت رأسي نحو صاحبها، نظرت في عينيه، فرماني بنظرة حنون وهو يقول: مغربي؟! قلت: نعم، قال: لم أرَك من قبل بالمسجد، قلت: اليوم وصلت، صلاة المغرب أول ما صليت بالمدينة المنورة، قال: وأين تسكن؟ قلت: لم أبحث بعد عن مكان، أظن أنني سأنام بالمسجد أو عند أحد المجاورين إن وجدت عنده مكانا، قال بطيبة نفس وأريحية، حاشا لله أن يكون هذا وأنا بالمدينة، أنت ضيفي حتى نتدبر أمرك. كان اسمه إدريس بن الطيب بليمني[320] من أهل الرياسة والحجابة بدار المخزن حتى أصابته سهام الدسائس والمكائد والوشايات، فهاجر بأهله وسكن المدينة المنورة، ولم يشفع له أو ينفعه بشيء كون والده

319- الموافق للسنة الميلادية 1888.

320-كان وزيرا على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن ومدة قصيرة من أيام مولاي الحسن الأول، اضطر إلى التنحي عن هذا المنصب بسبب ما كان يناله من مضايقات الحاجب موسى بن احمد، وقد أعياه ذلك، فهاجر وأهله إلى المدينة المنورة وبها توفي سنة1305 هـ - 1888 م) (المصطفى الشابي: النخبة المغربية، م س – ص 163)

هو الصدر الأعظم الطيب بليمني[321]. كأنه كان في انتظاري كما انتظرت شهرزاد شهريار لتحكي له قصصها ومروياتها على مدى ألف ليلة وليلة، كذلك كان السي ادريس بن الطيب، ما أن وجدني أمامه حتى تدفق كالسيل العرم يروي الأرض بدون انقطاع، ولم يكن يتوقف إلا للوضوء والصلاة أو تناول الطعام أو عندما يغلبنا النوم والتعب. مر أسبوع كامل وحبل الحديث لازال ممدودا متصلا، والحق أنه كان راوية أخبار وأحاديث، حاذقا ماهرا في فنون القول والترسل وضرب الأمثال وابتداع الاستعارات والتشابيه المُبهرة. وقد كانت له بالمدينة أعمال في التجارة والكسب، جعلت مقامه ميّسرا وعيشه رغدا. شدّد عليّ وألحّ كثيرا أن أسكن في أحد البيوت التي يستعملها للتجارة، وهي واسعة، وذلك بعد أن يوظبه ويعده للسكن، لكني أبيت ذلك. نصحني بالعمل معه في التجارة والاستقرار بالمدينة وملازمة عالم من العلماء والأخذ عنه حتى يجيزني فأصبح شيخا محدثا راويا مفتيا، لكنني رفضت كل ذلك بلباقة وكياسة، خرجت من بيته راضيا مرضيا شاكرا فضله وداعيا له باليسر وسعة الرزق، زوّدني - جازاه الله خيرا - ببعض المال وبنصائح ثمينة لا تقدر بثمن. تجولت كثيرا ورافقت الدراويش والمجاورين، جلست أمام العلماء والفقهاء والمحدثين والمشايخ، فما رأيت ولا سمعت منهم إلا كلاما معادا مكرورا، ينقل فيه الأخير عن الأول، والخلف عن السلف، محفوظا مسنودا، يَؤُمهم أكبرهم سنا وأغزرهم ذقنا وأكبرهم زبيبة وأطولهم سبحة، غلب عليهم التشدد، فأنكروا كل حديث ورموه بالبدعة والضلالة وأنذروا أصحابه بالنار، وإن كان حب الدنيا والمال والثراء أكبر همهم وغاية مرادهم، إذ أكثروا من القصور والإبل والخدم والمتاع، وتزوجوا رُباعا وتسروا بالإماء مِلكا مُشاعا، ولم يُنكروا زواج الشيخ العجوز بالبكر القاصر ولا حظروا أنواعا مِن الزيجة كالمتعة والمسيار. وقد تصادف مقامي هناك بطلوع نجم دولة آل سعود وانتشار مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب[322]، وقد كان

321- الطيب بليمني بوعشرين الصدر الأعظم على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن (توفي سنة 1286هـ - 1869م) (المصطفى الشابي: م س - ص 161)

322- رجل دين وفقه من قبيلة بني تميم الحضرية(1791 - 1703) ولد بالعينية بنجد (أول عاصمة لدولة آل سعود)، كان والده من علماء الدين. كرس حياته للدعوة الدينية والتبشير بتعاليم جديدة، أسست لما سيعرف فيما بعد «بالحركة الوهابية» تنتقد بقايا العقائد البدائية الشائعة بين

أصحابنا بالمغرب يروجون لأفكاره ويدعون إليها خلافا لما عليه مذهب المغاربة من تمسك بالمالكية والتزام بالوسطية وابتعاد عن الشطط والتشدد الموسوم في خطب حنابلة الصحراء. فقد حضرت درسا بالمسجد الشريف، كان الشيخ قبل إلقائه والشروع فيه، يحدث جماعة من المريدين، منبسط الأسارير، منفرج الثغر، ودودا سمحا، يقطر كلامه حلاوة وعسلا، ما أن تعوذ وبسمل حتى فارقته البشاشة، فاكفهر وجهه، وعلت جبهته تقطيبة كالحة كخسوف القمر، واشتد سواد زبيبته حتى خلت نفسي أمام حيّة استنفرت رأسها للانقضاض، واحمرت عيناه واشتعلتا نارا، ترميان السامعين بشواظ حارق، اتخذ وضع المنذر فألقى خطبة جمع كلماتها من حطب جهنم ووقودها الناس والحجارة. قلت لنفسي، أحدثها وتحدثني، فليس في هذه الديار من أنيس ولا سمير ولا خدن حميم إلا نفسي، مالي مقام في هذه الديار، فقد أقفرت بعد خصب، ونضبت بعد ارتواء، وبادت بعد عمران، لقد قالها الشيخ نجم الدين "الصامت"، إذا دنوتَ رحبَ، وإذا جلستَ أفسحَ، وإذا تحدثت أنصتَ، وإذا دعوت أجاب. وقد رُويت لي حكاية المنبر الكريم الذي صُنع لرسول الله (ص) من أجود الخشب وكيف صار أمره بعد وفاته حتى خلافة معاوية، فبعد أن كان ثلاث درجات على عهده صلى الله عليه وسلم، بلغ تسع درجات زمن مُلك معاوية[323]. من رواها لي كان يعني أن دوام الحال من المحال.

العرب والمسلمين (عبادة الطلاسم من أصنام وأحجار وينابيع ماء وأنهار وقبور وأضرحة...) تحالف مع آل سعود من أجل تحرير وتوحيد الأقطار العربية == تحت راية الإسلام «النقي». بعد موته جمع الأمراء السعوديون بين أيديهم السلطتين الدينية و الدنيوية. (لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 95 – ترجمة عفيفة البستاني، دار الفارابي بيروت).

323- «وكان له ثلاث درجات (أي المنبر)، فكان رسول الله (ص) يقعد على عُلياهن ويضع رجليه الكريمتين في وُسطاهن. فلما ولي أبو بكر الصديق (ض) قعد على وُسطاهن، وجعل رجليه على أولاهن. فلما وُلي عمر (ض) جلس على أولاهن، وجعل رجليه على الأرض، وفعل ذلك عثمان (ض) صدرا من خلافته، ثم ترقى إلى الثالثة. ولما أن صار الأمر إلى معاوية أراد نقل المنبر إلى الشام، فضج المسلمون، وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس، وبدت النجوم نهارا، وأظلمت الأرض، فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلكه، فلما رأى ذلك معاوية تركه، وزاد فيه ست درجات من أسفله، فبلغ تسع درجات.».
(ابن بطوطة: تحفة النظار، ص 110، المكتبة التوفيقية، مصر (بدون تاريخ)).

تلك الليلة، وبعد فُرقة طويلة زارتني في المنام، كانت تصلي أمام الروضة الشريفة بالمسجد النبوي، كنت بجوار المحراب قاعدا، وقفت فوق رأسي، على خطى الأولين ستجد الطريق إليّ، أسرع في الرحيل قبل أن يفوت الأوان ويأتي الدخول في خبر كان، ويضيع منك الطريق والرفيق، ارحل قبل أن يشب الحريق. لازال صوت الشيخ البركة الصامت حين كلمني آخر مرة، ثم سكت فلم أعد أسمع له صوتا ولا همسا، قال لي موصيا أو مشفقا وهو ينظر إلى حالي وحالتي: "اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد، ثم سِحْ في الأرض حتى تتكسّر العصا ويتخرّق النعلان".

كتاب الأزهر
" أدخلوا مصر آمنين"

ضاقت الأرض بما رحُبت، وأظلمت في وجهي كل السبل، وخاب رجائي ومسعاي، فكأنني خُلقت للعذاب والضنك والشقاء، ولا أمل ولا من باب يُفتح في وجهي، حتى الذي كان مفتوحا من قبل، ما أن يراني حتى يُغلق ويوصد بالأقفال والمزاليج. فكرت في الإياب، وهاجت بي الأشواق وهزّني الحنين إلى المدينة القديمة والمْريسة وباب البحر وسوق لَغْزل وباب الشعبة وكل الأبواب وكل الحوانيت والدور والجوامع، وكل ذرة في أسفي. ما أبعد أسفي وما أضيق المكان الذي أنا فيه، ومن الاستحالة تحمل مشقة الرحلة وعبور الصحراء من جديد، ميت لا محال عطشا أو جوعا أو تيها إن فكرت في ذلك من جديد، علي أن أتدبر طريقا آخر غير الذي سلكت، فلم يقدني الأول إلا للعدم والخواء. قضيت شهورا أتدبر أمر عودتي، أسأل الحجاج والتجار والعُرفاء[324] المطلعين على شؤون السفر والقوافل والمراكب، ولم يكن معي مال ولا نشب، كنت قادرا على تدبر معيشتي وإقامتي، ولكن السفر ولوازمه يحتاج مالا كثيرا، لا طاقة ولا قدرة لي به. خلال هذا البحث المُضني، وأنا أصارع ميمنة وميسرة[325]، تحدثت إلى أناس كثيرين، سائلا مرة وطالبا للعون مرة ثانية، فوجدت من يُرشدني إلى السفر مُقسّطا[326]، الأمر الذي أثار فضولي، وحمّسني كلام بعض الجوالين الرحالة، عندما استفسرني قائلا: هل زُرت مصر؟! قلت نعم، قال: ماذا شاهدت؟! عندما حكيت له عن رحلتي المصرية، ضحك مني وقال: لم تر مصر بعد، ثم أضاف: من

324- الخبراء.

325- طرفا الجيش عند المعركة.

326- قسّط الشيء: فرقّه، جعل بين الواحد والآخر مسافة معلومة.

لم يدخل مصر، فقد أضاع نصف عمره، ثم استرسل في كلام عجيب ومثير عن أحوال مصر وأزقتها وأسواقها وجامعها الأزهر وعلمائها وأفنديتها الذين أخذوا عن الأورباويين آدابهم وصنائعهم وحتى ملبسهم ومدارسهم. قلت: كنت أظن أن طريقي نحو دمشق وبغداد والقدس، قال: دعك من ذاك، لقد خرب المغول والأتراك كل شيء، وجاءت بعدهم الأجناس الروميّة. مصر الآن مجمع العرب وإليها تشد الركائب وفيها انتهى السر الكبير. ليلتها لم أنم، ولم تفارقني الغادة الساحرة الفاتنة الغامضة، لُمت نفسي، حين لا ينفع الملام، كيف دخلت مصر وخرجت منها خاوي الوفاض، التسرع آفة الحكيم، والعجلة من الشيطان. في أذني لازال صوته يجلجل مرة ويهمس أخرى، ونحن أمام غار العنكبوت الذي جعله خلوة وصومعة، صوت الشيخ اليماني وهو يقول: من هنا مرا، ثاني اثنين، هل عادا إلى الوراء، لا، أبدا، لك الله يا ولدي، فلا صاحب لك، والطريق طويل، يحتاج الإيمان والصحبة، لكنه هو الله، لا يتخلى عن عبد أخلص في محبته.

شددت الرحال إلى مصر، آملا أن أكون من الذين تشملهم الآية الكريمة «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين»، عُدت إليها كرة ثانية، وهذه المرة دخلتها شمالا عن طريق سيناء. كانت رحلتي آمنة سالمة بصحبة الأعراب والحجاج العائدين إلى ديارهم حتى وصولنا مدينة الإسكندرية العامرة التي دخلتها مع مغرب يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب الخير لعام ثمانية وثلاثمائة وألف[327]. مدينة الإسكندر ذي القرنين، الشامخة بطلعتها البهية على البحر الصغير، مستطيلة الخطّة، ذات أربعة أبواب موزعة بدقة وإتقان، باب البحرية المُفضي إلى المرسى القديم، وباب رشيد شرقا في طريق النيل، وباب السدرة جنوبا وهو المؤدي إلى بلاد المغرب أو بلاد البربر كما يسمونها هنا، وباب رابع في الجنوب يؤدي إلى المقبرة. وهي مدينة مسوّرة، وعليها أبراج وحصون، بعضها على مراسي السفن القادمة من البلدان الأورباوية مثل مرسى البرج، أما السفن القادمة من بلاد المغرب أو البربر فترسوا بمرسى السلسلة. أرضها رملية لا تصلُح لزراعة أو غرس. أما خارج أسوارها وعلى مبعدة عدت أميال فتوجد بناءات قديمة يعدونها من عجائب الدنيا، وأشهرها عمود الصواري، وهو في

327- الموافق للسنة الميلادية 1890.

غاية الضخامة والارتفاع[328]، وعمود كيلوبترا التي نجحت بدهائها وجمالها - كما يروي أهل مصر - في الإيقاع باونطونيوس كبير الروم في حبائها حين تزوجته وجلست على عرش من الذهب.

ويغلب على أهل الإسكندرية الأقباط المسيحيون واليعاقبة خاصة، وجلهم تجار وصناع كانوا إلى وقت قريب يؤدون الجزية إلى أمراء المماليك وحكام الباب العالي بمصر. لهم كنيسة عظيمة جليلة، يقال إن رفات أحد القديسين الكبار[329] مدفونا بها، وبوسط المدينة ضريح يقدّسه المسلمون ويجلّونه ويوقدون الأنوار حوله صباح مساء يقال إنه قبر الإسكندر الكبير المذكور في القرآن الكريم "نبيا وملكا". هواؤها عليل ونسمتها بحرية ترد الروح كما يقول أهل مصر، سكانها مطبوعون على السماحة والكرم والبشاشة في وجه الغرباء، مثلهم في ذلك مثل جميع سكان السواحل والثغور البحرية، يتكلمون أكثر من لغة ويرطنون بكلام الأجانب، ذكرني ذلك بأسفي، مدينتي البعيدة وبمرساها وأبراجها وأبوابها العتيقة، وبقوارب الصيد وروائح الطحالب حين يتجشأ البحر أمعاءه فيرسل نسائم لا أزكى منها عطرا ولا ألطف منها نسيما. قضيت أياما بالإسكندرية فما راقتني كثيرا، وربما كان سبب تبرمي أنني لم أجد فيها ما سعيت وراءه منذ خروجي من بلاد المغرب، فقد كانت تغرد بعيدا عن السرب الذي خرجت من أجل اصطياده. لم يكن مسعاي وراء أطلال الإغريق والرومان، ولا البحث في أخبار القبط واليهود والبندقيين والطليان وغيرهم من الأجناس، وإنما كان ترحالي من أجل أطلال العرب الدارسة وأخبار أيامهم ومغازيهم وما حلّ بدار السلطان من الوبال الوخيم والشر العظيم، وما تركته العرب البائدة للعرب الباقية، وهل يصلح أولنا آخرنا؟ وهل لنا بعد هذه السقطة قيام ونهوض؟ أم أنها مؤبدة إلى يوم يبعثون؟ الخمارات والحانات وفنادق الدعارة في كل درب وحارة، ومحاكاة الأورباويين في كل مناحي حياتهم - الساقط منها على وجه التخصيص - على قدم وساق، ولا من ناه ولا مُنته، ولا مُنكر ولا مُنذر، حتى

328- كان ارتفاع عمود الصواري ثلاثين مترا ويقال إنه شيد عام 392م على شرف الإمبراطور (ديوكليسيان).

329- هو «سان مارك» الإنجليزي الذي اختطفه غدرا تجار من البندقية عام (829م) وحملوه إلى هذه المدينة (الوزان. م س، ص 196 ج2).

خلت نفسي وسط قوم ممن وصفهم الله بالضلالة والغي، ووعدهم بالعذاب والفناء كقوم نوح ولوط والمؤتفكة وقوم عاد وثمود. أزمعت أمري وشددت رحلي نحو القاهرة المعزية المحروسة بالأزهر الشريف وأضرحة الأولياء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا.

دخلتها ليلة العاشر من صفر الخير للسنة التاسعة وثلاثمائة وألف[330]، قصدت الجامع الأزهر الشريف توا، رغبة في المبيت عند المجاورين من الطلبة والفقهاء، وقد كان رجائي كبيرا أن أجد أحدا من المغرب، وقد استجاب الله لدعائي، فكذلك كان الأمر مقدرا. ثم انتقلت في الأيام المُوالية إلى دار يقطنها مغاربة، استلطفوني بعد أن علموا بوجودي، وكانوا كراما خيّرين، لم يدخروا شيئا من أجلي لم يعملوه. كنت زاهدا في كل شيء، وطيلة رحلتي كنت ضيفا خفيفا، كل ما كان يهمني هو مكان للمبيت وإنسان أستأنس به من وحشة الديار. ثلاثة أيام كانت كافية للراحة، خرجت بعدها وكأنني قد عشت في مصر العمر كله. فقد عملوا ـ من استضافوني من الطلبة المجاورين ـ على تحفيظي كل صغيرة وكبيرة عن مصر وأهلها، وكيف هي المعاملات والمساومات عندهم، وقد سخروا لما حكيت لهم عن دخولي مصر جنوبا وما تعلمته تلك الأيام، إذ قالوا لي إَن مصر هي القاهرة المحروسة، لذلك يطلقون على القاهرة اسم مصر تعميما وتعظيما لشأنها. والقاهرة مشتقة من القاهر وهو أحد الكواكب السيّارة، يقال إنها بنيت تيمنا بطالعه عند مروره وقت الشروع في بناء سورها على يد جوهر الصقلي قائد جيش الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ويقال أيضا إن عددا من المغاربة شاركوا في بنائها واختيار موقعها، وأن فلكيين منهم حددوا تاريخ الشروع في البناء عام تسعة وخمسين وثلاثمائة[331]. القاهرة اليوم مدينتان: المدينة المسورة، أو كما نقول في المغرب "المدينة القديمة"، والأحياء الجديدة التي بنيت بعد دخول نابليون بونابرته كبير الفرنساوية أرض مصر فاتحا غازيا، وما تلى ذلك من ازدهار العمران وتشييد القصور والدور والمباني السلطانية والمشافي والمتاجر. غير أن أهل مصر لا يحبون إلا المدينة المعزية، وأشهر أبوابها البديعة باب النصر

330- الموافق للسنة الميلادية 1891.

331- الموافق للسنة الميلادية 970م.

المفتوح على الصحراء التي تفصلها عن البحر الأحمر، وباب زويلة المُفضي إلى النيل والمدينة العتيقة، وسُمي كذلك نسبة إلى جيوش جوهر الآتين من "زويلة" وهي إقليم المهدية بتونس. وباب الفتوح المؤدي إلى ميدان فسيح كان محطة للقوافل، وقد ذكرني بباب الفتوح بفاس يوم كنت طالب علم بالقرويين. تكثر بالقاهرة دكاكين التجارة والأطعمة والمشروبات المحفوظة في قوارير جميلة الشكل إلى جانب دكاكين الحلويات المعروضة على وجه بديع مُغر يفتح الشهية ويقلّب المصارين في البطن، وهي على أشكال، منها المدهونة بالعسل الأصيل، ومنها المحلاة بالسكر المنفوش. وتكثر بها أيضا حوانيت الحدادة والسباكة والتلحيم ومختلف الصنائع التي ازدهرت وتكالب عليها الناس منذ دخول الإمبراطور بونابرته إلى مصر وما قام به محمد علي بك الكبير من نهوض وارتقاء وجلب للأدوات والماكينات والمخترعات الوقتية. بالقاهرة محلات كالقيسارية عندنا يسمونها فنادق[332]، أعجبني منها فنادق القماش وما أكثرها حيث يضم كل فندق عددا كبيرا من الدكاكين تباع فيها منسوجات أجنبية من الطراز الرفيع مجلوبة من بلاد الشام، وأغلب زبنائها من أعيان الوقت ونسائهم، وغيرها من الدكاكين التي تبيع أجواخ[333] البندقية والطليان.

البيع والشراء جار على قدم وساق، والمعروضات من السلع ألهبت شهوة الدنيا وحب التملك، فتهافتوا على البضائع شراء واقتناء، وعندما أعوزتهم الفلوس استدانوا وكتبوا صكوك السلف ووصول الأمان وصكوك الإبراء عند الرد. ثم زادت المغارم والمكوس فبارت الكثير من السلع والبضائع، وما لها من سوم ولا يوجد من يشتريها، فكسدت وأفلس أصحابها.

أرض مصر، والقاهرة خاصة، مكان عبادة ودين وتقوى وأرض أنبياء كموسى ويوسف والفاتحين الأولين بدءا بعمرو بن العاص وعدد لا يحصى من الأضرحة للصالحين والصالحات كنفيسة ابنة زين العابدين بن علي ابن عم الرسول (ص) والسيدة زينب. أنا بالقاهرة كسالف عهدي عندما كنت بالمغرب، محب للأحياء العتيقة والدور القديمة، وقد وجدت بالقاهرة العمارة التي أحب

332- فندق: يقصد به سوق مختص بسلعة معينة أو عدة سلع.

333- الجوخ: نسيج من الصوف.

وأهوى، فكأنني أتنقل وأحيا بفاس ومراكش وتطاون وأسفي وغيرها من مدننا وأقاليمنا الضاربة في الزمن الأول من التاريخ. تجولت مع بعض الصحاب مرات قليلة، وسرت وحدي أكثر الأوقات، فلم أحْتجْ إلى دليل أو مرشد ولا إلى ناصح، إذ تشابهت الحواري والدروب والعطفات، فكأنك ما انتقلت ولا سافرت، غير أن تكرار المشاهد ودوام التمعن في المناظر والطبائع البشرية والعوائد والتقاليد تظهر التباين والاختلاف. القاهرة الفاطمية وقاهرة المماليك ثم قاهرة العثمانيين وقاهرة نابليون بونابرته ثم قاهرة محمد علي بك الكبير ومن جاء بعده من عائلته وذويه، سِفْر كبير لازالت الأيام تدون على صفحاته تاريخ الأمم وحوادث الزمان، ولازَال أهلها منكبون على بذل كل الجهد، وانتهاج أي مسلك يُقرّب من المأمول. وكأن حالي الذي خرجت بسببه باحثا عن ضالة منشودة موعودة، هو حالها بعد خروجها من كل معترك وامتحان. لقد رفعوا من شأن محمد علي الكبير وعضدوه ودعموه وأيدوه ونصبوه واليا على مصر قبل أن تأذن الآستانة بذلك، بل سلّم الباب العالي بالأمر عندما التف أهل مصر بعلمائها وعوامها وتجارها وصناعها وحرافيشها ومسلميها ونصرانييها وأروامها ويهودييها لتقليد محمد علي بك الكبير شؤون مصر، ويا لها من صدفة عجيبة، أم أنه عبث الأقدار، قائد يبحث عن أمة، وأمة تبحث عن زعيم، مرج البحر يلتقيان، فبأي آلاء ربكما تكذبان؟

فصل فريد..

كان عليّ ـ وأنا لا أعلم لمكوثي بمصر وقتا محددا، ولا رُزمانة لي بخصوص الإقامة، فقد وضعت نفسي رهن الأقدار والمشيئة الربانية ـ أن أبحث لنفسي عن عمل أتعيش منه وأتقوّت، وأن أجد مسكنا على قدر الاستطاعة، ولم أعدم في هذا الباب نصيحة ممن التقيتهم من المغاربة أو المصريين أو الشوام، مسلمين وأقباطا. وجدت عملا عند الخطاطين كناسخ للكتب والعقود والصكوك، وقد كان خطي المغربي طالع يُمن عليّ، إذ سهّل لي كتابة الجداول والتعاويذ والرقى لاشتباه أهل المشرق في كون أهل المغرب سحرة مهرة لا يشق لهم غبار في السحر والتعزيم وإبطال العُكوس وقراءة الكف. ولتكتمل الحكاية كما قال لي

أحد ظرفاء جماعتي من المصريين، عليّ بالزواج على سنة الله ورسوله، وكذلك كان. خطبوا لي عروسا لم أرها إلا يوم الدُخْلة. عندما رفعت عنها الحجاب، صحت من فرحتي، "وا فَايْنَكْ آ الحَمْرِيّة، آجي تْشُوفي وَلْدك امْعَنَكْ الزين"، كانت تقول ـ رحمة الله عليها ـ يوم سعدي ومناي، يوم أراك فقيها عالما، وأخطب لك "لاَ لَهُمْ، بَنْت سِيدهْم، بَنْت الحْسَبْ والنْسَبْ"، وأحمل أولادك على ظهري، أهدهدهم وأربت على أكتافهم قبل أن يناموا. كانت ذات جمال باهر، تقول للقمر "انزل وأنا أقعد مطرحك"، يا سلام يا أولاد، الدنيا حظوظ، ربنا كريم، لم أر فتنة ولا بهاء ولا خفرا يقاس بما عندها. جمال الأميرات العزيزات ونور الصالحات العفيفات وفتنة الغاويات وسحر الغازيات. استقبلني فم ممتلئ بشفتين مكتنزتين ممطوتين كحبّة الكرز يدعو للتقبيل الطويل الأمد، وعينيين مشعتين عابثتين، بهما ظل نظرة متواطئة أو مواعدة، بعيدة مهوى القُرط[334]، يسرح فيه العَطش الصَّدي فلا يُشفى إلا ببَرَد لثاثها[335]. أجمل ما فيها سحر الغانية وغنج اللعوب. لم تكنَ امرأة بالمفرد، بل كانتَ نسوة بالجمع . التفت الساق بالساق واتسق المساق، يوم دخلت الخدر، خدر المصرية، أكلتها فأكلتني، أفنيتها فأفنتني، كالنار تأكل النار. رحلت في جسدها باحثا عنها، وسافرت في كياني لتجد نفسها من جديد.

سبعة أيام بلياليها لم أفتح باب داري، ولو كان الأمر بيدي لما خرجت أبدا لهذه الدنيا من جديد. تسابق أفراد جماعتي عندما رأوني مقبلا عليهم قبل صلاة العصر بقليل ـ وبعد أن أمضيت قيلولة ممتعة ـ وهم جلوس بمقهانا المعتاد عند قنطرة الموسكي. كان ممتلئا برواده من الزّعار والحرافيش والشُّطار وأولاد البلد،

334- القُرط: ما يُعلق في شحمة الأذن من ذهب أو فضة، والعبارة مأخوذة من قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدةُ مهوى القُرط إما لنوفل ... أبوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشم

أراد أن يصف طول عُنقها، فأتى بما دلّ عليه من بُعْد مهوى القُرط، و مهوى القُرط رِدف لطول العنق.

335-اللثة: ما حول الأسنان من اللحم، ج لثى ولثاث، البَرَد: ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد فينزل حبوبا. والتعبير مستوحى من قول النابغة الذبياني:

زعـم الهُمَـامُ ولـم أذُقْـهُ أنـه ... يُشفى ببرد لثاثها العطش الصدي

(الهمام من الثلج أو الشحم: ما ذاب منها).

وقد احتل شاعر الربابة دكته العالية، استقبلوني بالتهاليل والزغاريد، ووجدت بينهم كبير المغاربة بالفحّامين، أبيض البشرة، وله لثغة خفيفة مع حرف الراء، ميسور وله كلمة مسموعة هنا، يُحكى أن جده أمين الفحامين حارب جيوش نابليون إلى جانب المماليك ثم ناصر محمد علي بك الكبير وأيده، فأنعم عليه وعلى أولاده بالبكوية وأصبح من الأعيان. اتكأ علي صديقي عبد العظيم وقال هامسا: ما صدقت تتزوج! سبعة أيام بطولها، ذا أنت طْلعْت شديد قوي، اقتربت من أذنه التي تحاذيني وأسررت له: سبعة أيام المَشْماش اتْقَضاتْ، ما يبقى غير الصح والمعقول. قال: لم أفهم، قلت له: «بَعْدينْ حا أقُولْ لك، خَلّيها للأيام الجايّة».

رجع إلى ما كنا فيه..

استقر أمري وزالت غمّتي وأينع عودي بعد يبوسة وطبطب[336] الماء في وجهي بعد طول جفاف وبعد أن غوّرت التجاعيد عليه المسالك والوديان، وجرى المال في يدي من حيث لا أحتسب، واستسلمت للدنيا وفتنتها حتى كدت أن أنسى نفسي وما خرجت أول الأمر من أجله. وكان يوما مشهودا يوم دُعيت إلى عرس في بيت الحاج عبد المالك من عائلة التازي فرقة أولاد المزعلك[337]، وكان وكيل المغاربة بمصر سنة أربع وتسعين ومائتين وألف[338] من هجرة الرسول (ص)، وكانت له ولعمه من قبل، تجارة في شراكة مع بعض أفراد عائلته بفاس ومصر. استقبلني بحفاوة المغاربة واللسان الفاسي الحلو، وكان ذلك يوم الخميس سابع رجب الخير للسنة العاشرة وثلاثمائة وألف[339] للهجرة، كان قد سبق له العلم بمقامي وأحوالي ومعاشي بالقاهرة وصار بباله كل ما يقربني من بعيدِ أو قريب، فلم أستهل حديثي معه بمقدمات أو تحفظات،

336- طبطب الماء أو السيل (طبطة): صوّت، والوادي: سال بالماء، وفي سياق النص، المقصود (بدانة ظاهرة).

337- أنظر شجرة العائلة في (مصطفى الشابي، م س – ص 129).

338- الموافق للسنة الميلادية 1876.

339- الموافق للسنة الميلادية 1893.

إذ ما أن عرّفوه بقدومي، حتى فتح ذراعيه لمعانقتي وانبسطت أساريره، وأطلق لسانه بالثناء والترحيب والكلام المبطن بالفحش الحلال مما نسميه «لَمْلاغَة»، وكأننا كنا رفيقين حميمين التقيا بعد طول غياب. أقعدني بجانبه، وقدم لي ضيوفه، وأعطاني عن كل واحد نبذة مقتضبة كافية شافية، أطرى فيها البعض، وانتقد البعض الآخر، وحذر من الآخرين، ونصح بغيرهم، وكانوا بعيدين عنا في المجلس. سألني عن حلي وترحالي، فأجملت له ما يسمح به المقام من حديث. كان يطيل التمعن والتأمل في وجهي وكلامي، والبسمة لا تفارق شفتيه اليابستين. قبل مغادرتي للعرس، شد على ذراعي وهو يواجهني وجها لوجه، وعيناه تنظران في عينيّ، وقال: لدينا كلام كثير نقوله لبعضنا البعض، غدا الجمعة بحول الله وقوته، سنصلي بالأزهر الشريف، وسنلتقي بعد الخروج من أداء الصلاة بساحة الأزهر الشريف[340] أمام الباب الواقع تحت الشرفة المطلة على الساحة، وهي

340- أنجز الرسام النمساوي الإستشراقي لودفيكَد ونش Ludwig Deutsch (1855-1935)لوحة رائعة لهذه الساحة أسماها «الأزهر، جامعة عربية بالقاهرة» ووقّع عليها ب «القاهرة 1890»، في اللحظة التي كان فيها «العبدي» موجودا بالقاهرة التي دخلها سنة 1891، وقد عاشا معا بهذه الساحة أو بالأماكن الثقافية المحيطة بها دون أن يلتقيا أو يتعارفا، فقد أنجز «دوتش» سنة 1909 لوحة ذات قياس استثنائي (2,85m x 2,95m) موقعة بعنوان «موكب المحمل بالقاهرة». كل منهما (العبدي ودوتش) كان يراقب الحياة المصرية ويصفها من زاوية نظره ورؤيته الخاصة للأحداث ووفقا لانشغالاته الراهنة والمستقبلية. تؤطر لوحة الساحة الأزهرية أربعة أبعاد لجمالية فنية خلابة: المكان والزمان والإنسان واللون. يركز (دوتش) على زاوية معينة لرؤية الأزهر كمكان، الساحة التي تستحوذ على فضاء اللوحة، أرضية فسيحة، تقاطع جدارين غير متساويين طوليا، الجزء العلوي للمنارة، الشرفة المشربية، الأبواب، النوافذ، الزخارف الحائطية (دوائر، نقوش، فتحات)، ساحة مكان للصلاة، مصلون يولون وجوههم نحو القبلة، بوجودهم تحدد الجهات الأربع. زمن اللوحة: بناء على الصلاة القائمة وضوء الشمس الساطع بالساحة، ظهرا أو عصرا أو ما دنا من ذلك، هؤلاء المصلون فاتتهم صلاة الجماعة، حولهم خلق كثير يأكل أو يقرأ أو يتقيّل... يتبوأ الإنسان في اللوحة فضاء الساحة، الإنسان في حركيته المستمرة، كل شخص منشغل: قراءة أو حديثا متبادلا بين اثنين، أو أداء صلاة، أو تناول طعام، أو سيرا نحو جهة أو التسلي بمشاهدة الناس ومراقبتهم، ولا وجود للمرأة في اللوحة. الموجودون بالساحة هم طلبة العلم والمنتسبين للأزهر، لذلك اهتم (دوتش) بمنظر الكتاب العربي، فقرّب أكثر الأغلفة المهترئة والأوراق المخطوطة والألوان البالية والمزق الظاهرة من كثرة الاستعمال، وقدم الحضور الإنساني في الساحة على شكل حلقات للدرس والمحاورة والقراءة كما اهتم بالقراءة الشخصية لبعض الأفراد، لكن حضور الكتاب والعلم والقراءة في اللوحة يخلق عالما فريدا في جماليته وسموه وشاعريته حتى ولو كان خاليا من المرأة. كما اهتم (دوتش) بإبراز (رغيف العيش)، كإشارة للحالة الاجتماعية لطلبة الأزهر، وطلبة العلم عموما. الساحة مكتظة بالخلق، يتوه فيها الفرد

من اللوح المشكل على طراز المشربيّ، فلا تخطئ النعت الذي وصفت لك، ثم سنتوجه من هناك بحول الله وقوته إلى عوّامتي[341] على ضفة النيل. وكذلك كان الأمر وصار، فلم أدر بنفسي إلا وأنا على اللوح فوق الماء، أحس بانسيابه تحتنا، وأرى صفحته البهيّة والمراكب تمخر لجّه، والنسمات العليلة تدخل من النوافذ المشرعة لتنعش القلوب والنفوس. جاءني بعباءة بلديّة[342]، وهو يقول: هذه أكثر راحة وأنسب للجلسة. دخل خادمان بأواني الطعام والشراب، وصفت الكؤوس، جاء شخصان مصريان فوجلت، كنت أظن أننا سنكون لوحدينا، قال الحاج عبد الواحد: هذان أعزا الأصدقاء والخِلاّن، شركائي في كل شيء، في السر والعلن، رددت وأنا أتلعثم، بوركا من صَديقين، قال لي أحدهما: الحاج يذكرك كثيرا، قلت: لا أعلم من أين عرف سيرتي. قال الحاج مبتسما: التجار هم الرحّالة الأولون، وهم نقلة الأخبار وعيون الأمراء والملوك وجواسيس الإمبراطوريات العظمى، وهم أيضا ثرثارون، يحكون عن كل شيء رأوه أو سمعوه، وأحيانا يختلقون ويؤلفون ويلفقون، وقد جاء ذكرك عند بعضهم فأثنى عليك ومدحك، وأشار إليك بأنك صاحب ولاية وإمام يُرجى صلاحه ومنذور للوقت المعلوم. في لحظة هي أشبه بغمضة عين غاب عني كل شيء، وانمحت صورة الغادة المصرية ذات الحلاوة والنضارة، ولم تبق أمامي إلا الفيافي والقفار والصحاري التي سلكتها أو التي أنا معها على العهد أن أجوبها، إن كان في العمر بقية، أو كتب لي ذلك في اللوح المحفوظ. قال لي بشيء من الافتخار والزهو: لقد سمعت منذ مجيء إلى مصر والتحاقي بتجارة عمي

وسط الزحام، إذا استطاع (دوتش) أن يرسم أجساما كاملة في مقدمة اللوحة، فإن ذلك استعصى عليه في باقي اللوحة، فلم يُحط إلا بأنصاف الأجسام أو رؤوسها أو عمائمها أو بظلالها الباهتة. نقل (دوتش) الألوان ـ غالبا كما رآها ـ فعلى الجدران: البُني الفاتح والداكن، وتتوزع ألوان الملابس بين الأبيض والأزرق الفاتح والأسود والأصفر والبني والأخضر الفاتح، أما أنواع الملابس فهي: العباءة والعمامة أو القبعة. الأرجل حافية. كنت أرى العبدي يجول في الساحة، يحاور رفيقا أو يتكئ على جدار الأزهر استجلابا لراحة مفتقدة.

(Les Orientalistes: op. cite P : 210/211)

341- العوّامة: بيت من الخشب مشيد على ضفة النيل، شكلت (العوامة) البيت الثانوي عند أفراد الطبقة المصرية الميسورة خلال القرن 19 ومنتصف القرن 20 (اقرأ ثلاثية نجيب محفوظ لتتعرف أكثر على عالم العوّامة).

342- العباءة المصرية تكاد تكون لباسا وطنيا عند المصريين في مقابل الجلباب المغربي عندنا.

الحاج عبد الغني الكثير من الأحاديث والحكايات والأخبار عن أهل الصلاح والتقوى المغاربة المتجذرين في أرض مصر منذ الفاطميين، وقد ذاع صيتهم وعلا مقامهم بفضل طبيعتهم الميّالة إلى التصوف والمجاهدة. فباتت لهم في نفوس المصريين مقامات عالية ومكانات مقدسة ذات جلال[343]، فلا تعجب إن عاملوك بوقار واحترام، ولكنني لم أدعوك لهذا، بل دعوتك لأمر جلل، فالوارد من الأخبار عن طريق الحجاج والتجار لا ينبئ بخير ولا يدعو للتفاؤل، وإن سلكتَ طريقي، لا محالة أن تموت غريبا بأرض غريبة. وستجازى كما جُوزِيَ أسلافك من الأولياء والصالحين، كومة من الصخور أو حوش أو ضريح يتاجر به المشعوذون والدجالون. أرض المغرب أولى بك وأحوج إليك وأقرب إلى قلبك وعقلك، فقد حاقت بها الظلمات من كل جانب، وتكالبت عليها الإفرنجة والأوباش والأنذال والمحميّون، فحق علينا أن نتسابق إلى نصرتها ورفع الحيف عنها، وأنت كما تراني كومة لحم على كمشة عظام، لم تعد فيّ فائدة، ولا قدرة لي على الرحيل، ولكني لكل داع نصير، ولكل قائم بشير، ولكل مكروه أو شر نذير، فأكمل رسالتك، وأتمّ مهمتك، ولك من مغاربة مصر التأييد والعون والدعاء الحميد. كنت أستمع إليه بوجه مبهور، وقلب مذعور، وفم منفغر دهشة وعجبا! ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد، وكأنني وجدته حيث واعَدْته، متى وفي أي زمان وأي مكان؟! لكنه فك عقدة من لساني عندما قال: اليوم خمر وغدا أمر، أو اليوم أمر، وغدا أمر، قلت هازلا ضاحكا: ولم لا نقول اليوم خمر وغد خمر، تهلل وجهه البيضاوي المشرب بحمرة، وضحك ملء النفس والروح، ونادى على خادمه وقيانه، اقترب مني حتى لاصق فمه أذني وقال: لنا حديث طويل بيننا ولا داعي للعجلة.

343- «فالسيد أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي والشاذلي والمُرسي وأبو العباس والقباري والقنائي والسيوطي والطرطوشي وغيرهم من أصحاب الأضرحة والمقامات، كلهم من المغاربة الصوفيين الذين تجذروا في مصر». (خيري شلبي: وكالة عطية، (رواية) ص 423 ط 2 / 2008 دار الشروق – مصر).

حاشية..

ما دار بيني وبين الحاج عبد الواحد لم أدونه في حينه، ولم أهتم به أو له أول الأمر، ولكن بعد مرور ثلاثة أيام عدت إلى الورقة والقلم فسطرت ما بقي عالقا بالذهن، مفيدا من كلامه وحديثه.

عود على بدء..

جاءني وقت الضحى رقّاص من طرف الحاج عبد الواحد يُعلمني دعوته لي بالذهاب معه إلى الحمام بعد صلاة المغرب، وقد كانت في مصر دعوة تكريم وتشريف. أرسلت إلى البيت أحد صبيان الكتبخانة[344] ليأتيني بملابس جديدة وبما يلزم للاستحمام. كمزولة التوقيت[345] المضبوطة بالأزهر الشريف أو بجامع القرويين على عهد طلبي العلم به، جاء الحاج عبد الواحد على بغلته الفارهة، ركبت حماري وناولني الصبي بُقْجة[346] ثيابي، ثم سرت وراءه، هو على بغلته وأنا على حماري، حتى لحقته، فسرنا للخروج من سوق الغوريّة والفحّامين مرورا بالصنادقية قاصدين حمام الشرايبي، وهو حمام كبير، بناه تاجر مغربي ثري هو محمد دادا الشرايبي[347]. استقبلنا الخدم عند باب البهو حيث أودعنا ملابسنا، وقد سرت فيهم الهمة والنشاط والفرح عندما رأوا الحاج عبد الواحد، وكانوا ينادونه بالحاج المغربي، ناولونا الفُوط لنلفها حول جسمينا، ثم ولجنا من باب صغير إلى داخل الحمام، والحرارة تلهبنا بوهجها المتزايد حتى وصلنا حجرة السخونة وسط سحابة من البخار الساخن الحار والمعطّر، وهذا ما يسمونه بالحمام التركي على خلاف حماماتنا بالمغرب، ومع ذلك، فقد ذكّرني بآخر مرة استحممت فيها بحمام فاس صحبة إخواني طلبة القرويين، وعلى غرار ما يوجد في حمامات المغرب يوجد هنا أيضا خدم صحاح الأجسام

344- المكتبة أو المكتب.

345- الساعة الشمسية.

346- الصُرّة من الثياب.

347- آندريه ريمون: التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب ص 137ط 1974 – مصر.

أشداء أقوياء، لا علة فيهم ولا سقم، يتولون جلب الماء وفرك الأجساد وطقطقة المفاصل والعظام والدلك بالصابون، وقد خُيّل إليّ وجسمي يكاد ينسلخ عنه الجلد أنني أمام كسّال حمام بالمغرب، لكن ما كان يتساقط من بدني من أوساخ صَبّرني على تلك المعاناة.

ارتدينا أقمصتنا وخرجنا إلى حجرة البهو الفسيحة التي فرشت بالحُصر والمساند، وأثثت بأواني القهوة والشاي وعدة النرجيلة. وجدنا بعض معارف الحاج، شيخ أصلع وكهل بلحية طويلة وشيخ جليل مهيب، عرفت فيما بعد أنه الشيخ البركة المعروف بالدمنهوري نسبة إلى دمنهور إحدى مدن الشمال المصري وهي قريبة من الإسكندرية وعلى طريق الحج التي كان يسلكها المغاربة وبها أضرحة للأولياء والصالحين من أصل مغربي[348]. خرجنا وأخذنا مطايانا وكنا خمسة أنفار، سرنا إلى «بين القصرين» حتى وصلنا بوابة المتوكي، فاجتزنا الطريق الطوالي الموصلة إلى عابدين، مررنا ببيوت البكوات والأعيان، وكان الهدوء يشملها بالسكون والسكينة، حتى وصلنا باب اللوق وشط النيل. قرب قصر العيني، أنخنا المطايا في حوش مُسوّر على بابه عسّاس ضخم الجثة، قوي العضل. سرى إلى عقلي شعور بأنني أدخل مكانا مشبوها أو غير مأمون، ما مرّ عليّ خلال ترحالي يجعلني لا أخاف أي أمر مهما كان قاسيا، غير روائح السلخانات[349] والمدابغ التي مررنا بها في الطريق إلى هنا، فقد أقلقتني قليلا وعكّرت مزاجي وأنذرتني شؤما بالمكان الذي كان قريبا من جسر المراكب وغير بعيد عن عوامة الحاج عبد الواحد.

استدراك على ما فات..
«وما أنسانيّه إلا الشيطان أن أذكره»

لا يفوتني أن أذكر اهتمام أهل مصر بالنظافة، وهي من الإيمان، وإقبالهم على الاستحمام والاغتسال وارتياد الحمامات لقضاء أحسن الأوقات وأطيبها

348- ذكر بعض منهم بالهامش (20) من هذه الرواية (فصل: كتاب الأزهر).

349- مجازر اللحوم.

في رأيهم، حيث زينوها بالفُرش والسجاجيد والفوط والمحازم[350]، وأناروها بالقناديل، ووضعوا مصاطب داخلها وخارجها، وخصصوا حمامات للرجال وأخرى للنساء مثل حمام المؤيد وحمام قيسون، وإن كان الغالب على الأمر تقسيم الوقت بين الرجال والنساء كما هو عندنا بالمغرب، أي ما بعد المغرب إلى الظهر للرجال، ومابين الظهر والمغرب للنساء. وقد أكد لي أحد شيوخ المصريين أن عدد حمامات القاهرة كان يصل إلى سبعة وسبعين حماما، كما كان بها أيضا حمام لليهود بحارتهم، أي الملاّح كما يعرف عندنا بالمغرب.

وما يدفعه المُستحم في هذه الحمامات يختلف من حمام إلى آخر، أما أغلب العاملين فيُحصّلون أجورهم على هيئة «بقشيش»[351]، كما هو الشأن في حماماتنا بالمغرب. ليس همي حكي ما رأيت، ولكن المراد الغوص في المرئيات القائمة مقام الإشارات، فقد ألهمني الحمام بعد كل هذا التجوال، التفكر والتدبر في حرصنا نحن المسلمين على الاستحمام والاغتسال حتى انفردنا بهذه الخاصية الأخيرة عن باقي الشعوب، وقد ذكر لي أحد الأفندية المصريين المتعلمين أن الشيخ رفاعة ذكر في كتابه «تخليص الإبريز» أن أهل فرانسا وحاضرتهم «باريز» لا يعرفون الحمام ولا الكنيف، ولا يعرفون إلا مغاطس من نحاس، لكل نفر مغطسه، وحتى إن كان هذا أسلم لستر العورة، فليس في دخول المغاطس الصغيرة لذة الحمامات لانعدام الحرارة والسخونة[352]. ألهمني الحمام، وقد دخلته مئات المرات بالمغرب، ونحن المتعودين على الذهاب إليه، تبعا للعوائد المستحبة، بعد صلاة العشاء من كل يوم خميس أو بعد صلاة الصبح لمن استدرك ما فاته، بنية الاغتسال والطهارة والتحلل من الأدران. هذه المرة رأيت نفسي ميتا أو على الأصح في البرزخ بين الحياة والموت، كان الحمام غارقا في الضباب، والمستحمون كالأشباح أو الضلال، بلا ملامح ولا علامات ولا هيئات، يمشون بحذر، خفيفي الوطء كأنهم يمرون بين الأجداث والجثث المستلقية على بلاط الحمام الرخاميّ المبلل، لا تسمع لهم همسا ولا حسيسا،

350- المحزم: مكان الحزام، والمعنى هنا اللباس الذي يستر العورة.

351- يقارن في هذا الباب ما ذكره العبدي بما ورد عند آندريه ريمون: م س ص511.

352- رفاعة الطهطاوي: «تخليص الإبريز في محاسن باريز» ص 362 ط 4791 مصر.

وكأنهم يتطهرون لدخول عالم آخر، إنهم في المطهر، وها هم خزنة المكان وملائكته يطوفون عليهم بالجرادل والماء والمُطهِّرات، يفركونهم ويدلكونهم ويقبضون على أيديهم وأرجلهم حتى تتقوس ظهورهم وتصدر عنهم آهات وأنات وتوسلات بالرفق والرحمة كأنها ابتهالات التوبة والغفران، ويطول الاغتسال والفرك حتى تتطهّر أطرافك المذنبة مما اقترفت من آثام وما تلطخت بهِ من أدران لتبعث خلقا جديدا. تأملت نفسي، فوجدتني أموت ليلة الخميس وأبعث يوم الجمعة، وأن ما بينهما هو الحياة الدنيا، وأن البعث في الحياة قبل الآخرة، فهل من متعظ؟!

رجع إلى ما كنا فيه..

عدت إلى حال اليقظة، نازعا نفسي من توهماتي وخيالاتي عندما سمعت نداء عليّ بالترجل لدخول بيت من طابقين. عبرنا المدخل ومررنا بالطابق السفلي الذي كانت روائح الطعام تنبعث منه نفاذة قويّة، وصعدنا درجا ملتويا إلى الطابق العلوي. دخلنا بهوا فسيحا مفروشا بالأرائك والحشايا[353]، تتوسطه مائدة كبيرة مستديرة وموائد صغيرة مبثوثة بأركانه، وقد فرشت أرضه بسجاد فارسي بديع ذكّرني بالزربية المغربية الأصيلة، وجدنا بالمكان أشخاصا سبقونا إلى هناك، لعل ميعادا كان مبرما بينهم وبين الحاج وجماعته، فعدت أراجع نفسي، أ هذه جماعة أم طائفة، يسعون إلى انتسابي لها؟ ما أمرهم وما مرادهم؟ إلى ماذا يسعون؟ انتحينا مكانا معدا أقصى الصالة للصلاة والتعبد، صلينا جماعة صلاة العشاء، ونَفَّل كل واحد على حدة. استرحنا في المكان وأخذنا وقتا نعود فيه لأنفسنا من الطريق ومشقة الحمام. بادرنا الحاج عبد الواحد بالتعويذ والتكبير والصلاة على النبي وآله وصحبه والصالحين والشهداء، داعيا لهذا الجمع المبارك بالتوفيق والسداد، ولأمتنا بالصلاح والرفعة والسؤدد، ثم اقتحم المقال بجرأة ودون مواربة أو تلكؤ وهو يقول: لقد جمعتكم الليلة في هذه الأخويّة الصالحة لأعرض عليكم أمورا صارت بالبال منذ وقت طويل، وكان الواجب

353- الحَشيّة: الفراش المحشو بالصوف أو القطن.

علينا أن نتداولها من قبل وأن نمعن النظر والتدبر والفكر، لنعرف المقاصد ونرسم الغايات ونتخذ الطرائق والخطط التي نعمل بها. كلكم على علم بما صار في البلاد العربية والإسلامية، وعلى وجه الخصوص القطر المصري بعد حملة نابليون بونابرته العسكرية وما كان من أخذ ورد وحرب وسلام ومقاومة واحتِلال، حتى خرج الفرنساوية من مصر ليدخلها بعد ذلك العثمانيون والنكَليز. والدولة الفرنساوية إن كانت لم تفلح في احتلال مصر، فقد نجحت في احتلال الجزائر وتونس وبلاد إسلامية وإفريقية، وهي قاب قوسين أو أكثر من احتلال المغرب. أخرجت من مزودتي أوراقا وقلم رصاص[354] للكتابة، نظر إلي الحاج منتبها، مد يده ليأخذ القلم من يدي وهو يتابع حديثه، هذا القلم من المخترعات الوقتية التي جاء بها إمبراطور الفرنسيس إلى مصر، وهو شيء صغير إذا قِيس بما استحدثوه من آلات ومكائن[355] وأمور يحار فيها العقل من مثل الكور والكَرناد والبمب والطبجية[356] وحرب النظام وأخبار السلك وبابور البر أو بابور الحديد ثم بابور البحر، وقد ارتقت جل الأجناس الأورباوية إلى هذا المقام العالي من المجد والرفعة، ولن أعيد عليكم ما رآه وشاهده الشيخ رفاعة وحكاه في كتابه المشهور، فلم يعد ذلك بخاف على أحد. هذا كله مغلوب عليه، ولكن ما ينفطر له القلب ويحز في النفس سباتنا الطويل وحرصنا على التقليد والإتباع والتسليم بالخرافات وتقديس الأولياء وتجنب طلب العلم والحكمة، بينما باشادورات وقنصوات الأجناس يفتون ويقررون ويتحكمون في أمور ممالكنا وبلداننا... تنحنح الشيخ البركة الأزهري الجليل، فسكت الحاج عبد الواحد. تكلم الأزهري قائلا: أمامنا الليلة بطولها لبحث الأمر وتقليبه على كافة الوجوه لنستخلص لبّه في خطة محكمة ميسّرة، نأخذ بها قولا وعملا. أمّن الجميع على كلامه، فتابع: نتشارك أولا على الملح والطعام كما يقول أهل المغرب، موليا وجهه ومبتسما نحو الحاج عبد الواحد، ثم نخوض إلى أن يبين لنا الحق إن شاء الله. لا أدري من أين ينبعث الخدم، إن هي رمشة عين حتى سوي سماط على

354- قلم الرصاص: من اختراع العالم الفرنسي «كونتيه» أشهر علماء الحملة الفرنسية على مصر.

355-ج مكينة.

356- المدفعية، رجال المدفعية.

الأرض، تحلقنا حوله، وزع قدر من رغيف العيش، رفع الحاج رغيفا منه إلى مستوى رأسه وهو يقول مستملحا[357]، كان أحد الفقهاء بالقرويين عندنا يقول عندما تحل الجوائح والأوبئة: الخبز عمود الدين، ثم عقب جادا مقطبا، أي إذا جاع الناس كفروا. التقط الشيخ الأزهري الخيط من الحاج على لغة من ينتظر، حقا قولهم جوّع كلبك يتبعك، فإذا استمر الوباء وتفاقم الجوع وانتشرت الرذيلة مع تكالُب الأجناس علينا وسعيهم لتمزيقنا وتشتيتنا، وتكالبت علينا المصائب من كل حدب وصوب، سيجد الدعاة والمبشرون النصارى الطريق إلى عقول الحيارى والمتذبذبين والعوام، ومن حق المسلم علينا أن نحصنه دينا ودنيا وعلما وتقوى إلى أن يلقى ربه مسلما مؤمنا. قلت في نفسي لقد وصلوا إلى هذا وأبعد منه، وفي خاطري صورة دانيال وقربه من أقوام كنا إلى عهد قريب نسترقها ونستعبدها. كان السماط قد امتلأ بالأواني والصحون وأنواع الأطعمة، وقد بالغوا في إتقان السماط بالمشروب والمأكول كما تمتع القوم تطييبا وشرابا وبخورا. امتدت الأيادي إلى التقطيع واللقم، واشتغلت الأفواه بالمضغ واللوك والازدراد، فعمّ الصمت والسكون إلا من هسيس الطعام وهو يقطع إربا إربا ويُلقى به في البطون. ذكّرني ذلك بولائم الطلْبة والفقهاء بالمغرب عندما يُدعون لقراءة القرآن بمناسبة عقد قران أو عقيقة أو عشاء ميت، حيث يُنتقم لأيام الجوع أشد انتقام. رُفع السماط وسويت الأفرشة فأخذنا في قراءة البردة في مديح خير البريّة بالطبوع والنغمات والإنشاد والطرب العجيب. جاء الشاي والزنجبيل والقهوة التي أقبل الناس عليها بعد صيام طويل لاعتبارها من المحرّمات، صدح صوت الشيخ الجليل صاحب البركة الأزهري الدمنهوري بتجويد بديع لما تيسر من الذكر الحكيم، سما بنا إلى مقامات وأدخلنا عوالم الخلد وأسمعنا صوت الملائكة وأرانا الجنان الخالدات تجري من تحتها الأنهار، بشرى للمحسنين وجزاء للمجاهدين السالكين طريق الحق، الناصرين كلمة الله، الرافعين لواء الدين في كل زمان ومكان.

أخذنا كرة ثانية نخوض في حال الأمة العربية والإسلامية، وكل منا يُجهد نفسه وعقله في الإجابة عن السؤال العريض، لماذا تقدم الأورباويون وتأخرنا

357- قائلا مُلحة أو ظرفة أي نكتة.

بعد أن كنا قطب الرحى في علوم الحكمة والطب والخيمياء والآداب، وبعد أن دان لنا العالم، ثم ما لبث الأمر أن انتهى بنا إلى زوال دولتنا وانمحاء صيتنا في كل مجال، ثم استبيحت بلادنا ونُهبت ثرواتنا وشُرد أهالينا، أُريقت دماء وأُزهقت أرواح، بلا ذنب ارتكبت ولا جُرم اقترفت. وقد طال الحديث في هذا الحال حتى كاد يتحول إلى مراثي وبكائيات وتعداد[358] نائحات إلى أن انبرى الشيخ الأصلع ـ الذي لا أعرف اسمه أو ربما نسيته، وقد ظل ساكتا إلى هذا الحين، حتى كدت أظنه أخرس ـ للكلام بالبسملة، فرأيتهم يتراجعون إلى الحائط أو المساند وكلهم آذان صاغية وعيون مفتّحة، فعلمت قدر الشيخ عندهم ومقداره قبل أن ينبس ببنت شفة، قال: هؤلاء الذين يتبجحون اليوم[359] بأن نابليون هو من فتح أعين المصريين على الحضارة الأورباوية وأفاقهم من سُباتهم وأدخل إلى مصر الآلات والمخترعات الوقتية، وبأن محمد علي بك الكبير قد سار على دربه وتتبع خُطاه وحذا حذوه وواصل العمل الذي رسمه، وأنه لولا طبجية نابليون لما استفاق العرب والمسلمون وأهل مصر خاصة من بياتهم الشتوي الذي طال قرونا، ولما تخلصوا من المماليك وفرق الانكشارية، فإن كلامهم مردود وسعيهم مرفوض، الآن في وقتنا هذا وقد مر العقد الأول من القرن الرابع عشر للهجرة ويوشك القرن العشرون من تقويم النصارى على الظهور، فلا ظهر المسيح الدجال مع الدابة كما أنبأتنا جماعات الدجالين والمشعوذين والمدّعين العلم بالأفلاك والنجوم ولكن قرن الأورباويين القادم آت ومعه جحافل العسكر تجتاح المدن والأقاليم والسواحل والدول، وقد بدأت دول الفرنسيس والصبنيول والبرتكَيز والطليان والنكَليز واالبْروسْ[360] بغزو واحتلال دول عديدة بإفريقيا وبلاد الهند والسند وفارس وغيرها. هل جاء نابليون إلى مصر لكي يرفع من شأن أهلها ويعمل على تمدينهم ومعاونتهم على الترقي والنهوض أم أنها كذبة من أكاذيب الكفار المشركين. إن نابليون غزا مصر يوم الأربعاء عشرين

358- عدّد الميت: عدّد مناقبه وذكرها ووصفها.

359- حسب تواريخ العبدي نحن في السنة الهجرية 1311 الموافق للسنة الميلادية 1893.

360- المقصود بروسيا، وكانت تطلق على ألمانيا والنمسا معا.

شهر المحرم الحرام لسنة ثلاث عشرة ومائتين وألف[361] ثم رحل عنها بعد ذلك أو هرب يوم الثالث عشرة ربيع الأول لسنة أربع عشرة ومائتين وألف[362] بينما كان خروج الجيش الفرنساوي خروجا تاما كاملا في يوم الأربعاء تسع وعشرين من صفر الخير لسنة ست عشرة ومائتين وألف[363]، وبالمختصر المفيد فإن مدة إقامة الفرنساوية بمصر هي ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوما، فهل بربكم، قادرة هذه المدة على أن تصنع حضارة أو تبني دولة متحضرِة، مع العلم أن مقاومة وقتال الفرنساوية من طرف المماليك والعثمانيين والنكليز لم تهدأ ولم تفتر أبدا. لقد مات الكثير من ضباط نابليون وقواده وكبراء جيشه مثل كليبر[364] ساري عسكر الفرنسيس[365]، فضلا عما نشروه من فجور وفسق وتهتك، ألم تسمعوا قول حسن العطار:

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم   في مصر بين حمّار[366]وخمّار

وعن قريب لهم في الشام مهلكة   يضيع لهم فيـــها آجــال أعمــار

كذب الغزاة ولو صدقوا، ما جاؤوا لسواد عيون مصر ولا لمصلحتها، لقد مات من الأهالي ما يناهز الثلاثمائة ألف نفس، وفي حملتهم على الشام شردوا وعذبوا وقتلوا المئآت، مخازيهم أيها الإخوان أكبر وأثقل في الميزان مما يدّعونه من خير لمصر وأهلها، في "العريش" قتلوا خمسمائة نفس، وفي "غزة" التي استسلمت دون مقاومة، أعملوا فيها وفي أهلها النهب والسلب، وبعد سقوط حامية "يافا" أعمل الفرنساوية السيف في ألفين من الجنود المستسلمين، وقد

361- الموافق للسنة الميلادية (02 يوليوز 1798).

362- الموافق للسنة الميلادية (22 غشت 1799).

363- الموافق للسنة الميلادية (15 يوليوز 1801).

364- قتله سليمان الحلبي (21 محرم 1215/1800م) (أنظر التفاصيل عند عبد الرحمن الجبرتي (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ص 219 ط1 / 1999 جدة).

365- كبير الجيش أو القائد العام.

366- «إن الكثيرين منهم (أي الفرنسيين) يظل طول النهار فوق الحمار بدون حاجة سوى أنه يجري به مُسرعا في الشوارع، وكذلك يجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويكدونها في المشي والإسراع بهم في الشوارع، وهم يغنون ويضحكون ويصيحون ويتمسخرون.» (الجبرتي: م س – ص 143)

وصلت أعداد القتلى في "يافا" وحدها إلى عشرة قتلى وأربعمائة وأربعة آلاف قتيل. نابليون بونابرته الإمبراطور العظيم الذي يمجده الفرنسيس، لم يكن رحيما ولا آدميا ولا متدينا بدين المسيح الذي يدعو ـ كما يقول أهالينا من الأقباط المسيحيين ـ إلى المحبة والسلام، بل كان سفاحا مهووسا بسفك الدماء دون حق "ومن قتل نفسا بغير حق، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها، فكأنما أحيا الناس جميعا". وقد تحول الجند الفرنساوية على يديه ـ أي بونابرته ـ إلى وحوش مفترسة تطعن الشيوخ والفتيان وتهتك أعراض البنات وهن لايزلن في أحضان أمهاتهن، ولا تزيدهم صرخات الاسترحام إلا مزيدا من الهياج والهمجية. أسوق لكم ثلاث وقائع [367] فاضحة مثل فضيحته مع المرأة[368] التي رافقت زوجها خلال الحملة الفرنساوية، فحين أعجبته، طلقها من زوجها وعاشرها كصاحبة مدة ثم هرب إلى فرنسا وتركها لمصيرها، هي وباقي جند الفرنساوية الذين لم يعد منهم إلى افْرنسا إلا ما يقارب النصف، وإليكم أيها الإخوة الأجلاء الوقائع البينات، الواقعة الأولى وتخص إخواننا المغاربة ـ نظر إلي الحاج عبد الواحد بامتنان وعطف ـ في صباح اليوم الثاني من شهر شوال الخير من السنة الثالثة عشرة ومائتين بعد الألف[369]، وكان يوم سبت بعد يوم عيد الفطر الذي صادف يوم الجمعة المباركة، فصل الجنود الفرنساوية المتطوعة المغاربة الذين استسلموا مع الأتراك في قلعة «يافا» وأسروا، ثم قادوهم إلى شاطئ وصّفُوهم عند الماء، تقدمت كتيبتان من الفرنساوية وبدأتا في إطلاق النار، جرى البعض من المغاربة لينجوا بجلدهم، فنادى عليهم الفرنساوية قائلين إن بونابرته قد عفا عنهم، فعادوا، وفور اقترابهم أطلقوا عليهم النار، ومن ألقى بنفسه في اليم فقد اصطاده الجند قنصا على مهل[370]. أما الواقعة الثانية فجاءت بعد أن اقتادوا

367- قارن ما ذكره العبدي بما جاء عند الجبرتي «مظهر التقديس» م س، وبما حكاه صنع الله إبراهيم في روايته «العمامة والقبعة» ص 152-154-172ط 2008– دار المستقبل العربي، مصر.

368- «بولين لسلي فوريه» – عشيقة نابليون بونابرت خلال حملته على مصر وبعدها. (صنع الله إبراهيم م س).

369- الموافق 9 مارس 1799.

370-وجود المغاربة بمناطق الحرب والجهاد سواء داخل المغرب لمحاربة البرتغاليين والأسبان، والجهاد البحري (القرصنة) في المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، وحاليا بمناطق مشتعلة كفلسطين والبوسنة وأفغانستان والعراق... مسألة مثيرة للأسئلة والاستفهامات.

الأسرى الأتراك إلى ناحية البحر، وكانوا نحو مائتين وألف تركي، بينهم أطفال، رتلوا جميعا القرآن الكريم وتشهدوا على أرواحهم، وتهيأ الجند لإطلاق النار عليهم، لكن أحد القادة الفرنساوية أقبل جريا وأوقف النيران، فظن الجميع أن عفوا شملهم، لكنه أمر جنوده بعدم التبذير في استعمال الذخيرة، فأعملوا فيهم الطعن بالسيوف، وثالثة الأثافي أو الواقعة الثالثة فهي عندما أنهى الفرنساوية احتلالهم ل»يافا»، وقبل أن يعود نابليون إلى مصر، فقد أمر سرا بتسميم من بقي في مستشفى «يافا» من الجند الفرنساوية المصابين بالوباء[371]، وكانوا زهاء الخمسين مريضا.

تنحنح الشيخ المهيب ومسح بكم عباءته على هامته الصلعاء ثم مد يده إلى كوب الماء فعبّ منه قليلا، والقوم على صمتهم مداومون، ولإشارة من الشيخ منتظرون، أسكوتا أم كلاما، ولحديثه منتبهون، عاد كالفرس الحرون، يجري ولا يُجرى معه، وحده في مضمار لا ينافسه فيه أحد، صهلل صوته، بماذا جاءنا نابليون؟! ألعاب سحرية، تياترو[372]، جنان الحيوانات[373]، منطاد طائر، كلما ارتفع وقع، ويقولون ـ إفكا وبهتانا ـ العمران والترقي واللحاق بركب الأمم الأورباوية والمخترعات الوقتية وسياسة المخالطات وجوب الأقطار[374]، فقط، اغتنى الولاة والباشوات والبكوات والأعيان ورجالات البلاط وكبار التجار والوجقلية[375]. لكن الذين رابطوا وصبروا وحاربوا واستشهدوا لم ينلهم نصيب، هل يذكر أحد اليوم ـ من الخاصة والعامة ـ ما قام به سليمان الحلبي الذي قتل «كليبر» كبير الفرنسيس بعد ذهاب نابليون إلىِ افْرنسا، ضربه بخنجره ثلاث ضربات متواليات، قبضوا عليه وعذّبوه حتى أقرَّ فخَوْزَقُوه[376]، وضربوا رقاب أصحابه الثلاثة ثم حرقوا أبدانهم ورفعوا رؤوسهم على خوازيق بجانبه. ويأتي بعد ذلك

371- الوباء : الطاعون.

372- تياترو: المسرح.

373- جنان الحيوانات : حدائق الحيوانات.

374-العلاقات الديبلوماسية والاتفاقيات مع الأجانب، الرحلات الخارجية.

375- الوجقلية: أرباب الحرف (من المصطلحات العثمانية والمملوكية).

376- أي قتلوه ب»الخازوق» وهو أشد أنواع القتل، والخازوق عمود طويل محدّد الرأس يُدخل في دُبر المجرم فيموت عليه، الجمع : خوازيق.

من يقول[377]، إن الفرنسيس عاملوه معاملة حسنة، فبعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم صاري عسكرهم[378] وأميرهم، رتبوا محاكمة ثم نفذوا الحكومة بما اقتضاه التحكيم. على حين غرة سكت الشيخ، وران صمت رهيب على المجمع، ورأيي أن كل واحد كان يفكر ويتدبر فيما قاله الشيخ وما حكاه بأسلوبه السلس ونبرته الخطابية القويّة، وتشبعه بإيمان صادق وروح جهادية. كنا في الهزيع الأخير من الليل، وكانت محاضرة الشيخ قد قلّبت مواجعنا وأفكارنا رأسا على عقب، كما أن صلاة الصبح تدنو منا، والإعياء قد أخذ منا كل مأخذ، حررنا الشيخ الأزهري عندما قال: إلى الأسبوع المقبل إن شاء الله، نفس الميعاد ونفس المكان، نخرج متفرقين، لا تكلموا أحدا فيما خضنا فيه، وإن استلطف أحدكم نفرا، فلا يكلمه في أمرنا إلا بعد أن يعرض الأمر علينا ونتداول فيما بيننا ونبحث في صفة الشخص ونوازعه وسلامة صحبته وأمانته وصدقه، والآن لنقرأ الفاتحة ونختم بالدعاء ثم نصلي جماعة ركعتين شكرا لله وحمدا على أن يجعل جمعنا هذا مباركا وتفرقنا - إن شاء الله - سالما آمنا.

سحبت حماري وغادرت المنزل في اتجاه بين القصرين، عند عطفة المناخلية حيث حوانيت الشوائين ومغاربة الفحامين، وبعد دقائق من السير رأيت ضريح السلطان برقوق بقبته المميّزة، وبعده ببضعة أمتار مدرسة وضريح الناصر محمد بن قلاوون بمئذنته السامقة ثم البمارستان المنصوري. دخلت الجامع فصليت مع الجماعة صلاة الصبح، ثم خرجت قاصدا مسكني. هجمت عليّ الوساوس من كل حدب وصوب، وشبّت النيران في جوارحي، وراودني قلق البَحّار عندما تهب عليه الرياح الهوجاء فيتمزق شراعه وتتشقق ألواح مركبه ويأخذ الماء في التسرب إليه، وتظلم الآفاق من حواليه فيرفع عيناه ويداه إلى السماء ضارعا إلى الله أن يلهمه الصواب ويكتب له النجاة. شكوك وظنون وارتياب، خوف وحيرة وتردد، «قال: أو لم تؤمن؟! قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي»، بهذه الهواجس والوساوس دخلت داري، قابلتني زوجتي عند الباب،

377- يشير إلى «عبد الرحمن الجبرتي» الذي أشاد ونوّه بطريقة إقامة الفرنسيين محاكمة قانونية (عادلة)، وقارن بينها وبين ما يحدث في مصر فترة محمد علي من الظلم والاعتداء (الجبرتي: مظهر التقديس – م س – ص 222).

378- صاري عسكر أو ساري عسكر: كبير الجيش أو القائد الأعلى للقوات.

قبّلت وجنتها وفي قلبي رجفة المذعور، قصدت فرشتي، رميت بجثتي فوقها وأنا أطلب الله أن يأتيني بالنعاس توا قبل أن تقرأ زوجتي ما في عيني فتنفضح أسراري وما ائتمنت عليه. شعرت بها تزيل عني الجُبّة والعمامة، ساكنة صامتة كعادتها، غبت عن الوجود، حلمت كثيرا، لكنني لم أتذكر شيئا من أحلامي، وإن كنت على يقين أنها كانت أحلاما سوداء. استفقت عند الضحى، توضأت وصليت النافلة، تناولت إفطاري، داعبت امرأتي ولاعبتها وطيّبت خاطرها بكلام عذب جميل، لكنها كانت مشوشة الفكر بسبب الليلة الفائتة، اعتذرت لها بأن أخبرها مرة أخرى، وقلت لها: إننا نقيم الليل للصلاة والأذكار ومدارسة العلم، اطمأنت ولم أطمئن، وكيف لي أن أطمئن وأنا وحيد في الهجرة والغربة.

الجمعة المقبلة، ماذا يخبئ لي الغيب المحجوب، أأنفصل عنهم أم أواصل المسير؟ ومتى خفت أو خشيت أمرا؟! بعد كل ما مر بي، مت وحييت ثانية، قلبي وراء الغادة الفاتنة المتنكرة:

يهيم فؤادي ما حييت بذكرها ولو أنني قد مُت جاوبها الصدى

كنت كل مرة أنبعث كالجمرة المدفونة تحت الرماد، ما أن تهب عليها الرياح حتى تتوهج وتتقد، سايرهم حتى تعلم أمرهم وقرارهم، وبعدها لها مدبّر حكيم. اشتغلت خلال هذه الأيام، أعني الفاصلة بين الجمعتين، في تدبر الأمر وتقليبه على كل وجوه التأويل والتفسير كما يقول الفقهاء أو وجوه الإعراب كما يقول النحاة، واكتفيت في تدبير المعيشة بما يؤمن تصريف الشؤون والحاجات، أما الوقت الباقي فقد كنت أقضيه في التسكع وزيارة الأضرحة والمساجد وبيوت المجاورين والكتبخانة[379] والأوكاندات[380]، علّني أجد عالما أو فقيها أو طالبا أو درويشا أو مجنونا أو حتى مجرد إشارة تنير بعض الظلمة، شمعة واحدة في ليل دامس تكفي لإنارة موقع قدم. كنت أخرج كثيرا لزيارة الجامع الأزهر، أصلي به جُلّ الصلوات وأجالس بساحته الرحبة الفقهاء والطلبة القادمين من كل الآفاق، فلا تجد عندهم إلا ما يزيدك حيرة وشكا. لم أترك مكانا أشتم منه رائحة إلا

379- المكتبة.

380- الفنادق (أوكندة).

قصدته، حتى المقابر كتُربة[381] الأزبكية والرويعي وقرافة باب اللوق وتُربة عرب اليسار، والخليقة. قصدت وكالة الجلابة حيث يُعرض العبيد للبيع عرايا، نعتوا لي هناك رجلا مجذوبا يجلس عاريا أمام خرابة، عاريا كما ولدته أمه كان يمشي بالأسواق كذلك، حاسر الرأس، مكشوف السوأتين، تحكى عنه كرامات، مطلعا على المغيبات، يقرأ ما بالقلوب والنفوس وما تهجس به، كما نال شهرة كبيرة في الروحانيات وتحريك الجمادات ومخاطبة الجن ومخالطتهم حيث ادعى أن الوحي قد نزل عليه وأنه صعد إلى السماء ليلة القدر وصلى بالملائكة ركعتين، يقال إنه حفيد السيد علي البكري[382] من امرأة هامت به وعاشرته، فولد الحفيد على طبيعة جده، ولا أدري إلى الآن ما الذي قادني إليه، هل سُدت جميع السكك في وجهي، أم الصدفة وحدها قادتني إليه؟! وربما ساقتني الدروب التي لم أحفظها جيدا، علمتني التجربة أن ما قاد إليه القدر أهون على المرء - إن كان شرا - مما خطط له الآدمي - من خير - فوقع في شر أعماله. أقرأته السلام والتحية، وجلست أمامه، رفع رأسه نحوي ووضع يده على فرْجه[383]، فاستغربت لما فعل، نظر في عينيّ وقال: انتظرتك طويلا أيها المغربي. قلت: ومن أدراك أنني من بلاد المغرب؟ قال: العلامات، قلت مستوضحا: أية علامات! أيُّ كلام هذا تحكي؟ قال: العلامات تظهر وتختفي، لكنها تتكلم، قلت - وأنا في حالة من الحنق والغضب - لقد خرجت من بلاد المغرب منذ مدة طويلة، كنت حينها شابا، ها أنا الآن كما تراني قد شخت وهرمت، قال بهدوء وصفاء بال: العلامات تأتي من الغرب كما تأتي من الشرق، «فأينما تولوا وجوهكم، فثمة وجه الله»، قلت منافحا عن رأيي، غير مقتنع بما حكى: لو قُدّر لي أن مت قبل أن أدخل مصر، ما كانت هذه الملاقاة[384] بيننا أن تكون أو تحدث؟! قال بنفس الهدوء: «من مات غريبا، مات شهيدا[385]». احتار فكري، وذهب عني ما خلته أول الأمر

381- التُربة: المقبرة، القرافة.

382- أنظر حكاية عمر البكري عند الجبرتي «مظهر التقديس...» م س – ص 172

383- الفرج: العورة الأمامية من الرجل والمرأة، كما جاء في القرآن الكريم مخاطبا المؤمنين «والحافظين فروجهم».

384- لاقى لقاء وملاقاة الرجل: صادفه وقابله.

385- حديث مروي عن الرسول (ص).

هزلا عندما استخففته[386] وهو عريانا، يضع سره في أصغر خلقه، تابع كلامه، سافرتَ طويلا وجُبت الآفاق، رأيت أناسا وديارا وبحارا وقفارا، أنا لم أرحل إلى أي مكان، لكني سافرت بعيدا، أبعد مما تظن، صادفتك، لكنك لم تتعرف عليّ، ما تبحث عنه لن تجده هنا، ربما كان هنا ذات يوم، قد يعود أو لا يعود، هو الذي يأتي ولا يأتي، ربما أضعناه بعد أن حُزناه، ربما لم يجد فينا خيرا، فتركنا ورحل، ربما أكثرنا من الكلام والضجيج وأطلنا الجدال حول السابق واللاحق والأول والأخير والقديم والجديد والبيضة والدجاجة؟ قلت له دون أن أفكر، جئتك لائذا خائفا مذعورا، قال: أعرف، الخوف يجمع الأحباب، كلنا نخاف الله لكي نحبه،أما هؤلاء فلا خوف منهم ولا عليهم، فدعهم في عماهم يعمهون، وفي غبائهم ينعمون. أنت عار مثلي وإن تلفعت وتدثرت بأثقل الثياب وأنفَسها، أنا أراك أمامي عريانا مثلي تماما، هل تريد أن أقول لك أين موضع الوحَم[387] في بدنك؟ صحت به متوسلا: بربك لا تقل، أُستر ما ستر الله، قال: لا تخف ولا تحزن، ولا تندم على ما فات، ولا تفرح بما هو آت، كتب عليك الرحيل كما كتب على الذين من قبلك، قلت برجاء من لا حيلة ولا قوة له، دخلت مصر لأعرف حقيقة الأمر الذي نُبئت عنه من قبل، وقيل لي إن مصر العامرة قد حازته هذا الأوان، أجابني ساخرا: يا سيدي الفاضل، لو رأيت حال القطر المصري بالأمس واليوم، وكيف انفلتت حقيقته وضاعت، لرأيت العجب العُجاب، لفارقته بسبب ما حل به من المناكر والمفاسد، قلت برجاء وتشفع: ما العمل إذن يا مولانا؟ قال بصوت هادئ: «اتخذ نعلين من حديد، وعصا من حديد، ثم سِح في الأرض حتى تتكسر العصا ويتخرّق النعلان»، كما قال الشيخ نجم الدين، الشيخ الصامت، حذوك النعل بالنعل. قلت متعجبا: وأين العلماء والفقهاء؟! صاح بأعلى صوته ما أثار انتباه المارين: «يا علماء السوء، ألم تعلموا أن عذاب من يعلم أشد عذابا ممن لا يعلم»، ثم دخل في جذبة وهذيان وشرود وهو يردد «الله حي، الله حي، باقي حي...» وفجأة وقف كالسارية عاريا حافيا حاسر الرأس وانطلق كالسهم حتى اختفى عن الأنظار. هذا ما كنت أخشاه، لم

386- استخفه: استجهله وأزاله عن الحق والصواب.

387- الوحم، وحمت المرأة: حبلت واشتدت شهوتها لبعض المآكل.

يعد بيتي مستقرا آمنا ولا ملاذا مُريحا، ولم تعد الهانم المصرية بقادرة أن تقعدني جنبها إلى أن يأتي الموت ذات لحظة، ولم تعد مصر العامرة مقاما يطيب فيه العيش ويُطلب فيه الرزق. التفت إلى مكان المجذوب، لم يتبق فيه إلا خرقته وحصير بال وكوب فخار مهترئ. نكصت على عقبيّ عائدا، سرت في الطريق الجديد الذي قيل إن بونابرته أحدثه فيما بين باب الحديد وباب العدوي حيث معامل الفواخير، تذكرت تل الفخارين بأسفي وباب الشعبة وواديها الذي يفيض كل عام ممطر فيغرق المدينة القديمة وحوانيتها حتى المسجد الأعظم يزوره. مخلفا وراءه شعبة ريانة خضراء بقطوفها الدانية من خروب ورمان وليمون وزيتون، وحيث تحلوا لأهل المدينة النزهات والخرجات، فيأكلون ويشربون ويطربون ويتحششون أيضا. فكرت أن أشتري هدية للهانم فاتجهت نحو قنطرة الموسكي، عبرتها وأكملت الطريق حتى العتبة وأنا أتفرج على المتاجر وبضائعها الواردة من البلدان الأورباوية، اخترت لها قميصا مزركشا بألوان زرقاء زاهية كلون السماء، ذكرتني بصباغة النوافذ والأبواب بأسفي، كل شيء يذكرني بك أيتها المدينة الموعودة، حتى الموت، يحزنني أن يكون بعيدا عنك وفي تربة غير تربتك الطيبة. طويت القميص في كاغد وحملته تحت إبطي قاصدا مقهاي المعتادة عند قنطرة الموسكي. سعى صبي المقهى لاستقبالي، نظف المائدة وقال: زَيّ كل مرة، قلت نعم، تابع كلامه: أحضّر لك الشيشة، قلت: أعوذ بالله، ضحك وقال: نسيت إنكْ من المغاربة، لا تنْباك[388] ولا شيشة، لا يشربونها ويلعنون أبُوها وأبو أبوها كمان. ضحكت وقلت له: ذي حكاية طويلة بَقى (يقولونها بَنًا)[389]. جاء بالشاي المصري، وهو غير الشاي المغربي بالنعناع. قضيت وقتا ليس بالقصير أنتظر أحدا من أصحابي دون أن يظهر نفر منهم، وقد حان وقت صلاة الظهر. قصدت حمام الموسكي فتوضأت به، ثم خرجت إلى المسجد فصليت

388- التبغ.

389- هكذا في المخطوطة.

يحكي الجبرتي في يوميات سنة 1221 (1806م) «وصل الحجاج المغاربة إلى مصر عن طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم، وأن مسعود الوهابي وصل مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار» وقد أسعد المغاربة إبطاله البدع وخاصة «شرب التنباك والنارجيلة» (تاريخ الجبرتي: ج 3 ص 189) – وقد اشتهر المغرب بفتاويه المحرّمة للتبغ وطابة.

مع الجماعة. كاد شرودي خلال الصلاة مع المجذوب حفيد عمر البكري أن يبطلها لولا صلاتي وراء الإمام. قرّ نظري ألا أدخل البيت قبل أن أصلي بالجامع الأزهر المنيف علّ الله يمهلني سداد الرأي وحكمة العقلاء. خرجت نحو سويقة السباعين يسار جهة الموسكي ومنها إلى حارة الناصرية ثم انحرفت إلى الدرب الجديد. توقفت للتفرج على غازية[390] ترقص في الطريق ومعها رجلان، أحدهما يضرب على الطبل والآخر يعزف على كمنجة، كانت ترقص بقدميها وعجيزتها بحركات سريعة شهوانية شبقة وقد علا وجهها توتر وشجن حتى أضحى جسدها كله كتلة من المتعة والشبق، فتعالت من حولها الصيحات والدعابات المبطنة بالغزل الفاحش الشهواني. رجعت إلى البيت من أقصر طريق وجسد الغازية يتخايل لي في كل حارة ودرب وزقاق.

فصل..

على ذكر الغوازي الشبيهات بالشيخات عندنا، ولكن مع فارق كبير في اللباس والرقص والزينة، فإذا كانت الشيخة عندنا قد أسدلت عليها ثيابها وتنقبت، وشاركت في المغنى والطرب بصوتها فقط، فإن الغازية عندهم والعوالم[391] أيضا ثيابهن مفتوحة، تُريك العنق كاملا والشعر مضفورا بالشرائط والخصر يطوقه الحزام، والرداء يتكشف عن الذراعين والكتفين والصدر، ولباس شفاف خفيف فوق البطن، وجزءه الأسفل مشقوق يكشف عن الساقين والفخذين. ينسب أهل مصر وعلماءها خاصة إلى الفرنساوية ونابليون بونابرته خاصة تخريبَ أخلاق بعض النساء وهتك حيائهن وتعويدهن الفواحش والخلاعة، وفتح بيوت الدعارة، وإفسادهن بدعوتهن إلى أن يكن متحكمات[392] للنظر في أمور الرعيّة والأحكام والأمر والنهي، وكذلك فتح حانات الخمور وغير ذلك من المناكير والمفاسد.[393]

390- شبيهة بالغجرية أو الشيخة بالمغرب.

391- مقابل الشيخات عندنا.

392- أي موظفات في إدارة الحكم والشؤون العامة (الدعوة إلى خروج المرأة للعمل).

393- تحدث العديد من الباحثين عن الآثار السلبية لحملة نابليون بونابرت على مصر في المجال الأخلاقي والاجتماعي، وقد جعل منها البعض ذريعة لرفض جميع أشكال الحداثة القادمة من الغرب.

وصل ما انقطع..

جاء الموعد المرتقب مع مجمع الجماعة، فعاودني الوسواس الخناس، لاح أمام ناظري المجذوب العريان، شملني بعض الأمان، وحنّت النفس للمخاطرة. غادرت البيت وأنا على يقين أنني سأعود، وإن مت، فالغريب شهيد. مضيت إلى جامع طولون، حيث سمعت أن به مقرئا يرتل القرآن ترتيلا جميلا تكاد القلوب تنفطر لسماعه، ففي صوته غُنّة أشبه بالبحة أو النحيب المهموس، يعطي لمخارج الحروف حقها من الإشباع والتفخيم والتخفيف، يتدرج في المقامات كأنه يصعد بك إلى السماء، فلا تشعر بنفسك إلا ودمعة صامتة تترقرق في عينيك، لست أعلم لماذا يذكرني كلما سمعت ترتيله ببلدتي وضريح الشيخ أبي محمد صالح بأسفي، نفعنا الله ببركاته. صليت المغرب ويممت وجهي نحو المكان الموعود. وجدتهم قد سبقوني بوقت قصير، وقد زادوا عددا بأنفار جدد، لكن الشيخ الأصلع تغيب عن الحضرة، عرفوني على القادمين الجدد، شوام ويمنيون وأعراب، ضاقت بي الأرض بما رحبت، فقد كان من عادتي ألا أتفاءل بكثرة العدد، فما أكثر الإخوان حين تعدهم، ولكنهم في النائبات قليل. وجدت الحاج عبد الواحد ـ كعادته ـ على قدم وساق. انتابتني الشكوك حول مقصده ومراده من كل هذا، وهو التاجر الموسر، صاحب الصادر والوارد. اقترب مني وأجلسني بجانبه، لاطفني بجميل الكلام وسأل عن أحوالي وغيبتي عنه طيلة الأسبوع، وأكد عليّ أن أمر عليه كل يوم ـ متى أشاء ـ في وكالته بخان الخليلي. جهرت له بالقبول، وأسررت لنفسي بالرفض، على الأقل، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود فيما يخوض فيه هؤلاء القوم من أمور، أكثرها مُبهم وأقلها غير مأمون. صلى بنا الشيخ الأزهري العشاء، ثم تحلقنا حوله لنسمع حديثه وموعظته. تعوذ وبسمل وحمد الله[394]، ثم قال: كما تعلمون أيها الإخوان، فقد غاب شيخنا الجليل لإصابته بنزلة برد شديدة، زرته بالأمس وسيتعافى قريبا إن شاء الله. وأما بعد، المسلمون في ورطة، ونحن الخاصة أشد القوم بؤسا وحيرة وترددا، لا نعرف ما نقدم ولا ما نؤخر، سُدت في وجوهنا الآفاق وأظلمت، وحاقت بنا الدوائر وطوقت، وتكالبت علينا المحن والمكائد فأطبقت، فما العمل؟

394- قال (أعوذ بالله من الشيطان، بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين).

ومن أين الطريق؟ الأفندية المحدثون فرحون بما تفضلت عليهم به الأجناس من آلات وماكينات وتصاوير، وما شاهدوه من دور تياترو وجنان الحيوانات وما أطلعوهم عليه من علوم وفنون، فغرت لها أفواههم وتدلت ألسنتهم وأظهروا أمام العدو الكافر ما هم عليه من غباء وغفلة، كأنهم لم يكونوا ذات يوم خير أمة أخرجت للناس، ولم يذكروا أنها أيام تُتداول بين الناس، فهرعوا مبتهجين إلى أوربا يأخذون منها ويُحاكون، وينقلون ويترجمون، سواء صح ذلك أم كان خطأ، بل هناك من دعا إلى السفور وخروج المرأة للتعليم والعمل، ودعوا إلى دستور للبلاد، إذ كان بونابرته قد سبقهم إلى إقامة الديوان[395]، لكن كل ذلك لم يفلح، لأن الزرع لا ينبت إلا في موطنه، أو بتهيئ الأرض الصالحة له. وآخرون التفتوا وراءهم فرأوا جنات وبساتين وحور عين وحياة تقشف وزهد وجهاد إلى يوم الدين، فنكصوا على أعقابهم مرتدين، ولو فعل الأولون مثلهم لكنا إلى اليوم لانزال نعيش حياة الكهوف ونستر عوراتنا بورق التوت. إن في الماضي لذكرى وعبرة لمن يعتبر، وفي الحاضر معاشنا وحياتنا التي خلقنا الله من أجل أن نملأها عمرانا ونسلا صالحا وخيرا عميما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. الحال في مصر لا يسر صديقا ولا عدوا، فقد أجهز النكَليز[396] على كل مدخرات البلاد، ووضعوا أيديهم على دواليب الحكم، وأخذ الفرنساوية الذين أخرجناهم من مصر في الاستيلاء والاستحواذ على أراضي المسلمين في كل مكان من المعمور، فبعد الجزائر جاءت بلاد تونس وبلدان إفريقيا والسودان الغربي، وهم اليوم يتحرشون ببلاد المغرب، أما الصبنيول فقد ملكوا سبتة وتطاوين وثغورا أخرى، وكذلك الحال ببلاد الشام وبلدان الجزيرة العربية. والذين حسبناهم من قبل أعداء وخصوما، هاهم اليوم يجتمعون ويقررون أمورنا ويفتون ثم يقتسمون فيما بينهم دولنا وأوطاننا، فالنكَليز الذين أعانوا الباب العالي على إخراج بونابرته من مصر، هم اليوم حلفاء فرانسا في غزو بلاد الغرب الإسلامي، قل لنا أنت، أيها المغربي، ماذا يجري في بلادكم؟ فوجئت بالسؤال، وقد كان فكري يسبح

395- بمثابة البرلمان أو مجلس الشعب (أنظر تفاصيل ذلك عند الجبرتي : مظهر التقديس..م س الفقرات 271 –134–104–99–98–96–95–87–60–53).

396- استعمرت بريطانيا العظمى مصر منذ سنة 1882 بعد القضاء على ثورة أحمد عرابي إلى سنة 1956 بعد تأميم قناة السويس.

في بحار بعيدة وخيالي يحلق في سماوات عليا، بعضها مما شاهدته وعشته خلال ترحالي، وبعضه الآخر من توهماتي وشطحاتي وهي تصور لي الجند الفرنساوية قد أطبقت على المغرب ودخلت فاس ومراكش وأسفي وغيرها من البلْدات، فكيف يكون الحال والمُقام، غير أن هذا الشرود لم يمنعني من أن أرى في استهدافي وقصدي بالسؤال توريطا وإحراجا واستدراجا لمصيدة أو شَرَك قد أكون أنا غنيمته. استجمعت أشتات فكري للرد على الشيخ، والأنظار تطوقني من كل جهة، والأعناق تشرئب نحوي، قلت بعد البسملة تركت بلدي منذ أكثر من ثلاثة عقود، وقد أعود إليه أو لا أعود، ولا حول ولا قوة إلا بالله المعبود. خرجت شابا فتيّا، للحكمة والترحال محبا شقيّا، يسعى وراء العنقاء الفاتنة الغامضة، لعلها تلهمه سر الكائنات التي خلّفها وراءه ترتع في سديم الجهل والضلالة والتيه، وأن تنير له نور الحق بين أصحاب اليمين المنتسبين إلى عشائر عاد وثمود، وأصحاب الشمال المتنورين الحافظين للغات والألسن والمحميين بالقناصل والباسبورات، ظننت أنني سأعود من الشرق بقبس من نور يضيء الطريق ويطرد الظلمة، فإذا هي شمعة كلما هبت عليها نسمة هواء انطفأت. التجدد سمة الوجود، حتى ولو خفي عن العيان، ما جرى مع عبد الله بن ياسين ومع المهدي بن تومرت، لن يتكرر معي ثانية ولا مع غيري، الشمس وحدها تعيد شروقها بعد غروب، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار. سكتت وكانوا ينتظرون عودتي إلى الكلام، لكن صمتي طال، فقال الحاج عبد الواحد: يا أخي لقد غوّصتَ[397] في الحديث، ولم يَبِن لنا من قولك شيء، ثم أردف الشيخ الأزهري على قوله قائلا: بلاغة الكلام وقشيب الألفاظ وقلق العبارة أخفت المعاني والمقاصد، فهل لك أيها الأخ الجليل أن تبين لنا مرادك وغرضك. بلعت ريقي ورطبت لساني بكوب ماء ثم استأنفت الكلام كأنني حصان يجري وحده في مضمار سباق: كما أسلفت القول، فقد تباعد ما بيني وبين بلاد المغرب، وطال زمن الانفصال، لكن الاتصال يتم من حين لآخر، وقد يسر ليّ الله لقاء المغاربة كل مرة، فلم أعدم لقاء حاج أو تاجر

397- الغوّاص: الذي يغوص في البحر باحثا عن اللؤلؤ أو غيره.

أو سالك طريق الأولياء والصالحين أو أحد ممن ضاقت بهم السبل وطاردتهم حاشية السلطان، فهرب إلى الحجاز أو مصر أو القدس الشريف لاجئا لائذا.

نحن في بلاد المغرب لسنا بأحسن حال منكم، فإن لم تدخل الأجناس بعد البلاد وتحتلها، فقد وضعت اليد على أطراف منها، وهي من قبل قد وضعت المغرب في مفكرتها ورسمت منذ أمد بعيد دخول أرضه. قبل دخول نابليون بونابرته القطر المصري، فكر ووضع خطة محكمة لدخول المغرب واحتلاله واستعباد أهله[398]، لولا مزاحمة النكليز التي غيرت الأمور وقلبت الموازين. ظهرت على وجوههم علامات التعجب والاستغراب، لكن الحاج عبد الواحد أمّن على كلامي بإيماءة من رأسه، ولا أعلم إن كان على علم حقا أم هي مجرد عون وسند وحميّة لأخ من المغرب في ورطة، لم أبال وتابعت كلامي، تعلمون أيها الأحبّة أننا منذ زمن طويل نتلقى الضربات الموجعة من طرف الصبنيول والبرتكيز نيابة عن البلاد الإسلامية، عقابا لنا على فتح الأندلس. ذكر شيخنا الجليل في محاضرته يوم الجمعة الماضية ما وقع للجند المغاربة الذين أعدموا على يد جند بونابرته بعد أن استسلموا ورموا سلاحهم، وهناك غيرهم كثير من المحاربين المغاربة البواسل الذين جمعوا الناس للجهاد ومقاتلة الجند الفرنساوية[399]. نحن في المغرب نقاتل العدو وحدنا، بدون عون ولا سند، في حين أن المغاربة يجيبون دعوة الداعي إذا دعا. وإذا كان الأورباويون قد تفوقوا علينا بالمخترعات الوقتية وإحكام الدقة والتنظيم في كل الأمور، وحسن تدبير ورعاية شؤون الأهالي ومعاشهم، وضبط كل ذلك عن طريق دواوين ومجالس، وانتقاء الرجال الصالحين المناسبين للأعمال المرغوبة، دون النظر إلى ولائهم أو نسبهم وحسبهم أو قبيلتهم، فإننا في أصغر الأمور متأخرون، فما بالك بأدقها،

398- «قوي سلطان الفرنسيس وهو نابليون بنابارطي... وأراد الخروج للمغرب، وأتى بأجناس النصارى للبوغاز... وصنع قنطرة من اللوح ليقطع عليها، ثم خاف من النجليز لأنه لم يتفق معه على ذلك». (محمد بن عبد السلام الضعَيِّف(1818 – 1752) م: تاريخ الضعيف– ص 342 ط الأولى– تحقيق أحمد العماري 1986 – الرباط.

399- «... أنه حضر إلى دمنهور رجل مغربي وصحبته نحو ثمانين نفرا فكاتب أهل البلاد، ودعا الناس إلى الجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم، وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيس، واستمر ذلك أياما كثيرة تجمع عليه أهل تلك النواحي...» الجبرتي: مظهر التقديس، م س، ص 159 (الفقرة 177).

انظروا إلى العجلة[400] ودورها في نقل الأثقال وتسيير العربات والتنقل في أقل وقت من مكان إلى آخر، لكننا تعودنا على حمل الأثقال على ظهورنا أو ظهور دوابنا، لذلك انحنت قاماتنا وتقوست، فسهل علينا تقبيل الأيدي والأعتاب، "وما كنا مهلكي القُرى إلا وأهلها ظالمون"، هل ظلمنا أهلنا وبلداننا ومن ثمة أنفسنا؟ وما نوع الظلم وما صفته؟ وكيف السبيل إلى محاربته والقضاء عليه؟ وكيف العمل على أن لا يعود مرة ثانية سواء كان سافرا أو متنكرا؟ هذه هي المسألة، كيف نرفع الظلم عنا وعن بلداننا، ثم كيف نتعلم أن لا نكون ظالمين؟ أن نكون سواسية، نحكم بالعدل والقسطاس، أحرارا كما ولدتنا أمهاتنا، لا تُمتهن كرامتنا ولا تُداس مروءتنا. إنني أدعوكم إلى أن تقاسموني مبدأ واحدا، نسعى إليه جميعا ألا وهو الحرية، للإنسان والأوطان، لا عبودية ولا استعباد، لا استبداد ولا احتلال، أحرار في بلاد حرة، لذلك وجب على علمائنا وفقهائنا والمتنورين منا أن ينافحوا ويدافعوا من أجل توطيد العزائم وشحذها على تربية النفوس وإعلاء شأن الإنسان من أجل أن يكون مالك شأنه والقابض على زمام أمره، وأن يدافع عن حقه بكل ما أوتي من قوة وبأس، ويرفض الذل والخنوع والمسكنة ويتخلص من الخوف، عش عزيزا أو مت وأنت كريم، ليس فقط بين القنا وخفق البنود وحوافر الخيل، ولكن من أجل الصدع بالحق والدفع بالتي هي أحسن لإصلاح حال هذه الأمة المكلومة. لن أردد مع القائلين بأن هذه الحرية التي أحدثها الإفرنج في هذه السنين هي من وضع الزنادقة، لأنها

400- شكّل موضوع العجلة فكرة محورية في كتابات المؤرخين منذ حملة نابليون على مصر، ونقدم نموذجين، الأول من مصر والثاني من المغرب:
كانوا (يقصد الفرنسيين) يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف، يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو حجارة من مقدمها بسهولة، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيده على خشبتيها المذكورتين ويدفعه أمامه، فتجري عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل، فيُميلها بإحدى يديه، ويُفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة» (الجبرتي 1825 – 1754)م المختار من تاريخ الجبرتي، م س، ص 283).
«وأما المدافع فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت إفراغا وركبت عليها على وجه محكم، واتخذوا للعجلات بغالا خصية تجرها في غاية الفراهة والارتياض، ويجعلون فوق تلك العجلات صناديق الإقامة من بارود ورصاص...» (الناصري 1897 – 1835)م : الاستقصا م س، ص /96ج9.

-كما يدَّعون- تسقط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الإنسانية[401]. آن الأوان لنتعلم كيف نعيش ونحيا ونسوس أنفسنا ونسوّي أمورنا ونحكم أهالينا، إذا كنّا علّمنا الإنسانية في الماضي ونقلنا إليها تراثنا وحضارتنا ومعارفنا، فقد جاء الدور علينا لنتعلم منهم، والتعلم فضيلة والتمادي في الجهل والاستخفاف بالغير رذيلة مذمومة، خذوا العلم ولو كان في الصين، فما بالكم إذا دق أبوابنا، وكان الدق شديدا وعنيفا، النوم الثقيل لا تنفع معه إلا أصوات الطبنجية، والسياسة الوقتية الاصطلاحية القائمة على التبصر وحسن الترتيب والتدبير مصدرها العقل، وذلك ما يقودنا إلى مقولة "النظام" التي تتداولها الخاصة بالمغرب، ولا نظام إلا بسيادة العقل الذي يؤسس الشرائع ويبدع التنظيمات ويعدّلها ويلغيها متى اقتضت المصلحة الوقتية ذلك، فلِمَ نقبل بالنظام في أمور الجيش والعتاد العسكري وخوض الحروب، ولا نقبل به في السياسة الوقتية؟! لازلنا نجنح كليا للسياسة الشرعية حيث ندوخ ونتوه بين تحريم وتحليل، ونهدر وقتنا في الإفتاء عن كل كبيرة وصغيرة، وهو الأمر الثاني الذي أود طرقه، هذه المستحدثات والمخترعات الوقتية، فقد استنبط دعاة التقليد وحماة القديم التليد كل الأدلة والقرائن، ودققوا في تفاصيل التفاصيل التي يكمن في ثناياها الشيطان، ليوقفوا حركة البعث والتجديد، فنصحوا سلطان البلاد، وهذا خبر سمعته من أحد رجاله، كنت التقيته أثناء دخولي مصر قادما إليها من الحجاز، نصحوا السلطان وأشاروا عليه برفض طلب الفرنسيس والصبنيول إدخال هذه المخترعات إلى بلاد المغرب[402]، وليس فيها ما هو حرام ضار بالدين والملّة، وهو ما رأينا خلافه بأرض مصر. منذ خروجي من المغرب سائحا جوالا في أرض الله الواسعة، مُخالطا شعوبها وقبائلها التي تعارفت، والتي لا تزال على الخصام والشنآن،

401- أنظر كمثال على ذلك موقف الناصري من الحرية «الغربية»: الاستقصا: م س، ص 114 / ج9.

402- «وفي هذه المدة (سنة 1294هـ/ 1876م) وفد على السلطان أيده الله (الحسن الأول) عدة باشدورات للأجناس، مثل باشدور الفرنسيس والاصبنيول والبرتقال (هكذا في النص) وغيرهم، وتكلم الفرنسيس في شأن بابور البر والتلغراف وإجرائهما بالمغرب، كما هما بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك نفعا كبيرا للمسلمين والنصارى، وهو والله عين الضرر، وإنما النصارى جربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر الذي طهره الله من دنسهم» (الناصري: م س، ص162 ج9).

وأنا أفكر وأعيد التفكير في الكيفية التي نفكر بها، وقد علمتني أوقات الوحدة والعزلة والخلوة أن أستبطن ذاتي لأعرفها وأعرفكم، إننا نفكر بعقلين منفصلين، أو نعمل على أن يكونا منفصلين، حتى في أصغر الأمور، عقل ظلماني ندرك به أمور الدنيا الفانية، وبه يستطيع المرء أن يستنبط ويخترع معاشه وينظم حياته، وعقل نوراني ندرك به الأمور الأخروية الخالدة وهو الذي خصصناه للمؤمن، بينما خصصنا العقل الظلماني للكافر، وقياسا على ذلك، قلنا إن الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن، وكانت جنة الآخرة محرّمة على الكفار النصارى، فلا معاملة ولا مخالطة معهم، لأن العقل النوراني أرفع قدرا ومقاما من العقل الظلماني، لذلك كان الأورباويون أهل الظلام، وكنا نحن المسلمين أهل الحق والنور. جاء الوقت لنضع الميزان ونحكم بالقسطاس على أنفسنا وعلى غيرنا، فقد أخذنا ونقلنا عن اليونان والفرس والهند، ثم جاء الأورباويون فأخذوا عنا، والآن علينا أن نأخذ منهم ما ينفعنا ويقوينا، ودون أن نزايد في الأمر ولا أن نغلو فيه أو نتشدد، على أن ننسى وإلى الأبد فكرتنا القائلة بأن الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن، والآخرة جنة المؤمن وسجن الكافر، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن ترقي الأورباويين وتفوقهم عابر زائل، وأن عجلة الزمن ستعود بالتاريخ إلى أصله وهو تفوق المؤمنين المسلمين على الكفار النصارى وغيرهم. أما مشكلتنا العويصة وعقبتنا الكأداء أننا نسلك الطريق ثم نتوقف في منتصفه، لا نتقدم خطوة، حتى إذا طال بنا الأمد أخذنا في القهقري، هكذا فعلنا عندما دخلنا أوربا فتوقفنا عند أطرافها ثم تراجعنا، وهكذا عندما ترجمنا ونقلنا تراث اليونان والفرس والهند، رضينا وقنعنا وتوقفنا ثم تراجعنا إلى ظلمات الجهل والتيه، نبغ أدباء وفلاسفة وعلماء، لكننا توقفنا عندهم، أو قل أوقفناهم وأوقفنا فكرهم وعلمهم، إلى أن جاء الأورباويون فأحيوا ما مات، نقلوه ونسخوه إلى لغاتهم وألسنتهم وترجموه وزادوا عليه ونسبوه إليهم، أما نحن فلم نعد بقادرين حتى على قراءته وفهمه. هكذا فعلنا أيضا عندما بلغنا شأوا عظيما في الطب والحكمة والتداوي، توقفنا في منتصف الطريق في حين أفلح الأورباويون وتجاوزونا، فرضينا بطب الفقهاء والأحجبة والتداوي بالأعشاب. في هذه اللحظة التي لا يعيد الزمن تكرارها، تراءت لي تدخل من المشربية العالية المطلة على وادي النيل، الغادة الفاتنة الساحرة الغامضة العصيّة عن الشرح والتفسير، المُبهرة عند

الرؤيا، انطلق لساني في غفلة من إرادتي وعقلي، فوجدت نفسي أقول لهم، بعد أيام أيها الأحبة سأعود إلى المغرب، سأحملكم معي، فكرا ومحبة وكلمة، ربما تختلف طرقنا، ولكننا حتما سنصل إلى نقطة النهاية إن شاء الله، فليعمل كل منا في طريقه، ما دامت الوجهة واحدة. التفتَ إلي الحاج عبد الواحد منزعجا مرتبكا كأن أحد أولاده سقط من برج عال ثم قال لي بلهفة واضطراب من احترقت داره وفيها ماله ونسبه، ماذا تقول؟ كيف تزمع على الرحيل دون أن تخبرني بشيء؟ ثم ماذا سيفيدك الرحيل هكذا وأنت لم تتزود بشيء من مصر؟ ألم تخبرني من قبل أنك عازم على البقاء إلى أمد طويل؟ ثم لماذا العجلة في السفر، بدون تحضير وإعداد؟ قلت مبتسما: جزاك الله خيرا يا حاج، كرمك وسخاء يدك وحفاوة أصحابك ومحبتهم، كل هذا في عنقي ورقبتي، أرجو أن يمهلمني الله أجلا لأسدده، ثم قلت برضا وقناعة من يعرف قَدره فلا يُعاكسْه، أنت تعلم يا حاج أنني صاحب راحلة، فلا تطلب مني ما لا أقدر عليه، أنا خلَقت للرحيل، أجيب دعوة الداعي كلما علا النفير ونادى المنادي.

استدراك..

كان آخر عهدي بحفيد البكري المزعوم أو الشيخ العريان ذاك اليوم الذي هرب فيه من وجهي عاريا بعد أن حمّلني وصيته الغريبة العجيبة، وقد عدت مرات إلى مكان إقامته، إن أمكن تسمية ذلك الموضع إقامة، فلم أجد له أثرا ولم يعرف له من سألتهم عنه نعتا ولا خبرا، فكأن اختفاءه كان مرهونا بمقابلتي ونقله السر إليّ. وهل فعلا أخذت عنه سرا؟ وماذا أفعل إن كان هذا مراد الشيخ العريان، لم يوصني بشيء محدد، ولم يقرر شيئا، ولم ينص في كلامه على وصية أو أمر وجب تنفيذه، كل ما في الأمر أنه طلب مني الرحيل، وبدون توقف، وإلى الأبد، ثم رحل هو قبلي. تذكرت هذا الحادث وهذا الحديث عندما أتممت خطابي وحزمت أمري ولاحت في الأفق ساحرتي الفاتنة المتوارية عن الأنظار، المتلفعة بالأسرار.

رجع إلى ما كنا فيه..

تمنيت أن أمكث بالقاهرة العتيقة دهرا طويلا لأدون تاريخها وأخبار رجالاتها ونسائها وحكاياتهم المروية وغير المروية جيلا بعد جيل، أن أكتب تقييدات وكراسات حول عقلائها ومجانينها ومنشديها ومغنييها وراقصاتها وغوازيها وحرافيشها وفرق الذِّكر والورد ورجال الدين والتكيّة. لكن العمر القصير، ولم يبق إلا أرذله، والطريق طويل، والراحلة تنتظر، والمنذور لأمر لابد أن يسعى وراءه. قضيت الأيام الأخيرة لما قبل الرحيل أتجول متسكعا بحواري القاهرة وأزقتها، وهاجس يهجس بي أَنني لن أراها ثانية، فكأنني أحفظ عن ظهر قلب صورتها حتى لا أنساها أو تنمحي من فكري. كنت أتمهل في المشي وأتوقف وأقعد على المصاطب وجنبات الطريق وتحت الأشجار لأتملى أكثر بمنظر أو أتمعن في أثر أو أخزن في ذاكرتي جمال امرأة تقول للقمر: انزل وأنا أقعد مطرحك كما يقول ظرفاء مصر. حضرت مولد سيدنا الحسين، وكان هناك فقهاء يرتلون القرآن بالنهار، وبالليل يقرأون «دلائل الخيرات» للشيخ الجزولي. وقد انضم إليهم أهل البدع كحلقات الجذبة والذكر، منهم من ينشد القصائد والمواويل، ومن ينشد أبياتا من «بردة» البوصيري، كما شاهدت أيضا جماعة من المغاربة يزعمون أنهم من الزاوية العيساوية، اصطفوا صفين متقابلين وأخذوا في الضرب على الطبول والدفوف وهم يؤدون نفس الحركات والإيماءات التي نعرفها عنهم في المغرب من أحوال وطقوس الجذبة، وعلى بعد خطوات من فرقة عيساوة تفرجت على رجل يلعب بالعرائس، وهو ما يسمونه هنا بالأراجوز، إذ يدير من وراء ستارة عرائسه، فيجعلها تؤدي حركات الأوادم على أحسن وجه، كل ذلك بخيوط يحركها من خلف ولا يراها المتفرجون، كما بإمكانه أن يُغيّر أصواتها حسب المقام والمقال حين تدخل العرائس في شجار أو خصام مما يُضحك المتفرجين كثيرا. كنت أيضا أقضي وقتا طويلا بالجامع الأزهر، أطوف بصحنه ومقصوراته وأتفقد الطلبة المجاورين والكتبة، وأقعد كثيرا بالساحة الكبرى أمام أبواب الجامع حيث يجتمع خلق كثير وتحتدم المناظرات ويطول الجدال. وقد كان هذا التجوال بالأزهر يقوّي الروح ويجدد العزم ويُمنّي النفس بالآمال العِذاب، يعيدني إلى عوالم جامع القرويين وحياة الطلبة

والأماني التي كنا نعقد العزم على تحقيقها، والأحلام التي عدونا وراءها دون أن نلحق بها.

وجاء اليوم الموعود، ليس يوم السفر، ولكنه اليوم الذي تضيق بك فيه الأرض بما رحبت، وتسود في عينيك الحياة، وتناديك الآفاق بالهجرة، هل كان عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين (ض) يقصد هذه الدلالة، وهذا المعنى، عندما اختار الهجرة النبوية كمبدأ لتاريخ الإسلام، ولم يختر نزول الوحي مبتدأ؟ اخترت الهجرة أم هي اختارتني؟ وهل يختار الإنسان قدره ؟ربما يصح القول، اخترتها واختارتني.

ها هي تضيق وتغلي وتمور تكاد تميز من الغيظ، يشتد سعيرها ويعظم أوارها وتحمى نارها، فتحرق كل أرسان الدنيا ذات البأس الشديد، فكأنها خيوط من حرير حالت إلى مُزق مع أول شد وجذب، حتى الهانم المصرية التي قلت يوم دخلت بها، إنني لن أستطيع معها صبرا ولن أقو على فراقها وغيابها ولو ساعة واحدة، ها هي تتبخر أمام ناظري كصورة رسمتها الغيوم فتلاشت مع هبة ريح خفيفة. عندما أخبرتها بعزمي على الرحيل، شردت قليلا كأنها تتذكر شيئا نسيته منذ قليل، ثم قالت: منذ الليلة الأولى عرفت بأنك راحل ذات يوم، ففي عينيك صحاري ورمال تنادي، وعلى وجهك أمارات بَحّار لا ينزع الشراع إلا ليرفعه مرة ثانية، لن أمنعك من الرحيل، فنساء كثيرات قبلي لم يستطعن إلى ذلك سبيلا، ولكني أخشى أن أكون آخر امرأة في حياتك، فهذه المرة أنت راحل نحو المغارب.

كتاب الكرنتينة[403]

صعد الملاح إلى ظهر السفينة، من قُمرته كان يراقب الخلق وهم يتدافعون ويزاحم بعضهم بعضا، رغم علمهم أنهم جميعا سيُسفّرون على هذا البابور، وهو واحد من مراكب الكفار[404] التي تنقل الحجاج المغاربة ذهابا وإيابا إلى الحجاز، وعذرهم طول الانتظار وندرة المراكب هذه الأيام. وقد تيسرت الأحوال وتقاربت الأقطار باختراع سفن النار ومراكب البخار. عملت بنصيحة إخواني المصريين بركوب البحر بديلا عن طريق القوافل والتجار التي تعبر صحاري ليبيا وتونس وتلمسان وصولا إلى المغرب الأقصى، ورجّحت رأيهم وعملت به نظرا لرغبتي الشديدة في العودة إلى بلدي ولضعف صحتي ويقيني بعدم استطاعتي تحمل مشاق السفر والصبر والاصطبار على ذلك، وقد بلغت من الكبر عُتيّا، ولم أعد ذلك الفتى الذي خرج ذات يوم من فاس مزهوا بريعان شبابه وفتوته وحنكته ودهائه، ها هو اليوم يعود عليلا سقيما، في عينيه دمعة حبيسة، وفي قلبه فرحة مقموعة، وفي رأسه فكرة ميتة. لم يعد خالي الوفاض، لأنه لا يملك وفاضا، ولا يدري لأمره حلا ولا قرارا، مشوش البال، حائر الفكر، مضطرب النفس، ملولا سؤوما. عاشرت أقواما، مات منهم الكثيرون، ولازلت حيا، وحيدا، لعلني استثنيت من الموت لأكتب التاريخ وأروي الحكاية. تراب المغرب الذي استصحبت معي حفنة من ترابه منذ خروجي الأول ضاعت مني في سقاية الماء قبل دخولي تنبكتو، فلم أسلم من المضرة والمرض واختلال العقل والتشوش عندما وردتُ المياه المختلفة. خرجنا من بحر الصحراء

403- الكرنتينة: أصل الكلمة أجنبي (الأربعينية) ومعناها الاصطلاحي الحِجر الصحي.

404- البواخر الأوربية.

إلى بحر الطوفان والفلك، تغيّرت المصارين في الأحشاء وتعكرت الأمزجة باختلاف الأهواء والمشارب والمطاعم، فأصيب الناس بالغثيان والصداع والشقيقة، البعض من الركاب تقيأوا بفظاعة حتى خلتهم سيقذفون بأمعائهم إلى البحر ليتخلصوا مما هم فيه من عذاب. قلّت المياه فعانينا العطش، ونقصت الأغذية فجعنا أياما، اكتفينا خلالها بالجرعة واللقمة. وصلنا تونس، وكانت رغبتي قوية لأزور القيروان، فأصلي في جامع عقبة بن نافع أول جامع ببلاد المغارب، ولأرى الطريق التي شقها من هناك إلى مدينة أسفي حاضرة المحيط التي وقفت أمام أمواج شطآنها سنابك خيله باعتبارها نهاية العالم، فما بعدها إلا بحر الظلمات. لكن الأنباء السيئة تأتي في الأوقات الهنيّة، لكي يبدو سوءها وضررها أعظم وأكبر. ذاعت الأخبار بشيوع الوباء الخبيث ببلدان المغرب، ومُنعت المراكب من دخول المرافئ والمدن، فجاءت إلينا زوارق صغيرة حملت إلى البر من كان معنا من أهل تونس، ثم عاودنا المسير باتجاه الغروب، سبحان الله، كانت الشمس تستقبلني كل صباح، وها هي اليوم تودعني كل مساء، كنت أراها في الصباح الباكر كالحياة أو هي الحياة تنشر نورها الوهاج حتى ولو كان حارقا. وها أنذا أراها الآن خابية كابية معلولة، تودع الكائنات والنباتات كأنها راكبة نعش الموت إلى مستقرها الأخير. رأيتني والشمس سواء، كلانا رأى في الآخر نفسه، أنا وهي كالصورة في المرآة. توالت الأيام تباعا، مياه فوق مياه، وأمواج تعدو وراء أمواج. سماء بلون البحر، وبحر بلون السماء، فكأن أحدهما يرى صنوه في المرآة. الصحراء، كانت أكثر متعة وجمالا وأنسا من هذا البحر الهائج المضطرب الذي لا يعرف المرء ما يخبئه باطنه من أسرار وفواجع، فلا يغرنك ظاهره الهادئ الناعم كبساط ممتد من الزرقة الخلابة الموحية بالارتياح والاطمئنان ورغد العيش، فلا يدري أي منقلب يخرج من جوفه. ومن سوء حظنا وتوابع النحس المرافق لنا، أننا أقلعنا من ميناء الإسكندرية المشهور بتفشي الوباء، وهو الميناء الذي يبحر منه الحجاج المغاربة القادمون إلى بلادهم. فما درينا بأنفسنا إلا وطاقم البابور يعلمنا بوجوب الخضوع للكرنطينة بما يسمونه «الأزريط»[405] الذي سيستقبلنا. اكتأبت الوجوه واغتمت، وتشاءم الحجاج من

405- المحجر الصحي.

إقامتهم المنتظرة بمحاجر الكرنطينة ببلاد الكفار وما يسومونهم هناك من صنوف الذل والهوان، وما يفرضونه عليهم من غرامات ومصاريف لقاء حبسهم[406]. وقد علمنا ونحن قاب قوسين أو أدنى من دخول طنجة أن الريح الأصفر[407] قد تحرك فهبّ على المغرب عن طريق الحجاجِ الذين سبقونا[408]، وأن الصدر الأعظم أحمد بن موسى[409] قد أعلم باشادور النكليز بعزم دار المخزن إشعار الكمبانيات بعدم نقلِ الحجاج من المغرب إلى الديار الحجازية[410]، ولما لم يعجب هذا الأمر النكليز فقد استمرت الكرنطينة وواصل مجلسها إهانة المسلمين وانتهاك حُرماتهم، مما دفع بالمخزن إلى منع الحج[411]. قادنا البابور إلى جبل طارق، ولما أرسينا فيه، صعد إلينا طبيب الكرنطينة للفحص عن صحة الحجاج وأعلن أن نزولنا لا يكون إلا بعد إقامتنا بالبابور سبعة أيام، ثم عاد إلى حال سبيله وبقي الحجاج ـ بعضهم فوق بعض ـ في حالة يرثى لها من شدة الضيق والإهمال.

406- "فقد بلغنا أن أهل ماعون من جنس الصبنيول كانوا يقبضون عند الخروج من الكرنطينة رُبعي ريال من المسلمين واليهود والنصارى عن كل رأس. واليوم ارتكبوا الغلو والإفراط في جانب المسلمين، وجعلوا يختارون الأعيان ويقبضون منهم ثلاثة ريال وثلثا للرأس، وغير الأعيان يقبضون منهم ريالين وثلثا للرأس. وأبقوا اليهود والنصارى على العادة القديمة من إعطاء ربعي ريال فقط. وهذا لا ينبغي السكوت عنه. فبوصول كتابنا هذا إليك أحضر قونصول الجنس المذكور، وقل له هذا الفعل الذي خرقوا به العوائد وخرجوا عن القوانين والقواعد، وليرجعوا كما كانوا مع المسلمين. وقد بلغنا أن كل من دخل جبل طارق من المسلمين يعطي ريال عند خروجه سواء أقام بها شهرا أِو يوما، فبوصول كتابنا هذا إليك، اجعل على كل واحد ممن يدخل طنجة من جنس النكليز ريالا يؤديه عند خروجه منه. والسلام في 5 شعبان 1253" الموافق 4/11/1837).
رسالة من مولاي عبد الرحمان إلى عبد السلام السلاوي حول الزيادة في ضريبة الحجر الصحي المفروض على الحجاج بمحجر ماعون (الاتحاد الإشتراكي 06/11/2005).

407- الكوليرا.

408- كان ذلك سنة (1312هـ – 1895م)

409- المشهور بلقب «أبا احماد» 1313 -1253 الموافق 1896 – 1841)

410-كان ذلك سنة 1313هـ – 1896 م.

411- بعث السلطان مولاي عبد العزيز إلى نائبه محمد الطريس رسالة في شأن تسريح الحج جاء فيها «خديمنا الأرضى... وصل جوابك عن الاستفهام المتقدم لك في شأن تسريح الركوب للحج، هل زالت موانعه وارتفعت أسبابه أم لا؟ بأن المنع إنما كان للحادث الناشئ عن تغير الهواء ببلاد الهند وقد صلح الآن كغيره من سائر تلك الأقطار ولم يبق فيها شيء لما كان موجبا للمنع...» (الاتحاد الاشتراكي. م س)

مرة في اليوم، تأتينا فلوكة حاملة مؤونة رديئة، لا طعم لها ولا مذاق، وبثمن غال، ولا يحصل الفرد منا على كل ما يلزمه منها إلا بعد مشقة عظيمة بسبب الازدحام والهرج والخوف من النفاد. بعد مضي الأيام السبعة رخصوا لنا بالنزول إلى المحجر الذي شيدوه وأقاموا به المباخر، فأركبوا الحجاج في قوارب يجرها بابور صغير، بعد أن منعونا من أخذ حوائجنا ومتاعنا إلا الفراش وبعض الملابس، والباقي يُترك بالبابور حتى ينتهي أمد الكرنطينة. وما نزلنا البر إلا بعد مشقة عظيمة، ثم إن من دفع نقدية من الحجاج قدموه لموضع التبخيرة، ومن عجز عن الدفع لفقره وضعف حاله مُنع من الدخول، فيظل نهاره تحت الشمس المُحرقة، ومن الفقراء الحجاج من بقي ثلاثة أيام على هذه الحالة السيئة حتى انتهى التبخير لسائر الحجاج الذين أدوا القدر المعلوم. بعد التمام من التبخير طلبوا منا الاصطفاف كالعساكر ليختبر الطبيب أبداننا واحدا واحدا، ثم رشونا بماء، رائحته كريهة وأخرجونا من طريق غير تلك التي سلكناها من قبل، وهنا وجد كل واحد منا ملبوسه ملقى على الأرض بعد تبخيره، في حالة رثة سيئة، ما هو محروق ممزق، وما هو مبلل بمياه تزكم الأنوف برائحتها العطنة، ومرأى الحاج الذي يبكي على حوائجه المحروقة، والحاجة التي تلطم خديها على ضياع حِليّها. أخرجوا الجميع إلى المحجر، حائطين بهم العساكر من كل جانب، وكانت المسافة بيننا وبين المحجر بعيدة، قطعناها راجلين، وفينا رجال ضعاف ونساء.

حين قرب انتهاء الكرنطينة بيومين، رخص الطبيب للحجاج بالحضور لتبخير ما في صناديقهم الموضوعة في البابور، فإذا هي - جلها أو كلها - مكسرة، والحوائج ممزقة ومبعثرة أو منهوبة، تلعب بها النار ويغطيها الغبار وترش بالماء العَفن الكريه الرائحة.

لبثنا بالكرنطينة أربعين يوما هي المدة الواجبة لحفظ الصحة والاحتراز من العدوى، ولذلك سموها الكرنطينة بلغتهم أي الأربعينية، وكانوا أشداء في إقامتها، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة في إقامة حدودها ولو باللجوء إلى القصاص أو القتل عند المخالفة. وكانوا عند دخول الوباء بيتا أو بلدا لا يدخل فيه ولا يخرج منه أحد، ومن مات تحرق ثيابه إلا التي على بدنه، ولا يدفنون الموتى في

التُرَب[412] القريبة من المساكن، ولكن في المقابر البعيدة، وإذا دفنوا بالغوا في تسفيل الحفر.

ولما كان هذا الأمر الشديد مما كنت أسمع به من قبل دون أن أعيشه، فإنني اليوم خبرته وخبرني، فأصابني في السويداء وهدّني وسلبني القوة والعافية، فعزمت على استقصاء أسبابه وعلله وعلامات حصوله في البلاد والعباد، فرأيت بعد تمحيص الآراء والأفكار ومرويات من عاشوا الكرنطينة قبلنا وما حكاه من جمعوا أخبارها وحوادثها، أن فساد الهواء يكون من تغير الفصول كما يكون من الأبخرة المتعفنة الصاعدة من الأرض، فيتغير الهواء ويتعفن ويحدث عنه الوباء، كما يحدث عن فساد الأغذية في زمن المجاعات وغلاء الأسعار، حيث يضطر الناس إلى تناول الغذاء غير المألوف أو المستأنس به وقد فسد وتعفن لطول زمانه. ولا يكون هذا الوباء وما ينتج عنه من كثرة الوفيات إلا بأثر الغلاء وندرة الأقوات بسبب المجاعة والجفاف، فإذا طال الأمد واشتدت أسبابه، لزم عنه الوباء حتما، وهذا قانون في الطبيعة مطرد لا يحتاج فيه إلى قراءة الكف أو مراقبة النجوم وتتبع منازل القمر. وقد كانت معي بالكرنطينة صحبة من الحجاج الأجلاء، من التجار وخدام المخزن والفقهاء والمشايخ، كنا نقضي أغلب الأوقات في المذاكرة، والجدال حول أسباب الوباء وحكم الشرع في الكرنطينة، فكان منا من يعتقد أن العدوى حقيقة، ومنا من يحل محلها إرادة الله أي من يؤكد على ضرورة الأخذ بأسباب الوقاية بما فيها الفرار من أرض الوباء وعدم الدخول إليها دون أن يرى في ذلك تعارضا مع تعاليم الإسلام، والطرف الآخر الذي ينهي عن الفرار ويرى بالتسليم لمجاري القدر، ومن المقدور لا يغني ولا ينفع الحذر. ورغم أننا محبوسين في جبل طارق بمقتضى حكم الكرنطينة، فقد كان من بيننا من يرى عدم ضرورة ذلك ولا شرعيته المفرطة في الاحتراز، فالموت والحياة بيد الله، ولا تأثير لشيء من الأسباب في الموت وغيرها، بل الأمر لله وحده، وأن التحصن بإغلاق الأبواب أمر لا فائدة فيه، بل على المرء المؤمن أن يتسلح بالصبر والرضا والتسليم لما جرت به المقادير، فلا يخاف ولا يحذر، إذ لا ينفع حذر مع قدر. وكان بعض أصحابنا في الكرنطينة يستشهدون بما رأوه أو نقل إليهم بالسماع والرواية عن أناس تقدموا لغسل الموتى ومقابلة

412- التُرْبة: المقبرة (ج تُرب).

المرضى المصابين بالوباء في مدن عدة ومداشر متفرقة، فغسلوا وكفنوا وباشروا المرضى فلم يصب منه أحد بشيء، وكثيرا ما كانوا يستشهدون بقول النبي (ص) «لا عدوى ولا طيرة». وأما الفئة المؤيدة المتبنية لرأي من يقول بالاحتراز والوقاية، وإن كان اجتهادا دائما مستندا للفقه والأصول، فإنها تعاملت بمرونة واعتدال لتأكيد حقيقة العدوى ومشروعية الاحتراز، إذ يحتج أصحابها في ذلك بالخليفة عمر بن الخطاب عندما لم يتردد عند قدومه إلى الشام في العودة بمن معه من المسلمين لما علم بظهور الوباء بها، وعندما سأله أبو عبيدة بقوله: «أفرار من قدر الله؟» أجاب عمر (ض) «نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله». كان أحد الفقهاء ممن عاشروني بدار الكرنطينة يقول للمتشددين، الفرار من أرض الوباء بمثابة استعمال الدواء، وغالبا ما يمزج الجد بالهزل فضرب لهم مثلا بالخارج من بلد الوباء كالفار من مكان دخله لص أو أجمة يختبئ بها أسد، فهرب مخافة أن يصيبه مكروه، فكما لا يُعد هذا معارضا للقدر ولا دافعا لقضاء الله الذي لا مرد له، كذلك لا يكون الخارج من أرض الوباء معارضا للقدر. غير أن أصحابنا من الفقهاء والأئمة والطلبة كانوا على كلمة واحدة في أمر الكرنطينة الشنعاء الممنوعة عرفا وشرعا، حتى أن بعضهم كان يصفها بالبدعة. وقد علمت من البعض أن قاضي مراكش قال: «وأما حكم الكرنطينة فهو الحظر...»[413]. وقد كان نظري مخالفا لبعض هذه الأقوال غير المنصفة للحقيقة، إذ أن هؤلاء الفقهاء ينبذون جميع ما جاء من أوربا ولو كان فيه رقي الأمة الإسلامية والعربية، ومن ذلك رفضهم للحجر والحفظ على الصحة ومحاربة العدوى عن طريق الكرنطينة، ولا بأس من الاستعانة برأي الإفرنج إذا اقتضى الأمر، فالضرورة تبيح المحظورة، وقد برعوا في كيفية التحفظ والتحرز من الوباء وحسم مادته[414]. الوباء لا دين

413- قاضي مراكش عبد الله بن خضراء السلاوي (الناصري، الاستقصا. م س ص 185 ج5).

414- لم يكن هذا رأي السلطة المخزنية، فعندما وافق محمد بركَاش عام 1878م على فرض نطاق صحي حول طنجة لحمايتها من الكوليرا التي ظهرت بفاس ومكناس صبّ عليه الحسن الأول جام غضبه في رسالة توبيخية يقول فيها: «وتعجبنا من قبولك منهم (السفراء الأجانب) ذلك الكلام وسماعه، فضلا عن العمل به مع أنه مخالف لشريعتنا المطهرة، فإن المعتمد في ديننا أن لا عدوى ولا طيرة، وأن الذي في أحاديث نبينا الصادق الصدوق صلى الله عليه سلم أن لا يقدم على بلاد هو فيها(الوباء) ولا يخرج من بلاد ظهر فيها فرارا منه» (محمد الأمين البزاز: تاريخ الأوبئة... م س – ص407).

ولا بلد له، يحل أينما وجد ضالته ويخطف الأرواح دون تمييز. آه لو كان الطبيب النصراني بجانبي هنا، الطبيب الذي التقيته بقرية المشاعيين، ذاك الذي عالجني وأنقذ حياتي قبل أن تضيع في تيه الصحراء، ما اسمه؟ نسيته، آه.. دانيان.. لا، دانيال، تذكرته، ليته كان معِي الآن، قد تقع المعجزة. اشتد علي المرض، لا أظنه من عدوى الوباء أو بوكَليب، فالطبيب الذي فحصني عدة مرات لم يجد للمرض طريقا ولم يعرف له سببا ولا علة. أما أنا فقد كنت أعرف دائي ودوائي، وأعلم أنني على كف عزرائيل منذ أمد بعيد، وأن الأيام التي أعيشها فائض بركة ورضا الله والوالدين، فربما كان عمري قد انتهى ونفد منذ مدة. لا أحس بأنني حي بقدر ما أحس أنني أسير بين الناس مسربلا بكفني ورائحة الحنوط تفوح مني، لكن الناس لا يميزون بين الأحياء والأموات، ومن تم بين الحياة والموت. لقد رأيت الكثير من الأموات يسيرون في الأسواق ويدخلون الدور والقصور والمساجد والزوايا، يتبضعون ويأكلون ويشربون ويضاجعون ويتعبدون ويتنسكون وهم في عداد الموتى منذ وقت طويل. أصبحت من هؤلاء، فلم يعد بيني وبين الحياة رابط ولا آصرة، لا أهل ولا حريم ولا أولاد ولا بيت ولا شغل، حتى أرض المغرب لم تطأها قدماي منذ سنين طويلة، فما الذي يربطني بهذه الحياة وهؤلاء القوم.

يوما بعد يوم يزداد المرض إيلاما، وتخبو شهوتي إلى الطعام، وحده الماء يخفف عني، لم يعثر الطبيب على دواء لدائي فألزمني الفراش، رهين المحبسين، المرض والكرنطينة. انتهت الأربعينية وغادر من غادر، كل إلى وجهته، إلا أنا لازلت أنتظر أن يخف عني الداء ويزول، وتعود إليّ قوتي التي اخترقت بها الصحاري والرمال والزوابع، وقاومت الجوع والعطش، وصارعت الثعابين والغيلان والأقوام المتوحشة. هزل الجسم وعلت التجاعيد وتربعت على كل موضع في وجه كان نَضرا مبهجا، شاب الشعر في الرأس والوجه وتحت الإبطين والصدر والعانة. لم تعد قدماي بقادرتين على حمل هذا الجسم الهزيل النحيل الآخذ في التحول إلى كومة من العظام والجلود. لم أعد قادرا حتى على حمل القلم وغمسه في الدواة لأخط به على صفحة بيضاء جديدة كما كنت أفعل من قبل. يدي ترتعش والقلم بين أصابعي يهتز ولا يثبت إلا بمشقة، وغالبا ما أخطئ فوهة الدواة فأغرزه حولها، ومن حسن الحظ أن الدواة لا تنقلب ولا يسيح مدادها على الأوراق والفراش.

لو شفيت مما بي واستعدت صحتي، ولو نصفها، لرحلت إلى بلاد الشمال، لن أعود إلى المغرب قبل أن أرى بلاد الأندلس وما خلفته سبعة قرون من حكم المسلمين، وقد ينطق الحجر بالحقيقة. ربما يكون المنطق معكوسا، فلكي أعرف الشرق عليّ أن أعرف الغرب، وقد تكون أوربا مفتاح فهم ومعرفة ما نحن عليه من تأخر وتدهور، وما أصابنا من تحلل وانحلال، ألا تُريك المرآة وجهك، وسيما كان أم قبيحا؟ هل يستطيع وجهك أن يُريك نفسه دون مرآة؟ كذلك الأمر بالنسبة للشرق والغرب، فلتكن المرآة آخر كشاف لعيوبنا وأخطائنا علّنا نجد الطريق الصحيح، يلزمني لذلك شباب قشيب جديد، وصحة جيدة، فالآمال وحدها لا تفي بالغرض المطلوب.

كلما دنوتُ بَعدتْ، وكلما اشتقتُ جفتْ، وكلما صحوتُ غَفتْ، وكلما رأيتُ عَميتْ، وكلما نطقتُ خَرستْ، وكلما حضرتُ غابتْ، أنا غير أنا ولا أنا هو أنا، ضاعت مني الغادة الفاتنة الساحرة الغامضة المتوارية عن الأبصار المتلفعة بالأسرار، المستقرة بالعقول والضمائر. توارت وانمحى أثرها، سحاب خفيف، ومضة قنديل في ليل بهيم، قطرة ماء في صيف قائظ، هل هي النهاية؟ عششت الغربان برأسي، ونعقت البومة في أحشائي، فلا الحياة زاهية ولا الموت آتية، عشت عمرا كأنني عشت زمنا سرمدا أو لم أعش أبدا، كالجعران حياة الأوادم يكورون غائطهم ليناموا فيه، ويفقسون بيضهم ليلدوا جُعرانا مثلهم، يكورون ويكررون حتى يغرقون يوما في خرائهم وروث بهائمهم.

سأقوم من رقدتي وسأنتصب كالنخلة، شديد البأس، قوي الشكيمة، وسأعدو وراءك أيتها المتحجبة السافرة، سألحق بك مهما طال الزمان.. وحتى الرمق الأخير، فانتظريني، أنا آت.. آت.

أحبيني، ثم ارحلي إن شئت، سيان عندي.. أقمتِ أم غادرتِ. أحبيني، كالشمس مشرقة آفلة، كالقمر بدرا ومُحاقا. أحبيني، ثَم ارحلي. وإن طالت الغيبة، فأنت هنا، في ركن من قلبي، قابعة ساكنة. يكفيني أنك تُحبيني، حتى وإن لم تكوني طوع يميني. أحبيني، فقد أحببتك راحلة وبعيدة ومستحيلة، كالجنة، لن نلحقها إلا بعد الممات، أما الجحيم، فهو الحياة. أحبيني، لأنك النعيم، لأنك الحياة بعد الممات. أحبيني، لأن كل من عاشرتهم، أو رافقتهم، أو أحببتهم، ما أحبوني، أحبيني.

كتاب الشذرات[415]

جلست أمامه، فأشار عليّ أن أجلس بجانبه، وقال: مكانك للريادة، فلما رأى تعجبي واستغرابي وارتباك حركتي، تابع القول: فراستي لا تخطئ في معرفة الرجال، وستكون خطيّة إن أخطأت في حق رجل يشع من عينيه نور النبوة، وإن لم يكن نبيا، وتسمو طلعته البهيّة لتقارب وقفة الملوك ورجال الدولة، قلت مبتسما ومحرجا في الآن ذاته: ما أنا إلا جوّاب آفاق وعابر صحراء، وما أوتيت من العلم إلا قليلا، قال: وماذا بعد. . .وما يضيرك من هذا إن كان الله قد اختارك أمين السر وكاشف الغُمّة، قلت: كيف عرفت حالي وأنا لم أتكلم بعد. . . قال: هي الإشارة قبل العبارة، قلت: سُدت في وجهي الأبواب، وضاقت بي الأرض بما رحُبت، ازددت علما بكل شيء دون أن أعرف ما سعيت من أجله، قال: سعيت وراء الأسباب، وغابت عنك الخواتم. الفرصة ضاعت والكون أكمل دورته، فلم يبق أمامنا إلا انتظار معجزة.

*****

قال لقمان لابنه ناصحا:

«أي بُني، إني قد ندمت على الكلام، ولم أندم على السكوت».

ليس لي عقب، فلمن أهدي هذه النصيحة؟ !

للأبكم الذي يحيا من أجل أن ينطق ذات يوم بكلمة واحدة.

*****

415- الشذرات: فقرات ونصوص قصيرة لم أجد لها مكانا في ترتيب فصول هذه الرواية. لعل العبدي كتبها خلال زمن التأليف (مسار الرحلة – تعدد الأمكنة. . .) ولم يُعن بتضمينها أو استثمارها داخل النص، فارتأيت أن أعرضها على هذا الشكل كشذرات مستقلة بذاتها لكنها من صميم النص، تعالقا وتشاكلا.

تراب يمشي فوق تراب، تراب يُدفن في جوف تراب، تراب يلد ترابا. ستدروكم الرياح يوما، ذرات ذرات، غبارا خانقا، تتفتتون مستحثات، غدا ترون التراب، وكل ما خلق من تراب، غبارا مسافرا راحلا نحو السماء.

*****

سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس[416].

*****

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ويقيت في خَلْفٍ[417] كجلد الأجرب

*****

«هل يضر السحابَ نبح الكلاب»

*****

إذا اقتربتُ احترقتُ، وإذا اقتربتَ احترقتُ، هذا مقامي، وذاك علوك، فلأصعد حتى تتجلى، فأصبحُ قاب قوسين أو أدنى.

*****

«أبهمتُ الأسرار المحظورة، وغوّرت المعاني المكتومة لئلا يقع مقالي في يد مُفسدين متجبرين.»

*****

رغبتي في أن أتركهم ينعمون في غبائهم.
هذا ما لا أقدر على فعله، ولو كان السيف على رقبتي.

*****

كل مسافة مسكونة، كل خطوة أثر، وكل أثر قيامة.

*****

416- قد يكون عنوان تأليف كان العبدي بصدد كتابته.

417- الخَلَفُ: البقية الصالحة من ولد الرجل وأهله. الـخَلْفُ: ضد هذا.

بَعُدَ المزار وناءت الدار[418].[419]

وغيبتني عنك الرمال والقفار.

*****

ما لقلبي الوديع، ما دهاه5؟

كل من أحب بصدق، جفاه

*****

من عرف نفسه، كان عند الناس ذليلا، ومن عرف ربّه، كان عند الناس مجنونا، وأنا عرفت نفسي وعرفت ربّي، فمن أكون؟! الله أعلم.

*****

الصحراء أكبر وأعظم مسجد جامع. صلاة الصحراء، سجادة الرمال، وحيدا متوحدا، في وقوفك وركوعك وسجودك، قانتا في صلاتك ودعائك، ما أقربك من الله، وما أدناه منك. وحدك في هذه الفيافي المقفرة تؤذن، فيعيد إليك الصدى كلماتك كأنه صوت الملائكة تصلي معك، كأنك تتلقى وحيا، لست وحدك.

*****

أكملت سيرتي، وقرأت صحيفتي، وأديت صلاتي، ولم يبق لي إلا أن أغادر هذا البدن النتن لعلي أعود إلى جوهر الفرد الرباني الذي من أجله خلقني الله وصوّرني في أحسن صورة، من المؤكد أنها ليست هذه الصورة التي عليها البشر، ففي مملكة الحيوان ما هو أحسن منها صورة، إن كان الأمر أمر صورة، أما إن كان أمر عقل وإيمان، فهذا أمر التبس علينا فيه الصواب بالخطأ وأصابتنا آفة الفتنة التي جعلها الله قرينة الدنيا، وما أخطأ من سماها «الدنيا» من الدنيّة الواطئة الخسيسة. لو كانت في الحياة فرصة أخرى، ناسخ ومنسوخ، أن نولد من جديد ونحن على علم ودراية بما صنعناه في حياتنا الأولى المستنسخة، سيكون ذلك أفضل.

أسفي 11 يوليوز 2011

418- 419- يظهر أنها أبيات شعرية لم يتم العبدي كتابتها وصياغتها النهائية.

صدر للكاتب عن دار افريقيا الشرق

- خبز وحشيش وسمك 2008 - رواية

- سعد السعود 2010 - رواية

البريد الالكتروني : lahbibiabd@yahoo.fr





المصحف الذي يُعتقد أن العبدي قد أملاه على طلبته بزاوية العبابدة (أنظر فصل الدين والسلطان)

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2014
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهاتف :04 95 25 22 05 / 13 98 25 22 05
الفاكس :20 29 25 22 05 / 80 00 44 22 05
مكتب التصفيف الفني : 39، زنقة علي بن أبي طالب
الهاتف : 54 / 53 67 29 22 05
الفاكس : 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني E.mail : africorient@yahoo.fr
www.afrique-orient.com

تغريبة العبدي المشهور بولد الحمْريّة

«نعتوا لي هناك رجلا مجذوبا يجلس عاريا أمام خرابة. عاريا كما ولدته أمه،كان يمشي بالأسواق كذلك، حاسر الرأس، مكشوف السوأتين، تحكى عنه كرامات مطلعا على المغيبات يقرأ ما بالقلوب والنفوس وما تهجس به... أقرأته السلام والتحية وجلست أمامه، رفع رأسه نحوي ووضع يده على فرجه، فاستغربت ما فعل، نظر في عيني وقال: انتظرتك طويلا أيها المغربي، قلت: وما أدراك أنني من بلاد المغرب؟ قال: العلامات، قلت مستوضحا: أية علامات. قال: العلامات تظهر وتختفي، لكنها تتكلم... تابع كلامه، سافرتَ طويلا وجبت الآفاق، رأيت أناسا وديارا وبحارا وقفارا، أنا لم أرحل إلى أي مكان، لكنني سافرت بعيداً، أبعدَ مما تظن، صادفتك، لكنك لم تتعرف عليّ، ما تبحث عنه لن تجده هنا، ربما كان هنا ذات يوم، قد يعود أو لا يعود... قلت له دون أن أفكر: جئتك لائذا خائفا مذعورا، قال: أعرف، الخوف يجمع الأحباب، كلنا نخاف الله لكي نحبه، أما هؤلاء، فلا خوف منهم ولا عليهم، فدعهم في عماهم يعمهون، وفي غبائهم ينعمون...».



صدر للكاتب عن دار افريقيا الشرق
- خبز وحشيش وسمك 2008 (رواية)
- سعد السعود 2010 (رواية)



Bill West (né en 1942)
"les dromadaires"

ISBN 9981-25-866-2
9 789981 258662